المماليك

تأليف

الدكتور السيد الباز العريني
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

الفروسية في مصر

في عصر سلاطين المماليك

١٢٥٠ - ١٥١٧

محتوى الكتاب

تصدير

لقي النظام الحربي عند المسلمين شيئا من الاهتمـــام عند مؤرخي الغرب من مستشرقين وغير مستشرقين ، فظفرت الدولة العثمانية كمـا ظفرت الدولة المملوكية بقسط من هذا الاهتمام ، دون ان تنال الفروسية المملوكية حظها من الدراسة مع العلم بانها محور النظام المملوكي كله .

وليس هذا البحث سوى محاولة لتكوين صورة واضحـة للاسس التي قام عليها نظام الفروسية المملوكية وما طرأ عليها خـــلال عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ــ ١٥١٧) من تغيير وتعديل .

وتناول هذا البحث دراسة الاوضاع التاريخية في الشرق الاوسط في القرن الثاني عشر الميلادي ، وشرح العناصر التي تألف منها الجيش المملوكي ، ووصف حياة المملوك منذ ان جلبه تـاجره الى مصر حتى تحرر بعد ان فرغ من دراسته بالطباق وغدا فارسا . يضـاف الى ذلك ما ورد في هذا البحث عن العوامل التي تحكمت في مستقبل الفارس وموارده والعلاقات التي تربطه باستاذه وزملائـــه في الرق والعتق والتربية والخدمة واهمية ذلك كله في قوة نظام الفروسية وضعفه .

وعلى الرغم من ان المصادر المملوكية زخرت باخبـــار السلاطيـن واعمالهم دون ان تتعرض في وضوح لموضوع الفروسية ، فهذه المصادر

هي الوسيلة الوحيدة لدراسة نظام الفروسية المملوكية • وامتاز هـذا العصر بوفرة ما صنف فيه من كتب التاريخ والجغرافيا والخطط والتراجم والموسوعات مما ييسر للباحث العكوف على دراسته • غير أن هذه المؤلفات على وفرة مادتها ، وتنوع موضوعاتها ، لم يتم تصنيفها في زمن واحد ، حتى يستطيع الباحث المقارنة بينما ورد فيها من نصوص وروايات ، كيما يصل الى ما يريده من حقائق ، فضلا عن اقتصارهاعلى معالجة الاحداث الجارية من زاوية واحدة ، واغفالها اشياء كثيرة يحتاج الباحث الى استجلائها •

ومعظم هذه المصادر وضعها مؤلفون عاشوا في العصر المملوكي الثاني اي في القرن التاسع الهجري • ولهذه الحقيقة اهمية خاصة تتمثل في ان هؤلاء المؤرخين اعتبروا عصر المماليك البحرية رمزا للازدهار والكمال والتفوق الحربى ، على حين أنهم رأوا في العصر المملوكي الثاني الذي يعيشون فيه مثلا للاضمحلال والفساد •

والواقع ان هؤلاء المؤرخين يمثلون مدرسة للتفكير التاريخي بمصر في القرن التاسع الهجري ، استاذها المقريزي وعنه اخذ معاصروه ويتلوهم ابو المحاسن ومعاصروه ثم ابن اياس ومعاصروه • غير ان هؤلاء المؤرخين لم يفرقوا فيما اوردوه في كتبهم بين التاريخ والقصص والادب والتراجم ونظم الحكم ، بل اتبعوا طريقة الاستطراد فيالتأليف فخلطوا بين التاريخ وغيره من سائر العلوم • فاتبع المقريزي تلك الطريقة بمقدار في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، اذ دون حوادث

كل عام في فصل مستقل ، وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لاصحابها في شيء من الاختصار • واحيانا يفتتح السنة بذكر الوظائف الكبرى ومتوليها من الموظفين ، ويجري ذلك عادة اذا جاء بدء السنة موافقا لقيام سلطان جديد • ولم يخرج العيني وابن حجر على هذا النظام في كتبهما التاريخية • غير أن ابن حجر اهتم بالافاضة في التراجم دون مراعاة لما أوجزه في حوادث السنين •

وانتهج ابو المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة منهجا مخالفا لطريقة المقريزي وترتيبه ، اذ جعل لكل عهد من عهود الملوك والسلاطين فصلا قائما بذاته ، وذكر السنين وحوادثها تباعا ، حتى اذا توفي السلطان ، اتى على أخباره مرة اخرى في ترجمة متصلة وشرح أخلاقه وعوامل نجاحه وفشله ، ثم اعقب ذلك بترتيب سنوات عهد السلطان مع الاشارة الى أهم ما وقع فيها من الحوادث •

اما ابن اياس فاتبع طريقا وسطا بين ترتيبي المقريزي وابي المحاسن • اذ قسم كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور الى عهود مستقلة كما فعل ابو المحاسن ، وأورد السنين كما فعل المقريزي ، ولكنه لم يجعل للوفيات ترتيبا زمنيا منفصلا مثل ترتيب ابي المحاسن •

اكتفى المؤرخون في كتاباتهم بذكر الحقائق مجردة عن اسبابها ، فاذا انتهوا الى حكم من الاحكام فانما يكون ذلك من باب التعقيب على الحوادث للعظة والاعتبار • ولا يجري ذلك الا في الحوادث المعاصرة لهم ، ومثال ذلك تعليق المقريزي على تعليم المماليك في الطباق

وما طرأ على هذا التعليم من تغيير بعد عودة السلطان برقوق للسلطنة للمرة الثانية ، اذ سمح للماليك في سكنى القاهرة وفي التزوج من اهلها فاخلدوا للبطالة ، كما اشار الى ما ترتب على اهمال هذا التعليم من نتائج ، اذ صار المماليك السلطانية ارذل الناس وأدناهم ، وأخسهم قدرا ، وأشحهم نفسا وأجهلهم بامر الدنيا واكثرهم اعراضا عن الدين ، فخربت ارض مصر والشام بسبب هذا الاهمال ، وبسبب سوء تصرف اولي الامر .
وأشار ابن تغري بردى الى ما نجم على شره الامراء في الحصول على الاقطاعات زمن السلطان برقوق من قلة عدد العسكر بمصر ، ويضيف الى ذلك سببا آخر نشأ من خراب نواحي الاقطاع لما فرض عليها من كثرة المغارم والظلم فضلا عن قلة نظر الحكام في احوال البلاد ، وترتب على اشتراك هؤلاء المؤرخين في النقل من كتب السابقين نقلا يكاد يكون حرفيا ، انهم لم يتعرضوا لما نقلوه بالنقد او التعديل .

وعلى الرغم من هذه العيوب فان ما خلفه هؤلاء المؤرخون من كتب ، اقتضى من دارس النظم المملوكية وعلى الاخص نظام الفروسية الحرص على استقصاء ما ورد بها من النصوص ، ومقابلتها وتقرير ما يجوز الاعتماد عليه منها وما لا يجوز ، حتى يتسنى له الوصول الى احكام صحيحة .

ومن المؤلفات الوثيقة الصلة بموضوع الفروسية ما وضع من الكتب عن نظم الدولة المملوكية والموسوعات التي اشتملت على قدر كبير من المعلومات التي ترتبط بالفروسية ، وذلك لان الغرض من وضع هذه الكتب هو ارشاد اولئك الذين يعملون في دواوين الحكومة الى

ما ينبغي الالمام به من الثقافةالعامة عن احوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وأحوال البلاد التى ترتبط بمصر بعلاقات سياسية وغيرها من العلاقات ٠

ومن هذه الكتب ، كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار ، وهو موسوعة تقع في عشرين مجلدا ، تتناول الدراسات التاريخية والجغرافية والادبية ٠ صنفه ابن فضل الله العمري الذي تولى ديوان الانشاء زمن الدولة المملوكية الأولى وتوفيسنة٧٤٣ هـ (١٣٤١)، وجمع في هذا الكتاب ما اعتاد ان يؤديه كتاب الدواوين وعلى الأخص ديوان الانشاء من أعمال ٠ واشتهر هؤلاء الكتاب بتنوع ثقافتهم ووفرتها والتزام السجع في كتابتهم ٠ وكهذا كتب المؤلف مختصرا لطيفا اطلق عليه « التعريف في المصطلح الشريف » ليستعين كاتب الانشاء في اعماله ، اذ وصف فيه اقاليم الدولة المملوكية والبلاد المجاورة لها ، واشار بايجاز الى النظام الاداريللدولة،وضمنه النصائح التي يهتدي بها الكاتب في تحرير الرسائل ، واورد نماذج لهذه الرسائل المختلفة الانواع ٠

اما القلقشندي الذي توفي سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) ، اي بعد وفاة العمري بأكثر من ستين عاما ، فانه صنف مختصرا وسطا بين مسالك الابصار والتعريف ، وهو المعروف بصبح الاعشى في صناعة الانشا ,جمع فيه ما ينبغي لكاتب الانشا ان يعرفه من الخبرة الفنية بالمداد والقلم والخط والالمام بالتاريخ والادب والتقويم ٠ وعنى القلقشندي بوصف أقاليم مصر ونيابات٠الشام والبلاد المجاورة ، واهتم بشرح

النظام الاداري والسياسي في هذه الجهات • وعرض للقــواعد التي ينبغي ان يسير عليها كاتب الانشا في الدواوين ، فاورد في كتابه مــن نماذج المراسلات السياسية والتقاليد والتواقيع والمناشير ، ما يعتبر ادق ما عرف عن النظام الاداري في مصر المملوكية اوائل القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) • ويختلف القلقشندي عن العمري في انه لم يورد في كتابه الا الوثائق التى يعتقد في صحتها والتى نقلها مــن المخفوظات التى تقع تحت يده ، ويبدو انه أفاد من الدفاتر التى خلفها من سبقه من الكتاب في هذه الوظيفة •

أما كتاب خليل بن شاهين الظاهرى المسمى بزبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، فانه حوى الوظائف الحربية والادارية في دولة المماليك الثانية التي تقلب في مناصبها حتى قبيل وفاته بالقاهرة سنــة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م) •

ولهذه الكتب أهمية فيما أوردته من نظم ادارية وحربية واقتصادية فضلا عما اشتملت عليه من المصطلحــات والتعريفــــات التي اقتضى تحديدها والتثبت من صحتها ، الرجوع الى المصادر التاريخية لمعرفة مدى انطباقها على الواقع التاريخي •

وثمة نوع ثالث من المصادر المعاصرة يتمثل في الرسائل الصغيرة (Manuals) التى وضعها معلمو الفروسية ، لارشاد المعلم والمتعلم الى ما ينبغى معرفته من أصول الفروسية من حيث ركــوب الخيــل ورياضتها والتدرب على استعمال الأسلحة المختلفة من الطعن بالرمــح

والضرب بالسيف ،والرمي بالنبل،ومزاولةألعاب الفروسية • ومعظم الرسائل التى ورد ذكرها في هذا البحث يرجع الى العصر المملوكى الأول ، اذ اهتم السلاطين بتعليم المماليك في الطباق ، واقتضت الاحوال وضع رسائل لشرح التداريب الحربية وموضوعات الفروسية • ولذا زخرت هذه الرسائل بالمصطلحات الفنية الغريبة عن اللغة العربية ، ولم يتقيد مؤلفو هذه الرسائل بجودة الأسلوب ولا سلامة العبارة ، فكثرت بها الاخطاء الاملائية واللغوية والألفاظ العامية • وأكثر هؤلاء المؤلفين شغل مناصب حربية في الدولة المملوكية ، وحرص على تضمين هذه الرسائل مذاهب اساتذة الفروسية ومعلميها في فنونها المختلفة • ومما تجدر الاشارة اليه حرص أسرة المؤلف على المحافظةعلى رسائلهوالافادةمنها ، ومثال ذلك ان نجم الدين حسن الرماح المعروف بالاحدب المتوفي سنة ٦٩٥ (١٢٩٨ م) جمع مذهبه في الفروسية في اثنين وسبعين بندا دونها ابنه صلاح الدين خليل في نسخة نقل عنها كثير من المعلمين ، منهم ابن بكتوت الرماح (١) • وتدلوفرة المخطوطات من هذه الرسائل في المكتبات في الشرق والغرب على كثرة تداولها واستعمالها (٢) •

وأود أن أختم هنا بشكر استاذى الدكتور محمد مصطفى زيادة الذى والاني بارشاده وتوجيهه طوال المدة التي انفقتها في اعداد هذا البحث في مصر وانجلترا ، كما انى مدين لأستاذى المرحوم محمد شفيق

---

(١) ابن بكتوت الرماح : كتاب الفروسية وعلاج الخيل ــ مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤ م فنون حربية ص ٥٥

(٢) Mercier : La Parure des Cavaliers p. p. 433 - 459 .

غربال الذي يسر لي السفر في بعثة علمية الى اكسفـــورد بناء على اقتراح منه ومن الدكتورين زيادة وكوبلند لاستكمال هـــذا البحث في جامعتها ومكتباتها .

والله ولي التوفيق

بيروت رمضان ١٣٨٦

ينـــاير ١٩٦٧

المصادر والمراجع العربية

المصادر والمراجع العربيـــة

ابن ابي الفضائل : مفضل

كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (انظر المراجع الاوروبية)

ابن الأثيـــر : عز الدين

الكامل في التاريخ ــ بولاق القاهرة ١٢٩٠

ابن الاحنـــف : احمد بن الحسين

كتاب البيطرة ــ صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٢٩٣٤ طب

ابن الفـــرات : محمد بن عبد الرحيم

تاريخ الدول والملوك ــ الاجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ (١٩٣٦ ــ ١٩٤٢) نشره الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلا عز الدين (من منشورات الجامعة الامريكيـــة ببيروت)

ابن القيـــم : محمد بن ابي بكر الذرعي .

الفروسية (نشر السيد عزت العطار الحسينـــي) مطبعة الانوار ــ القاهرة ١٩٤١

ابن ايـــــاس : محمد بن احمد المصري الحنفي
بدائع الزهور فيوقائع الدهور•بولاق١٣١١،الجزءان الرابــع والخــامس ــ مطبعـــــة الدولة باستانبول ١٩٣١ ــ ١٩٣٢ •

ابن بدر البيطار : كامل الصناعتين المعروف بالناصري في البيطــرة والزرطقة مخطوطة رقم ٥ فروسية بالتيمورية بدار الكتب المصرية

ابن بكتوت الاشرفي الرماح : محمد
كتاب الفروسية وعلاج الخيل
(ضمن مجموعة رسائل برقم ٤ م فنون حربية بدار الكتب المصرية)

ابن تغرى بردى : جمال الدين ابو المحاسن
١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (الاجزاء ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ ، ١٩٤٢ ــ الاجزاء ٥ ، ٦ ، ٧ نشر Popper بكاليفورنيا ١٩٣٢ ــ ١٩٣٤ ــ ١٩١٥ ــ ١٩٢٣ ، ١٩٢٦ ــ ١٩٢٩)
٢) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ــ مخطوطة رقم ١١١٣ تاريخ ٣ مجلدات ــ بــدار الكتب المصريــة •

٣) منتخبات من حوادث الدهور في مدى الايــام
والشهور •
نشر Popper بكاليفورنيا ١٩٣٠ ـــ ١٩٣١ •

ابن حجر العسقلاني : احمد بن علي
الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة
٤ أجزاء حيدر آباد الهند ١٣٤٨ ـــ ١٣٥٦

ابن حوقـــل : ابو القاسم
كتاب المسالك والممالك ـــ طبعة De Goeje ليدن
١٨٧٢

ابن قاضي شهبه : تقي الدين ابو بكر
الكواكب الدرية في السيرة النورية •
صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٢٧ تاريخ

ابن منكلـــي : محمد ، مقدم حلقة السلطان الاشرف شعبان
الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية ـــ مخطوطة
رقم ٢٣ فروسية بالتيمورية بدار الكتب المصرية •

ابن واصـــل : جمال الدين
تاريخ الواصليين في أخبار الخلفاء والملوك السلاطين
صورة شمسية برقم ٥٣١٩ تاريخ ، دار الكتـــب
المصريـــة •

ابن يعقوب الخيلي : ابو حزام

١) كتاب الفروسية والبيطرة في علامات الخيل وعلاجها . مخطوطة رقم ١٦١٠ طب بدار الكتب المصرية .

٢) كتاب علم الفروسية ــ مخطوطة رقم ٥ م فنون حربية بدار الكتب المصرية .

٣) كتاب الخيل والفروسية ــ مخطوطة رقم ١٣٣٤ طب بدار الكتب المصرية (١)

ابو شامه : عبد الرحمن بن اسماعيل القدسي
كتاب الروضتين في اخبار الدولتين
مطبعة وادي النيل ــ القاهرة ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ هـ

ابن يعلي الحنبلي : محمد بن الحسين الفراء
الاحكام السلطانية
مطبعة مصطفى الحلبي ــ القاهرة ١٣٥٧ هـ

الاصطخرى : ابن اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي
كتاب مسالك الممالك . نشر Le Geeje ليدن ١٨٧٠

---

(١) لم يذكر اسم المؤلف في المخطوطين ٢ ، ٣ . غير انه تبين بعد مراجعة المخطوطات الثلاثة ومقارنتها انها لمؤلف واحد وفي موضوع واحد برغم اختلاف العنوان .

انظر
Ritter : Der Islam XVIII p. 120
Brookelmann Gesch. der Arab. Litier. I. pp. 243 - 244 .

البنداري الاصفهاني : الفتح بن علي بن محمد
تواريخ آل سلجوق ـــ نشر Houtsma ليدن ١٨٨٩

الجاحـــــــظ : ابو عثمان عمرو بن بحر
١) كتاب الحيوان ٧ أجزاء (نشر عبد السلام هرون)
مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٣٨ ـــ ١٩٤٥ .
٢) ثلاث رسائل ـــ نشر Van Vloten ليدن ١٩٠٣ .

السخـــــاوي : شمس الدين محمد
١) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع . مكتبـة القدسي . القاهرة ١٣٥٣ .
٢) كتاب القول التام في الرمي بالسهام ـــ مخطوطة رقم ٢ م فنون حربية بدار الكتب المصرية .

الطبـــــــري : عبد الرحمن
الرمي بالنشاب . ضمن عدة رسائل مخطوطة رقم ٤م فنون حربية بدار الكتب المصرية .

الطبـــــــرى : محمد بن جرير
تاريخ الرسل والملوك ـــ نشر De Goeje ليدن

الظاهـــــري : خليل بن شاهين
كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمســالك
نشر Paul Ravaisse باريس ١٨٩٤

العماد الاصفهاني : كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي
مطبعة الموسوعات ـ مصر ـ ١٣٤١ هـ

العيـــــني : بدر الدين محمود
عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ٧٠ مجلد
صورة شمسية بدار الكتب المصرية برقم١٥٨٤ تاريخ

القلقشنــدي : ابو العباس احمد
صبح الاعشى في صناعة الانشاء ١٤ جزءا مطبعة
دار الكتب المصرية .

المـــاوردي : علي بن حبيب المصري
كتاب الاحكام السلطانية
مطبعة السعادة القاهرة ١٩٠٩ .

المسعـــودي : علي بن الحسين
مروج الذهب ومعادن الجوهر ٤ أجزاء نشر محمد
محيي الدين عبد الحميد .
القاهرة ١٩٣٨ .

المقريــــزي : احمد بن علي
١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك
نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة
الجزء الاول ١٩٣٤ ـ ١٩٣٩

الجزء الثاني ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ .
(منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر)
٢) كتاب الخطط والاثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الاخبار بـ مطبعة النيل ١٣٢٦ ــ طبعة بــولاق ١٢٧٠
٣) اغاثة الامة بكشف الغمة ــ نشر زيادة والشيال القاهرة ١٩٤٠ (منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر)

النويــــري : احمد بن عبد الوهاب
نهاية الارب في فنون الادب ــ المطبوع منه ١٤ جزءا مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة (١٩٢٣ ــ ١٩٤٣)

بيبرس المنصوري الداوادار :
زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، الجزء التاسع
صورة شمسية رقم ٢٤٠٢٨ بمكتبة الجامعة المصرية .

زيــــادة : محمد مصطفى
١) بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك (مجلة كلية الاداب بالجامعة المصرية . المجلــد الرابع . الجــزء الاول . مايــو سنــة ١٩٣٦ ص ٧١ ــ ٨٨)
٢) المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر

الميلادي ، القاهرة ١٩٥٤ ـ الطبعة الثانية .
(منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر)
٣) نهاية السلاطين المماليك في مصر
(المجلة التاريخية . المجلد الرابع . العدد الاول
مايو سنة ١٩٥١)

طيبغا الاشرفى البكلمشى اليونانى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ(١٣٦٨)
١) كتاب الجهاد والفروسية وفنون الاداب الحربية(١)
(مخطوطة رقم ٣ م فنون حربية بدار الكتب المصرية)
٢) بغية المرام وغاية الغرام في الرمي بالنشاب
(مخطوطة رقم ٩٣ فروسية بالتيمورية بدار الكتب) (٢)

لاجين : حسام الدين
كتاب الميادين (ضمن مجموعة رسائل في الفروسية)
(مخطوطة رقم ٤ م فنون حربية بدار الكتب المصرية)

---

(١) لم يذكر اسم المؤلف فيهذه المخطوطة ، انماوردت اشارة الى ان المؤلف صنف كتابا بعنوان المخطوطة الثانية كتبه للملك الاشرف شعبان (كتاب الجهاد والفروسية ص ٤ ب) وجرى تحقيق اسم المؤلف من المخطوطة الثانية ومن سائر المخطوطات المنسوبة اليه .

(٢) انظر Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur Vol. II , p. 135 - 136 .

بلبغا الاشرفـــي : كتاب كامل الصناعتين في الفروسية والشجاعة
(في المجموعة رقم ٤ م فنون حربية بدار الكتـــب
المصريــة)

المراجع الاوروبية

Artin Pasha, Yacoub : Contribution à l'Etude du Blason en Orient. Le Caire 1902. (Imprimerie nationale).

Bell, H. Idris : Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest. Oxford 1948.

Brockelmann, Carl : 1) Geschichte der Arabischen Litteratur. Weimar 1898.

2) Geschichte der Arabischen Litteratur Supplement. Band I Leiden 1937.

Cahen, Claude : La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades. Paris 1940.

De Slane, Le Baron : Catalogue des manuscrits Arabes de la Bibliothèque Nationale. Paris 1883.

Dozy, R.P.A. : Supplément aux Dictionnaires Arabes (Supp. Dict. Ar.)

Encyclopedia of Islam : (En. Is.) Articles : Tatar, Turk, Mamluks.

Gaudefroy-Demomlynes : La Syrie à l'Epoque des mamelouks d'après les Auteurs Arabes. (Paris 1923).

Grousset, René : 1) Histoire des Croisades 3 vols. Paris 1934 - 1936.

2) L'Empire des Steppes. Paris 1948.

Hammer - Purgstall : Sur les Larmes des Orientaux. Journal Asiatique 5e. série T. III 1854 PP. 66 - 80.

Lamb, Harold : Genghis Khan. London 1934.

Lambton, A.K.S. Landlord and Peasant in Persia. Oxford 1953.

Lane - Poole, Stanley : 1) A History of Egypt in the Middle Ages London 1924.
2) The Saracenic Art. London, 1886.

Lewis, Bernard : The Arabs in History. London 1950. (Hutchinson's University Library).

Lybyer, Albert Howe : The Government of the Ottoman Empire in the time of Soliman the Magnificent. Cambridge Harvard University Press 1913.

Mayer, L.A. : 1) Saracenic Heraldery, Oxford 1933.
2) Saracenic Arms and Armar. (Ars Islamica. Vol. X 1943 PP. - 13).
3) Mamluk Costume . Genève 1952.

Mercier L. : La Parure des Cavaliers. Paris 1924.

Moufazzal : : Ibn Abil - Fazail : —
Histoire des Sultans Mamlouks. E. Blochet. Paris 1911. (Patrologia Orientalis T. XII).

Perron, M. : Le Ncéri. La Perfection des Deux Arts ou Traité Complet d'Hippologie et d'Hippiatrie Arabes. Traduit de l'Arabe d'Abou Bekr Ibn Bedre. 3 vols. Paris (1852 - 1860).

Poliak, A.N. : 1) Feudalism in Egypt Syria, Palestine and the Lebanon. London 1939.

2) The Influence of Chingiz - Khan's Yasa upon the General Organisation of the Mamluk State. (Bulletin of the School of Oriental and African Studies Vol. X 1942 PP. 862 - 877).

3) Le Caractère colonial de l'état mamelouk dans ses rapports avec La Horde d'Or. (Revue des Etudes Islamiques. Paris 1933. PP. 231 - 248.

4) La Féodalité Islamique (Revue des Etudes Islamiques. Paris 1936).

Reinaud, M. :	De l'Art Militaire chez les Arabes au Moyen Age. Journal Asiatique 1848. (4e. série, T. 12. PP. 193 - 237).
Rey, E. :	Les Colonies Franques de Syrie aux XII et XIII siècles. Paris 1883.
Runciman, Steven :	A History of the Crusades. 3 vols. Cambridge (1951 - 1954).
Semple :	Ellen Churchill : Influences of Geographic Environment. London 1911.
Schefer, Charles :	Siasset Nameh. Traité des Gouvernements composés pour le Sultan Melik Chah par le Vizir Nizam oul-Moulk. Paris. 1893.
Zetterstéen, K.V. :	Beitrage zur Geschichte der mamluken-sultane in der Jahren 690 - 710 nach Arabischen Handschriften. Leiden 1919.

الفصل الاول

تمهيـــد
الاوضاع التاريخية في الشرق الاسلامي
في القرن الثالث عشر الميلادي

امبراطورية صلاح الدين — تقسيمها بين افراد اسرته — العـــادل ومحاولته المحافظة عليها — استشاره بالسلطة — تجـــدد النزاع بين الأيوبيين — القوى التي عملت على تشكيل تاريخ مصر والشرق الاسلامي : الصليبيون — المغول — الامارات الواقعة عـلى اطراف الامبراطورية الايوبية — ظهور المماليك.

اول الاوضاع السياسية اللازمة للتمهيد لهذا البحث هو الدولة الايوبية اواخر ايام صلاح الدين ، حين جعل هذا السلطان كل اعتماده على اخيه سيف الدين العادل في تدبير شئون مصر عند خروجه من القاهرة بجيشه سنة ٥٧٨ (١١٨٢) ، وهي السنة التي لم يعد صلاح الدين بعدها الى مصر . ثم حدث ان ولي العادل أمر حلب سنة ٥٨٠ (١١٨٤) وعهـد صلاح الدين بامر مصر الى تقي الدين عمر ابن اخيه . غير ان العادل ما

لبث ان عاد الى مصر صحبة العزيز عثمان بن صلاح الدين سنة ٥٨٤ (١) بعد أن تبين فشل تقي الدين عمر في تدبير أحوالها • واعد صلاح الدين اولاده ليتولوا الحكم بعده ، فتولى اكبرهم وهو الافضل حكم دمشق ، وحكم العزيز مصر ، وبقيت حلب من نصيب الظاهر غازي(٢)، وتولى ابناء عمومتهم حكم حماه وحمص وبعلبك ، وولي اليمن عم لهم هو طغتكين بن ايوب • اما الجزيرة وديار بكر فظلت على حالتها اقطاعا للعادل (٣) ، ومن الواضح ان مصر غدت اعظم الدول اهمية حتى ان نقود دمشق بعد وفاة صلاح الدين ضربت سنة ٥٩١ (١١٩٣) ، باسم العزيز صاحب مصر ، مع العلم بان دمشق لم تكن تحت حكمه (٤)• ثم لم تمض سنة واحدة على وفاة صلاح الدين حتى دب الشقاق بين اولاده وسائر افراد اسرته ، فحاصر العزيز دمشق ، وتدخل العادل والظاهر صاحب حلب في وقف النزاع بين الاخوين ، غير ان الحرب قامت بينهما من جديد ، وطارد الافضل اخاه العزيز داخل الاراضي المصرية حتى بلبيس • وانتهز العادل الفرصة للعمل على توحيد الامبراطورية تحت زعامته لمصلحته ، بعد ان فشلت مساعيه في التوفيق بين اولاد اخيه فضلاً عن اهمية مصر في مناوأة الصليبيين (٥) • وادرك العادل الفرق الكبير بين كل من الافضل والعزيز ، اذ اغرق الاول

---

(١) العيني : عقد الجمان مجلد ٥١ ص ٦١

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ١٢٢ (رمز الى طبعة القاهرة بالحرف (ق) كما اشير الى ما يميز طبعات بعض المراجع)

(٣) ابو شامه : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٥٢
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ١٢١ ، ١٤١

(٤) انظر Lane - Poo!e, Stanley : A History oi Egypt in the Middle Ages . p. 213 .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ٦ : ١٢٣ ــ ١٢٤

في شرب الخمر والميل الى اللهو والانغماس في المباذل والحرص على امتلاك مصر ، على حين اشتهر الثاني بالسجايا الطيبة كالمروءة والسخاء مما يسر للعادل ان يتخذ منه اداة لتحقيق اغراضه ، فزين اولا للعزيز انتزاع دمشق من يد الأفضل ، حتى اذا تم له ذلك حكمها نيابة عنـــه سنة ٥٩٢ (١١٩٦) (١) . ولما قوي مركزه بعد ان اصبـــح واليا على الشام ، سار العادل قاصدا جهات الجزيرة حيث اقطاعه القديم لتوطيد سلطانه وحماية الجزيرة مما عساه يقوم به خصمه القديم اتابك ارسلان شاه صاحب الموصل ، فاعاد الى ربوعها الامـــن والسلام (٢) ، وظلت هذه الجهات بيد ابناء العادل الى ان اغار عليها المغول .

على ان العادل رجع مسرعا الى مصر بسبب وفاة العزيز سنة٥٩٥ وقدوم الافضل الى القاهرة وصيا على ابن العزيز . واستغل الافضل الفرصة لاعادة سلطانه في دمشق ، فخرج من القاهرة للاستيلاء عليها . وتقدم الظاهر صاحب حلب لمساعدته في ذلـــك ، لولا ان العـــادل استطاع ان يسبقهما في الوصول الى دمشق ، فرجـــع الافضل الى القاهرة خائبا . واعقب ذلك اضطرار الافضل كذلك الى مغـــادرة مصر نهائيا سنة ٥٩٥ ، فغدا العادل سيدا على امبراطوريـــة صلاح الدين جميعها سنة ٥٩٦ (٣) ، ما عدا بلاد الغرب واعالي الشام حيث حكمت فروع من البيت الايوبي في حلب وحمص وحمـــاه ، واحتفظت هـــذه

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ١٢٦
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ١٤٩
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ١٤٩ ـــ ١٥٠ ، ١٥٢

الدويلات الشامية باستقلالها مقابل الاعتراف بزعامة العادل ، والتعهد بتقديم المعونة الحربية اليه كلما طلب ذلك . ثم خلع العادل المنصور بن العزيز من حكم مصر، واقام نفسه سلطانا، وجعل ابناءه نوابا عنه في حكم الجهات الخاضعة له، فتولى الكامل ادارة مصر، وحكم المعظم دمشق ، اما الاوحد والفائز والاشرف والحافظ فباشروا امور الجهات الواقعة على دجلة والفرات ، وهي التي تسميها المراجع البلاد الفراتية والمشرق (١) .

على ان دولة العادل لم تكن بنجوة من تهديد الصليبيين (٢)، فضلا عما اصاب مصر من انخفاض النيل سنة ٥٩٦ وما نجم عنه من الاوبئة والمجاعات وهجرة السكان (٣) ، غير انه افاد من اختلاف الصليبيين على انفسهم فعقد مع املريك ملك بيت المقدس سنة ٦٠١ (١٢٠٤) هدنة مقابل التنازل عن يافا والرملة وصيدا، كما عقد هدنة مع امير طرابلس سنة ٦٠٤ (٤) (١٢٠٧) ، غير انه لم يمض زمن طويل حتى أعد جان دي بريين ملك بيت المقدس حملة صليبية وجهها الى مصر سنة ٦١٥ (٥) (١٢١٨) بعد ان غدت مركز المقاومة الاسلامية مرة اخرى فاستولت على دمياط . ومات العادل في هذه السنة ، وخلف لابنه السلطان الكامل معالجة الموقف . وما زال الكامل حتى حمل الصليبيين على طلب

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ١٦٣ ، ١٧٣
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ١٦٨
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ١٧٠
المقريزي : اغاثة الامة بكشف الغمة ص ٢٩ — ٣٢
المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ١٥٦
(٤) Lane - Poole : op. cit. p. 218 .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ق ج ٦ ص ٢٢٢

الصلح وجلوا عن دمياط سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١) وعقد معهم هدنة لمدة ثماني سنوات (١) •

وفي اثناء وجود الصليبيين بالاراضي المصرية ضـــاق الكامل بمؤامرات البيت الايوبي ضده ، فعمل على تأمين مصر وحماية ممتلكاته بالشام ، بان عقد مع الامبراطور فردريك الثانـــي معاهدة سنة ٦٢٦ (١٢٢٨ م) كفلت له تحقيق غرضه (٢) • وامعانـــا في تحقيق هذه السياسة استولى الكامل على آمد من يد الارتقيين(٣)سنة سنة٦٢٩،بعدان ظلت في أيديهم نحو ١٣٠ سنة ، وحارب كيقباذ سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، ونزع الرها من يده (٤) • وعمل على تقوية اسرته بان زوج اميري حلب وحماه من ابنتيه ، ومع هذا لمَ يسلم الكامل من حقد اقاربه بسبب ما قام به من اعمـــال في سبيل الابقـــاء على الامبراطورية الايوبية ، فاضطر الى ضم دمشق الى ممتلكاته سنة ٦٣٥ (١٢٣٧ م) بعد وفاة اخيه (٣) الاشرف ، على حين اخذ اخوه الصالح اسماعيل بعلبك ومدنا اخرى • ومات الكامل بدمشق سنة ٦٣٥ بعد ان

---

(١) Lane - Poole : op. cit. p. 224 .
Runcimen : History of the Crusades Vol. III , p. 169
ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٨٤ — ١٨٥
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ٢٧١ — ٢٧٢
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ٢٧٨
زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة
(الترجمة العربية) جـ ١ ص ١٥٤ ، جـ ٢ : ٣٤٤
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ٢٩٣
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ٣٠٠

حكم مصر اربعين عاما منها عشرون نائبا عن ابيه العـــادل وعشرون سلطـــانا .

ولم يمكث العادل الصغير بعد ابيه الكامل في السلطنـــة سوى عامين كلها مجون ولهو ، فخلعه الجند وتولى السلطنة اخوه الصالـــح سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠) وهو الذي استدعى الخوارزمية الفارين من وجه جنكيزخان فاستولى بمساعدتهم على بيت المقـــدس سنة ٦٤١ هـ (١) (١٢٤٤) كما استولى على دمشق سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥) وعسقلان سنة ٦٤٥ (١٢٤٧) من عمه الصالح اسماعيل صديق الصليبيين(٢)، وبذا بلغت دولة الصالح ايوب ما كانت عليه من قوة وسلطان في عهد ابيه وجده . ثم نزل لويس التاسع ملك فرنسا بجيوشه على دمياط سنة ٦٤٨ (١٢٤٩) في حملة صليبية ضخمة (٣) . ومات الصالح في الوقت الذي زحف فيه الفرنسيون من دمياط نحو الجنوب سنة ٦٤٨ ، فقامت زوجته شجـــر الدر بتسيير دفة الحرب وشئون البلاد حتى قدم ابنه توران شـــاه من حصن كيفا بديار بكر سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) فاجـــلاهم عن البـــلاد بمساعدة المماليك (٤) .

اما العامل الثاني في تكييف الاوضاع السيـــاسية في الشرق

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ٣٢٣
Runcimen - op. cit. Vol. III , p. 228 .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ٣٢٤ ــ ٣٢٥ ، ٣٢٦

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ٣٢٩ ــ ٣٣٠

(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٣٥٨ ــ ٣٥٩ .

الاوسط فهو حركة المغول بزعامة جنكيزخان سنة ٥٩٩ (١٢٠٢ م) وزحفهم نحو الاراضي الاسلامية ، فاستولوا على بخارى وسمرقند وقتلوا اهلهما وسبوهم وحصروا خوارزم شاه ، فانضم اليهم الخطائيون من جنده وصاروا تبعا لهم (١) ، واخلى خوارزم شاه البلاد قبل مقدمهم فلم يجدوا احدا يردهم ، ووصلوا سنة ٦١٥ هـ (١٢١٧) الى الري وقزوين وهمدان وقتلوا اهلها واحرقوا مساجدها ، وفعلوا بآذربيجان ما فعلوه بغيرها من المدن (٢) . وحاول خوارزم شاه الاستنجاد وقتذاك بالسلطان العادل ايوب وهو مرابط بمرج الصفر ، فبعث العادل بالجواب متأخرا بعد ان اندفع خوارزم شاه بين يدي الخطا والتتار شريدا مخذولا من عسكره الخوارزمية (٣) .

وانبسطت يد جنكيزخان واشتد ساعده وخلت البلاد من المقاومة فبعث سنة ٦١٨ هـ (١٢٢٠) باولاده واحفاده الى الآفاق ، فتوجه باطو بن دوش خان بن جنكيزخان الى البلاد الشمالية ، وبلغت جموعه الدربند على بحر الخزر (قزوين) ، وحدثت بينهم وبين القبجاق والروس وقعة كبيرة سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٢) ، انتهت بهزيمة القبجاق والروس وتشريدهم في الآفاق على غير هدى (٤) ، واستولى باطو على ما بتلك الجهات من طوائف الترك وقبائل القبجاق والعلان واللان والادلاق والجركس والروس وتمكنوا منهم قتلا وسبيا ونهبا ، وجلبت سبايا هذه الاجناس

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ٢١٩ — ٢٢٠
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ٣٤٨
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ٢٣٣
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ٤٢٨

الى البلاد الشامية والمصرية ، فمنهم المماليك العادلية والكاملية والاشرفية والمعظمية والناصرية والعزيزية ، وحسنت آثارهم في الممالك الاسلامية (١) ، ثم رجعت جموع التتار جنوبا حتى هبطت على الري فوضعوا السيف في اهلها ،وانزلوا بها الدمار والخراب،وفعلوا مثل ذلك او اشد بمدن قم وقاشان وهمدان ، وكلها تابع للدولة الخوارزمية . ثم تعقبوا الجيوش الخوارزمية الى اذربيجان فكسروهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، واعقب ذلك هزيمة سلطانهم جلال الدين خوارزم شاه في اصفهان سنة ٦٢٣ هـ (٣) ، وغلب على حروب جنكيزخان الاكتساح والتخريب والتدمير كي تصبح البلاد المفتوحة مراعي كافية للجموع المغولية (٣) .

ولم تغير وفاة جنكيزخان سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧) شيئا في الحركة الذاتية الدافعة للمغول ، اذ اسهم اولاده واحفاده اثناء حياته في مواصلة هذه الحركة ، فقسم جنكيزخان بينهم الممالك فجعل لاكبر اولاده دوش خان مملكة تمتد من اطراف خوارزم الى اقصى بلاد ساقسين وبلغار المتاخمة لاطراف الامبراطورية البيزنطية ، ويقع في سلطانها الترك والقبجاق وطوائف من الجركس والروس والاص ، وبينها وبين اذربيجان باب الحديد والدربند ، وعاصمتها صراي على نهر

(١) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٤٢٣

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ٢٥٨
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٤٣٠

(٣) انظر Grousset - L'Empire des Steppes . p. 305 .

القلجا (١) ، وهي المملكة التي صارت معروفة فيما بعد باسم القبيلة الذهبية نسبة الى اللون الغالب على خيام معسكراتهم (٢) ، اما جغتاي ابن جنكيزخان فحكم بلاد اويغور وما وراء النهر من سمرقند وبخارى وعاصمتها قراقورم • وشملت مملكة تولي خراسان وولايات العجم والعراق وهي التي اضيفت اليها فيما بعد اذربيجان والروم والجزيرة وعاصمتها تبريز (٣) ، وصارت معروفة بالايلخانية الفارسية (٤) •

وصفوة القول ان التتار استمروا في زحفهم في الاراضي الاسلامية بعد وفاة جنكيزخان ، فأوغل باطو بن دوش خان في اذربيجان حتى ازال الدولة الخوارزمية ، وغدا جلال الدين خوارزم شاه شريدا في البلاد حتى وقع في ايدي المغول فقتلوه سنة ٦٢٨ في قرية من اعمال ميافارقين (٥) ، فتفرق جنده من الخوارزمية وساءت احوالهم ، وقصد فريق منهم بلاد سلاجقة الروم فاستخدمهم السلطان علاء الدين كيقباذ السلجوقي الى ان مات سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦) (٦) •

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٧٤
ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج١ ص ٣٣٥ أ
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٣٤٣

(٢) انظر Grousset - op. cit. p. 279 .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ص ١٣٦ ، ص ١٤٠

(٤) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة (الترجمة العربية) ج ٢ ص ٣٥٦ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ٢٧٥

(٦) ابن واصل : تاريخ الواصليين ص ٣٠٥ أ ، ب
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ١٧٩
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢٥٥

ولم يدر كثير من المسلمين وقتذاك ما سوف يأتي بعد ذلك فدخلت جماعة مثلا على الملك الاشرف موسى صاحب دمشق فهنأوه بموت عدوه خوارزم شاه فقال « والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتار الى بلاد الاسلام » اي ان انهيار المقاومة الخوارزمية العنيدة ايذان بقرب الخطر المغولي على جوف البلاد الاسلامية (١) • فاستولى باطو بن دوش خان على بلاد العجم كلها سنة ٦٢٩ هـ ، وباتت دويلات الايوبيين في الجزيرة وحران قاب قوسين من الخطر المغولي ، فخرج الكامل سلطان مصر من دمشق الى ديار بكر بعد ان اجتمع باخيه الاشرف واتفق معه على دفع التتار (٢) • وفي سنة ٦٣٣ هـ جاء الخبر الى الكامل بان فرقة من التتار قطعت دجلة في مائة طلب كل طلب خمسمائة فارس ، ووصلت الى سنجار فخرج اليها ابن مهاجر امير سنجار فقتلوه (٣) ، واستنجد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالكامل ، فاوقف الحرب مع السلاجقة بالروم ،وعاد الىدمشقوارسل ابنهالصالح ايوب لدفع التيار المغولي الداهم ، فسار بجماعته واهله واولاده بعد ان عينهابوه واليا على بلاد الشرق • وجعله ولي عهده في سلطنته ، فتسلم الصالح سنة ٦٣٤ هـ حصن كيفا ودخل في حكمه حران والرها وسروج والرقة ورأس العين وآمد • واستخدم الخوارزمية في هذه السنة وعددهم اثنا عشر الف فارس بعد ان ساءت معاملة السلطان غياث الدين

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ٢٧٧
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ١٥٢
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ٢٧٨
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٦ ص ٢٩٧

كيخسرو السلجوقي لهم ، وهربوا من بلاده ونهبوا ما قدروا عليه وعبروا الفرات ، وكتب الصالح الى والده الملك الكامل يستأذنه في استخدامهم عنده ، فاذن له في ذلك ، وتقوى بهم ، واقطعهم مواضع بالبلاد الجزرية (١) ، غير ان الخوارزمية طمعوا في الصالح ومالوا الى نهب البلاد التي صارت اقطاعا لهم ، وخرجوا على طاعته وهموا بالقبض عليه فهرب الى سنجار ، ولم يكتفوا بذلك بل هاجموا بدرالدين بن لؤلؤ صاحب الموصل، ولم ينجه من الوقوع في ايديهم الا الهرب من وجههم (٢). على ان الصالح ايوب استطاع استمالتهم فيما بعد ، واقطعهم سنجار وحران والرها فقاموا في خدمة ابنه الملك المغيث ، وساروا معه الى سنجار واستخلصوها من جند لؤلؤ صاحب الموصل ، كما سيرهم الى آمد فطردوا السلاجقة عنها (٣) . ثم اصهر الصالح اليهم ، اذ تزوج مقدمهم حسام الدين بركة خان من اخت الصالح من أمه (٤) ، لكن الخوارزمية عادوا الى نهب البلاد شمال الشام ، واخذوا يعلنون لأهل حلب وحمص ودمشق انهم يفعلون ما يفعلون لخدمة صاحب مصر ، وذلك لان ملوك هذه البلاد اعداء له . ومع ان صاحب حمص

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢٥٥
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ١٧٩
ابن واصل : تاريخ الواصليين ٣٠٥ أ ، ب

(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢٧٠ ، ٢٧١
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ٢٠٧ ــ ٢٠٨

(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢٧١ ، ٢٧٢

(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢٨٠

استطاع هزيمتهم ومطاردتهم لم يكف الخوارزمية عن النهب والسلب حتى هجموا سنة ١٢٤٤ على مدينة بيت المقدس واخذوها من الصليبيين ووصلوا اسيرهم نحو غزة في طريقهم الى مصر، وفي غزة ارسل الخوارزمية الى السلطان يطلبون اليه الاذن في دخول الاراضي المصرية ، فامرهم بالاقامة في غزة ووعدهم ببلاد الشام فضلا عما بيدهم من البلاد الفراتية، وارسل اليهم الخلع والخيل والاموال في سبيل ايقافهم خارج الاطراف المصرية (١) ، ثم جهز السلطان الصالح ايوب عسكرا بقيادة بيبرس لمحاربتهم وهو احد مماليكه الاخصاء ، فانحاز اليهم عند غزة • ولم يجد السلطان بدا من التحالف مع صاحب حمص سنة ٦٤٤ • واستطاع ان يهزم الخوارزمية ويقتل مقدمهم ، فانحاز بعضهم الى التتار ، ووقع مملوكه القديم بيبرس في يده فامر بحبسه (٢) ، واثناء هذه الاضطرابات بالممتلكات الايوبية بالشام نفذ التتار الى بلاد السلاجقة بالروم ، فصالحهم الملك غياث الدين بن علاء الدين بن كبقباذ على ان يدفع اليهم جزية وانتهى الامر باقامة شحنة من التتار في بلاده بعد وفاته سنة ٦٥٤ (٣) •

ثم مات السلطان الصالح ايوب سنة ٦٤٧ قبل ان يتمكن من طرد الفرنسيين الذين استولوا على دمياط ، فقام بتدبير الجيش كبار قواده من المماليك بمشورة زوجه شجر الدر ، حتى وصل ابنه توران شاه من

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣١٦
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٢٤
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ٣٤٧ ،
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٤ ص ٢٥٨

حصن كيفا بديار بكر ، وانتصر توران شاه على الفرنسيين سنة ٦٤٨ بفضل جهود المماليك البحرية (١) ، غير انه أساء سياسته مع المماليك ، فاعرض عن مماليك ابيه ، واهمل الامراء والاكابر اهل الحل والعقد ، وقدم الأرذال فضلا عن انهماكه في الملذات، فنفرت قلوب المماليك واتفقوا على قتله فضربه بيبرس بالسيف سنة ٦٤٨ اثناء وليمة اقامها لهم (٢)، واصبح المماليك اصحاب السلطة الفعلية في البلاد . ووقع الاختيار على شجر الدر للقيام على دست السلطنة ، فباشرت سلطتها استنادا على أمومتها لابن متوفي من ابناء السلطان الصالح ايوب واعتمادا على تأييد المماليك الصالحية لها (٣)

غير ان المسلمين لم يألفوا ان يتولى امرهم امرأة ، فضلا عن حرص الايوبيين على عدم ترك مصر تفلت من ايديهم ، فأقام المماليك اميرا منهم ، وهو ايبك التركمان ، في منصب السلطنة ، لما اشتهر به بينهم من التدين والكرم وجودة الرأي ، بعد أن تزوج من شجر الدر(٤) فتحرك الايوبيون لاستعادة مصر ، واستولى الناصر صلاح الدين صاحب حلب على دمشق التابعة لمصر ، وعزم على ان يزحف منها الى الاراضي المصرية ، ورأى المماليك ان يحولوا دون تحقيق غرضه فولوا طفلا من الايوبيين اسمه موسى حفيد السلطان الكامل ، فيكون الى جانب

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٥٣ — ٣٥٦

(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٥٨ — ٣٥٩
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٤ ص ٣١٣ — ٣١٤

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ٣٧٢

(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٦٩

ايبك (١) .وظلت شجر الدر هي التي تسيطر على امور البلاد على حين انحاز فريق من المماليك الى المغيث عمر بن العادل بن الكامل بالكرك ونادوا به سلطانا على مصر . عند ذلك اعلن ايبك انه يتولى حكم مصر نيابة عن الخليفة العباسى ، (٢) وأرسل اقطاى لانقاذ غزة التى حاصرها زعماء المماليك الذين انحازوا الى المغيث عمر ، وفي الوقت نفسه اوهم ايبك الناس في مصر بانه يخدم الاسرة الايوبية ، واقام احتفالا" هائلا عند نقل جثة الصالح ايوب من قلعة الروضة الى الضريح الذى شيدته له شجر الدر بين القصرين بجوار المدرسة الصالحية .(٣) اما الناصر فتقدم حتى دخل الاراضى المصرية . وطارت الاخبار الى القاهرة بانتصاره وأعد الناس انفسهم لاستقباله والترحيب به ، غير ان وقعة العباسة التي حدثت سنة ٦٥٢ بين الناصر وعسكره وبين ايبك واقطاي وعسكرهم من المماليك والعرب انتهت بانتصار ايبك لانحياز المماليك الذين في جانب الناصر اليه ، ووقع في اسر ايبك كثير من الامراء الايوبيين ومن بينهم الصالح اسماعيل الذي انضم الى عمه الناصر يوسف بعد استيلائه على دمشق (٤) ، وتبع هذا الانتصار ان ارسل ايبك جيشا لاسترجاع غزة وفلسطين وخلع الاشرف موسى وبعث به الى القسطنطينية سنة ٦٥٣ ، غير ان الخليفة المستعصم تدخل للاصلاح بين الفريقين المتحاربين في الشام ومصر ، وتقررت قواعد الصلح بينهم

---

(١) انظر Runciman : op. cit. Vol. III , p. 310

(٢) انظر Lane - Poole - op. cit. p. 257 .

(٣) المقريزي : الخطط (بولاق)ج ٢ : ٣٧٤

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٧ـ ٨

على ان تبسط مصر سلطانها على ما يقع غرب نهر الاردن من اراضي فلسطين بما في ذلك بيت المقدس والساحل ، وتجددت هذه المعاهدة سنة ٦٥٤ ، اذ طرد الناصر المماليك الذين لجأوا اليه فرارا من ايبك ، فأمن بذلك جانب الأيوبيين في الشام (١) . والسر في اقدام الخليفة على القيام بهذا العمل هو ما لاح له من خطر التتار ، اذ جاءوا سنة ٦٥٠ الى الجزيرة ، ونهبوا ديار بكر وميافارقين ورأس العين وسروج وخلاط وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا الصبيان واستحيوا النساء وساقوهم الى معسكراتهم (٢) . وتواترت الاخبار سنة ٦٥٤ بزحف هولاكو في اذربيجان نحو بلاد الشام (٣) . على ان هذه التدابير الخليفية لم تحل دون وقوع الكارثة العظمى ، وهي استيلاء هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦ (٤) . وواصل هولاكو سيره بعد ذلك شمالا فاستولى سنة ٦٥٧ على حلب فانهارت المقاومة الايوبية امامه ، ولم تلبث دمشق ان سقطت في يد التتار سنة ٦٥٨ (٥) ، ثم تقدمت فرقة تتارية الى غزة في طريقها الى مصر ، وسلطانها وقتذاك صبي هو علي بن ايبك ، فاستغل اتابكه قطز الموقف للوصول الى السلطنة ، ورضي به الامراء الكبار سلطانا ولقبوه المظفر (٦) . وخرج

---

(١) انظر Lane - Poole - op. cit. p. 259 .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ٢٥

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ٣٧

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ خ ص ٤٩ ــ ٥٠ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ٥٤
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٥ ص ٤١٩
Runciman - op. cit. Vol. III , pp. 356 - 357

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ٧٧ ــ ٧٨
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٥ ص ٤١٩

قطز من مصر لطرد التتار ، واستطاع ان يحصل على اذن من الصليبيين بالعبور على بلادهم ،حتى بلغت الفرقة التتارية بقيادة كتبغانوين عند عين جالوت في رمضان سنة ٦٥٨ ، وباشر قطز القتال بنفسه فانكسر التتار بعد ان قتل مقدمهم كتبغانوين (١) ، غير انه حدث اثناء عودة قطز الى الديار المصرية ان اغتاله بيبرس البندقدادى ، فاختاره المماليك سلطانا عليهم .

وكان لانتصار المماليك على التتار في عين جالوت اهمية كبرى ، اذ ان التتار لهم يهزموا من قبل كما هزموا في عين جالوت .وعلى الرغم من اغاراتهم الكثيرة على بلاد الشام فيما بعد ، فان الهزائم لحقت بهم وصاروا يلتمسون الصلح وتحسين العلاقات بينهم وبين المماليك ، وعجلت هذه الوقعة بزوال الامارات الصليبية في الشام ، كما دفعت التتار الذين حلوا بغربى آسيا الى اعتناق الدين الاسلامى(٢)، فتحول بركة خان ملك القبيلة الذهبية الى الاسلام ، واعلن عداءه للايلخانات في ايران ، وتوطدت الصداقة بينه وبين بيبرس (٣) . ولم يعد في اسنطاعة الامراء الايوبيين بالشام منازعة المماليك السلطان، اذ استولى السلطان بيبرس على اماراتهم ولم تبق في ايديهم منها الا حماه (٤) التي دخلت في طاعة

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ٧٨
Runciman - op. cit. Vol. III , pp. 311 - 312
Cahen - La Syrie du Nord p. 710 .

(٢) انظر Runciman - op. cit. Vol III , p. 313

(٣) المقريزي : الخطط (بولاق) جـ ٢ ص ٢٢١

(٤) انظر : Runciman - op. cit. Vol. III pp. 315 - 316
Cahen - op. cit. p. 713 .

المماليك سنة ٧٤٦ (١) ، وتحالف السلطان بيبرس مع كيخسرو سلطان السلاجقة بالروم الذين وقعوا تحت حكم المغول . وعلى الرغم من استمرار هجوم المغول على البيرة ومخاضات الفرات ، وتوغلهم في الشام حتى افاميا ، فان بيبرس خرب هذه الاطراف الشمالية من ممتلكاته حتى لا يجد اعداؤه المؤن والعلف ، ومن ثم قل تهديد التتار لهذه الجهات (٢)

ولم يغب عن بال بيبرس خطورة العلاقات الودية بين ايلخانات ايران وبين الامراء الصليبيين في الشام ، ولا سيما بوهمند السادس امير انطاكية وطرابلس ، فاخذ في مهادنة التتار باراضي السلاجقة بالروم ، ثم واصل مهاجمة الممتلكات الصليبية باستمرار في سنة ٦٦١ (١٢٦١م) حتى سنة ٦٧٦ (١٢٧٧م) فاستولى على قيسارية وارسوف وخربهما ، ثم استولى على عرقه وصفد وقضى على اصحابها من الداوية ، ثم اغار على ارمينية الصغرى وقليقية حتى بلغ طرسوس وصالح ملكها هيثوم Hethoum على شرط التنازل عن دريساك ، كما استولى بيبرس على يافا وشقيف عرنون ، وتوج اعماله بالاستيلاء على انطاكية سنة ١٢٦٨ . وترتب على سقوط انطاكية انهيار الروح المعنوية في الصليبيين ، فاستسلم حصن الاكراد وسقط حصن مرقب ، وحرص هيو الثالث ملك

---

(١) ابن تغرى‌بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٣٦ ب

(٢) انظر : Lane - Poole - op. cit. p. 266 .
Cahen - op. cit. p. 714 .

قبرص وبيت المقدس على ان يحصل سنة ٦٦٦ (١٢٧٢) على معاهدة عدم اعتداء لمدة عشرة سنوات (١) •

هكذا زال الخطر الصليبي كما زال الخطر التتاري على البلاد المملوكية في الشام ، واخذت دولة سلاطين المماليك تستقر في مصر • ومما زاد في استقرار الامور في كل من مصر والشام ، نجاح بيبرس في التخلص من طائفة الاسماعيلية والاستيلاء على معاقلها في المنيقة والقدموس والكهف ، وهى الطائفة التى استغلها الصليبيون ضد المسلمين (٢) • وتوفى بيبرس سنة ٦٧٦ ﻫ بعد ان اصطدم بكل من الصليبيين والتتار وملك ارمينية الصغرى مرة اخرى (٣) ، ودلت انتصاراته على مدى توفيقه في توطيد دعائم دولة المماليك ، كما دلت اغاراته على آسيا الصغرى حتى قيصرية الروم عاصمة السلاجقة بان هذه الدولة المملوكية جاءت لتبقى على مسرح التاريخ في الشرق الاوسط •

---

(١) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٥ ص ٥١٥ ، ٥٢٥ ، ٥٣٩
Cahen - op. cit pp. 714 - 715
Runciman - op. cit. Vol. III, p. 318, 323, 327

(٢) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٦ ص ٥٥٧ — ٥٥٨ ، ٥٦٦ ، ٥٨٠
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٠٨

(٣) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٦ ص ٥٣٩
Cahen - op. cit. p. 715
Runciman - op. cit. Vol. III p. 326

الفصل الثاني

الجيش المملوكي

عناصر الجيش المملوكي – الترك – حروب التتار واثرها في تجارة الرقيق – الوافدية – هجراتهم الى مصر – انخراطهم في الجيش المملوكي – علاقتهم بالمماليك السلطانية – الجراكسة – الاكثار من شرائهم زمن اسرة قلاوون – النزاع بين الجراكسة والترك – سلطنة برقوق وتغلب الجراكسة – اهمية تاجر المماليك – اثمان المماليك

الفروسية نظام طبيعي في المجتمع الاسلامي ، وشأن المجتمع الاسلامي في ذلك شأن غيره من اصناف المجتمع الانساني المنظم ، وتطورت نظم الفروسية في هذا المجتمع وتفرعت على ايام الخلفاء الراشدين والايوبيين والعباسيين ، فكان من فروعها الفتوة والاسماعيلية (الفداوية) . واضحت الفروسية نظاما عسكريا محبوكا ذا خصائص فريدة ايام سلاطين المماليك في مصر والشام ، وهذا يتطلب هنا اولا شرح عناصر الجيش المملوكي لمعرفة اصول الفروسية فيه ، على ان يكون لذلك بحث خاص في اصول الفروسية المملوكية .

تألف الجيش المملوكي بمصر من اربع فئات ،وهي المماليك السلطانية ويشملون مماليك السلاطين المتقدمين وهم القرانصة ، ومماليك

السلاطين الذين في دست الحكم ، وهم المشتروات ويطلق عليهم في كثير من الاحيان الجلبان او الاجلاب (١) ، ويضاف الى هؤلاء جماعات المماليك الذين ينتقلون الى خدمة السلطان بسبب وفاة سادتهم من الامراء ، او لسبب عزل بعض الامراء او مصادرتهم ويطلق على هذه الجماعات الاميرية اسم السيفية •

اما الفئة الثانية فتشمل مماليك الامراء اصحاب الاقطاعات وارباب الدولة والوظائف ، ويعرفون باسم اجناد الامراء •ويطلق على الفئة الثالثة اجناد الحلقة وهم الذين يجئون من عناصر مختلفة من اصناف المماليك الذين تقدمت الاشارة اليهم فضلا عن بعض المتعممين (٢) ، وثمة فئة اخرى تضم مماليك ابناء الامراء ، واشتهر اولئك الابناء باسم اولاد الناس ، كما اشتهر مماليكهم باسم مماليك اولاد الناس (٣) •

وجاءت عناصر الجيش المملوكي من اجناس مختلفة وأولها جنس الترك • على ان لفظ الترك يشمل معان كثيرة ، فهو تسمية خاطئة لدولة المماليك الاولى في مصر ، وهو اسم جنس للماليك الذين جاءوا من بلاد قبجاق، وهم اصحاب السيادة في العصر المملوكي الاول ، وموطنهم

---

(١) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٦
(٢) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٦
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٦ — ٣٨٧
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٦
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٣٥ أ
النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠
منتخبات من حوادث الدهور ١٧٤ ، ١٧٥
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٧ .

منذ اوائل العصور الوسطى حوض نهر ارتش . ثم اتجهت فئة منهم جنوبا نحو حوض نهر سرداريا سيحون في القرن الثاني عشر الميلادي (القرن السادس الهجري) ، بينما اتجهت فئة اخرى الى شرق اوروبا حوالي ذلك الزمن (١) . ودخل هؤلاء واولئك جميعا في حوزة التتار وجنكيزخان ، ولا سيما بعد ان توجه باطو خان بن دوش خان بن جنكيزخان نحو البلاد الشمالية ، وأخضع لسلطانه سكانها من القبجان والعلاق واللان والادلاق والجركس فضلا عن الروس . وغدت مملكة باطوخان ، ومقرها صراي على نهر الفلجا تمتد من خوارزم الى اطراف القسطنطينية ، ومن بلاد الروس الى القوقاز ، وبذا امتزج التتار والمغول بالترك في هذه البلاد (٢)

ونشطت حركة جلب الرقيق من العناصر التي خضعت للتتار على يد تجار مختلفين ، واقبل ابناء الملوك من الايوبيين على اقتناء اعداد كثيرة من ذلك الرقيق لانشاء الجيوش الكافية لحروبهم الداخلية ولاسيما الصالح ايوب بن السلطان الكامل الذي اكثر في شراء المماليك بعد ان تبين له فساد الخوارزمية وعدم الاعتماد عليهم ، تمكينا لنفسه في ولاية العهد وجعلهم بطانته والمحيطين بدهليزه وسماهم البحرية (٣) وهي تسمية

---

(١) انظر En. Is. Turks.

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٧٤ ، ج ٦ ص ٤٥٨
المقريزي : الخطط (بولاق) ج ١ ص ٩٥
انظر En. Is. Turks , Allan
العيني : عقد الجمان مجلد ٥ ص ٤٢٣

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ٣٢٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣١
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٣٩

سابقة على عصره (١) ، ولذا فان معظم سلاطين المماليك فـي العصـر المملوكي الاول من بلاد القبجاق ، فالسلطان ايبك تركي الاصل والجنس فعرف بين البحرية بالتركماني (٢) ، وقطز من المغول برغم دعواه بانـه ابن اخت خوارزم شاه (٣) •اما بيبرس فمولده بارض القبجاق وجاء الى القاهرة من سوق الرقيق بسيواس (٤)، وقلاوون من جنس القبجاق كذلك (٥) • ومن الطبيعي ان يعتمد كل من سلاطين المماليك على مثل ما نشأو فيه من جيوش مملوكية معظمها من جنسهم • فلم يكتف السلطان الظاهر بيبرس بما كان يجلب اليه من المماليك من بلاد القبجاق وما يقع من سبي اثناء الحروب مع التتار والسلاجقة بالروم (٦) ، بل بعث التجار ليشتروا له المماليك من بلاد التتار (٧) وسار قلاوون على نهجه في استجلاب المماليك من الترك والتتار (٨)، ومعظمهم من الآص والجركس الذين جعلهم

---

(١) زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك ـ مجلة كلية الاداب الجامعة المصرية ـ مجلد ٤ العدد الاول مايو سنة ١٩٣٦ ص ٧٢
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٦٨
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٣ ، ٨٥
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٩٦ ، ١٤٥
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٣٧
(٥) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٦٣
(٦) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٨٩
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٦ ص ١١
(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ١٨٣
(٨) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٦ ص ٧٢٤
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٩٧

في أبرج القلعة ، وسماهم البرجية (١) • وكان لاستمرار الحرب بين ملوك التتار في الشرق اثر كبير في كثرة السبي من النساء والصبيان الذين جيء بهم الى مختلف الاسواق في مصر والشام (٢) ، ولا سيما زمن السلطان الناصر محمد بن قلاون (٣) •ووجدالجنويةوغيرهم من التجار في السلطان مغنما ، فامعنوا في الاستيلاء على اولاد التتار وجلبهم الى ثغر كفا بالقرم ، وضاق طقطاخان ملكالقبجاق بهذه التجارة فارسل جيشا الى مدينة كفا وضرب أوكار تجار الرقيق بها ،غير ان ذلك لميمنع تجارة الرقيق او يقلل من نشاطها (٤) •

على ان الحروب الناشبة بين ملوك التتار لم ينجم عنها ازديـاد تجارة الرقيق فحسب ، بل ترتب عليها كذلك هجرة طوائف وأقـوام من الأجناس التى غدت خاضعة للتتار ، ومنها طوائف تترية • وهؤلاء التحقوا كذلك بالجيش المملوكي في مراتب اعلى مما كان فيه طوائـف العرب والكرد والتركمان ، وانما تقل عن مكانة المماليك السلطانية الذين اشتروا بالمال وقضوا مدة الرق في التعليم الحربي والديني ثم عتقوا واصبحوا جنودا مؤهلين (٥) •

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٣٣٠
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٥٥ — ٧٥٦
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٤٨

(٢) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة بـ ٩ ، ص ٢٦٨

(٣) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة بـ ٩ ، ص ٣٨٤

(٤) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة بـ ٩ ، ص ٤٦٠
Grousset - L'Empire des Steppes . p. 481 .

(٥) انظـر **Poliak** - Le caractère colonial de l'etat **Mamelouk** . (Revue des Etudes Islamiques 1935 . p. 233)

ويطلق على من قدم من هذه الطوائف التترية الى مصر في خـلال العصر المملوكي الاول اسم الوافدية والمستأمنين او المستأمنة(١)•ودخل هؤلاء الوافدية دولة المماليك وهم احرار وظلوا كذلك ، وارتبط كثير منهم بالمماليك بالمصاهرة (٢) • ولحق عدد قليل منهم بفرق المماليـك السلطانية والخاصكية (٣) ،ودخل عدد كبير منهم في خدمة الامـراء المماليك (٤) ، غير ان الترقية في سلك الجيش خضعت لقيود شديدة ، فلم يصل زعيم من زعماء اولئك الاحرار الى ما وصل اليه نظائرهم من المماليك السلطانية (٥) •

ويرجع السبب في بطء ترقية الوافدية في سلك الجيش المملوكي التركي الى تعصب المماليك السلطانية ضد جميع العناصر الدخيلة على تربيتهم ونظام تنشئتهم ، لان المماليك السلطانية في نظر انفسهم وفي نظر المعاصرين كذلك ، هم أرباب الفروسية المملوكية دون غيرهم من فئات الجيش

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٦٨٦ ، ٧٩٨ جـ ٢ ص ٨ ، ١٣
بيبرس الداودار : زبدة الفكرة بـ ٩ ، ص١٣٠ ، ١٦٧،٢٢٢، ٣٥٥ ، ٣٥٦
إنظـر Zetterstien - Beitrage Zur Geschichte des Mamloukensultane , p. 39 . 209 .

(٢) المقريزي : الخطط (بولاق) جـ ص ٢٢ ، ٣٦ ، ٣٩

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ١٣٠
ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٢٤٨

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ١٩٠
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٨١٣
الخطط (بولاق) جـ ٢ ص ٣٦ ـ ٣٩

(٥) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٥١٢ ، ٦١٦
انظـر Zetterstien : Beitrage P. 269

المملوكى ، وهم كذلك أشد ما يكونون حرصا على ان يجيء السلطان من صفوفهم • ومن الأدلة على امتياز المماليك السلطانية على غيرهم من الطوائف العسكرية ، أنهم استطاعوا منذ اواخر ايام السلطان الصالح ايوب ان يبعدوا الخوارزمية من الجيش النظامي في القاهرة ، فصاروا مكلفين بحماية الاعمال الساحلية بالشام ، وهي اقل مرتبة مما تقوم به فئات المماليك السلطانية (١) ، ثم ان كثرة اعداد الوافدية الى مصر وخشية هذه الكثرة على العصبية المملوكية السلطانية جعلت من السياسة الا يصل الوافدي الى وظيفة كبيرة الا قليلا • ومن الادلة على ذلك أيضا ان عددا كبيرا من الخاملين من المماليك السلطانية ارتقوا الى المناصب العالية على حين لم ينجح في الوصول الى هذه المناصب او شبهها الا أفراد قلائل من الوافدية امثال السلطان كتبغا وسلار (٢)، ولعل اوضح الادلة على ذلك كله قول امير مملوكي للامير سلار من باب التعيير والاحتقار «انت واحد منفي وافدي، وليس باستطاعتك ان تجعل نفسك مثل مماليك السلطان (٣) » ، فضلا عن محاباة السلطان كتبغا لهم ومحاولته مساواتهم بهم مما اثار حنق المماليك السلطانية (٤) •

اما تفصيل قدوم الوافدية الى مصر فبدايته أوائل عهد السلطان بيبرس ، وجاءت هذه البداية من الهاربين من وجه هولاكو ، وهم اكثر من

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٧٩ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٤٢ — ٤٤
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٨٦ ، ٩٧
(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٢٢
(٤) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥

مائتي فارس بنسائهم وأولادهم ، ومعظمهم من التتار القبجاق الواردين اصلا من عند بركة خان ، للخدمة في جيش هولاكو • واستقبل السلطان بيبرس بنفسه هؤلاء الوافدية ، وانزل كبراءهم في دور اقامها لهم في اللوق ، وأعطاهم امريات في فرقته البحرية السلطانية، ثم أفرد لكل منهم جهة اقطاعية يعيش منها ، وتظاهر اولئك الوافدية بالدين الاسلامى (١)،

واجتذبت اخبار هذا الاحسان جماعات اخرى الى مصر ، فقدم البريد سنة ٦٦١ من البيبرة وحلب بأن جماعة مستأمنة وردت الى الباب العزيز ، عدتها الف وثلثمائة فارس من المغل والبهادرية، ووصلت جموعهم الى القاهرة اواخر تلك السنة (٢) • وقدمت طائفتان اخريان في السنة التالية ، ومن هنا بدأت مخاوف بيبرس (٣) • وفي نفس السنة قدمت جماعة من شيراز بزعامة سيف الدين بلق واكتيار الخوارزمي جمدار جلال الدين خوارزم شاه وكثير من زعماء عرب خفاجه فاستقبلهم السلطان نفسه ، وانعم على بلق بامرة طبلخاناه (٤) •

ومن الملحوظ ان بيبرس جمع التتار الذين جاءوا مصر واسكنهم بالقاهرة ، ولم يرسلهم الى ساحل الشام ، وعلى الرغم من اهتمامه الشديد بانزال قبائل محاربة في هذا الساحل ، على غرار ما فعل بالتركمان حين انزلهم في يافا لحراستها بعد استيلائه عليها سنة ٦٦٦ (٥)

(١) المقريزي : الخطط ٣ ص ١٩٠ — ١٩١
السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤٧٣ — ٤٧٤
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٠
(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥١٥
(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥١١ ، ٥١٦
(٥) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٦٥

غير ان هجرة الوافدية اخذت تضعف بعد أيام بيبرس ، فلم يقدم الى مصر منهم سوى تسعة عشر فارسا مع نسائهم واولادهم زمن السلطان قلاوون ، وحوالي ثلثمائة فارس زمن ابنه الناصر محمد بن قلاوون •ثم ازدادت هجرة الوافدية مرة اخرى على عهد كتبغا ، والناصر محمد منفي بالكرك سنة ٦٦٥ ، حين وصل الى الرحبة نحو عشرة الاف بيت من عسكر بيدو بن طرغاي بن هولاكو وهم المعروفون بالأويراتية صحبة طرغاي زوج ابنة هولاكو (١) ، فبالغ كتبغا في اكرامهم وانزلهم بالحسينية وأنعم على طرغاي مقدمهم بامرة طبلخاناة ،وعلى اللوص بامرة عشرة ، واعطى البقية تقادما في الحلقة واقطاعات اخرى (٢) • وكان بمصر وقتذاك غلاء كبير ، ودخل شهر رمضان فلم يصم من اولئك الأويرانية أحد ، وصاروا يأكلون الخيل المقتولة بالضرب لا بالذبح ، فأنف الامراء من جلوسهم معهم بباب القلة في الخدمة السلطانية ، وعظم على الناس اكرامهم ، وانطلقت الالسنة بذم السلطان كتبغا(٣)•ومع هذا اخذ كثير من الامراء المماليك اولاد اولئك الأويراتية للخدمة في البيوت، وكثرت الرغبة فيهم لجمالهم ، وتزوج الناس بناتهم ، واندمج بعضهم في الجيش المملوكى ودخلوا الاسلام واختلطوا باهل البلاد (٤) •

---

(١) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ٣٢٧
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨١٦
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٢٠٢
(٢) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥
(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨١٢
بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ٣٢٧ — ٣٢٨
(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨١٣
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٢٠٧
Zettresteen - Beltrage p. 390.

غير ان مبالغة كتبغا في محاباة الاويراتية أدتالى عزله على يد لاجين سنة ٦٩٦ ،الذى امر بالقبض على كبراءالاويراتية وسجنهم بالاسكندرية ومنهم طرغاي ، كما امر بتفريق صغارهم على الامراء فاستخدموهم في مختلف الاغراض (١) • ولم يفلت من ايدي لاجين سوى جماعة منهم خرجت من مصر زمن كتبغا واقامت ببعض الاطراف الشامية (٢) ، ثم دخلت في خدمة الناصر محمد بن قلاون اثناء مقامه بالكرك (٣) • فلما عاد الناصر الى السلطنة امر بطرد اولئك الأويرانية من البلاد بتحريض المماليك السلطانية لانهم اخذوا يقفون فوقهم في الخدمة السلطانية ، فأغروا السلطان بهم واكثروا من ذمهم والعيب عليهم بكونهم خامروا سابقا على استاذيهم من الامراء زمن كتبغا (٤) •

وعلى الرغم من قلة قدوم الوافدية الى مصر بعد سنة ٦٩٥ ، جاءت هجرات اخرى من جماعات مختلفة في اوقات متباعدة ، ففي سنة ٧٠٤ جاء نحو مائتى فارس (٥) ، وفي سنة ٧١٧ عبر جماعة من التتار الفرات، وقدم دمشق منهم مائة فارس باولادهم ونسائهم عليهم امير كبير اسمه طاطاي (٦) ، وفي سنة ٧٢٢ قدم البريد من دمشق بحضور اخت الامير

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥
(٢) بنبرس الداوادار : زبدة الفكرة ص ٣٥٦
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٨٣ ، ٨٨٤
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٢٠٥
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٢٥٨
(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٨٣
(٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ، ص ٥
ابن ابي الفضائل : النهج السديد ص ٣٠٧
(٦) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ١٧٤

بدر الدين جنكلى البابا من الشرق وصحبتها جماعة تتارية ،غير انها ماتت بعد قدومها بثلاثة ايام ، فاستدعى الناصر محمد بن قلاون جماعتها هذه الى القاهرة واقطع افرادها اقطاعات من اجل خاطر الامير جنكلى (١) ، وفي سنة ٧٤١ وهى السنة التي توفي فيها الناصر محمد ، جاءت هجرة اخرى من الوافدية الى مصر بسبب ما انتشر في الشرق من الطاعون ، فاذن الناصر لنائب حلب ان ينزلهم بنيابته ، وجاء منهم نحو مائتي فارس الى مصر (٢) ، وتعتبر هذه أخر هجرة كبيرة جاءت الى مصر •

والجراكسة عنصر قوقازي الجنس ، وهم قلة في الجيش المملوكى زمن الدولة الاولى ، ويطلق عليهم في المصادر العربية اسم الجركس والشركس والشراكسة وفي القليل الجهاركس (٣) •ومع انهم عنصر من الجنس التركى العام ، فان المصادر العربية تشير الى انهم أعداء الاتراك (٤) • أما موطنهم فهو المرتفعات الجنوبية من بلاد قبجاق بين البحر الاسود وبحر قزوين ،والى الجانب الشرقى منهم انتشر الروس واللان (٥) ، وعاش الجراكسة في فقر ، ومعظمهم مسيحيون (٦) • واعتبرهم المقريزي مع اللاص والروس في المملكة التتارية المعروفة باسم القبيلة الذهبية وقاعدتها صراي على نهر الفلجا • واغارت الدولة

(١) لمقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٢٣٦
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥١٥
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٦٩
القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤١٦ ، ٤٦٢
(٤) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٧٢
(٥) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٧٢
(٦) انظر Poliak : op. cit. p. 242

الخوارزمية ابان حركتها التوسعية على بلاد قبجاق الجنوبية حيث مساكن الجراكسة ، فاخذت كثيرا من رجالهم اسرى وسبت نساءهم وأولادهم وجلبتهم التجارة الخوارزمية رقيقاالىالاقطار •واشترى المنصور قلاون عددا كبيرا منهم وأنزلهم في القلعة (١) امعانا في ابعاد العناصر الشمالية من القبجاق التتاريين،الذين تألفتمنهم الظاهرية ،مماليك بيبرس واولاده من الجيش المملوكى • على ان ذلك لم يمنع قدوم الترك الى مصر وأن يظل العنصر التركي اغلبية في الجيش المملوكي • ثم لم يلبث الجراكسة ان اصبحوا قوة يخشى المماليك الأتراك بأسها ، ولا سيما بعد ان جعل السلطان خليل قلاون من الجراكسة سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية (٢) • ووضح خطر الجراكسة او البرجية في الاضطرابات التي اعقبت مقتل السلطان خليل سنة ٦٩٣ وتولية اخيه الناصر السلطنة وهو في التاسعة من عمره ، اذ اختلف الوزير المملوكى سنجر الشجاعى الجركسى الأصل مع الأمير كتبغا التتارى نائب السلطنة ، بسبب انفراد كتبغا بالقبض على الامراء المتهمين باغتيال خليل • وشجع سنجر الامراء البحرية على الخروج على كتبغا ، وأغرهم بالمال • فبعث كتبغا نقباء الحلقة في طلب المقدمين واجناد الحلقة والتتر والاكراد الشهرزورية فلم يحضر اليه الا من لا فائدة فيه (٣) ، ثم سكنت الفتنة بعد مقتل سنجر الشجاعي ، فنزل المماليك البرجية من الطباق بالقلعة فاقامت طائفة منهم

---

(١) المقريزي : ــ الخطط جـ ٣ ص ٣٩١
(٢) المقريزي ــ الخطط جـ ٣ ص ٣٤٨
(٣) المقريزي ــ السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٨٠٠
ابن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة (ق) جـ ٨ ص ٤٢ ــ ٤٣

في مناظر الكبش بجوار الجامع الطولوني ، وطائفة فيدار الوزارة برحبة العيد بالقاهرة ، وطائفةفي مناظر الميدان الصالحي بارض اللوق ،وكل ذلك بامر كتبغا (١) • على أن الفتنة اشتعلت من جديد بين الجراكسة والترك، وذلك حين اجتمعت طوائف المماليك البرجية ، وخرجت الى تحت القلعة، فركب الأمراء الذين بالقلعة في عصبة كتبغا لاخماد هذه الحركة،وفرقوا طوائف المماليك البرجية ، وشتتوا شملهم بالقتل وقطع الأيدي والأرجل والألسن وسمل العيون ، ووزعوا على الأمراء من بقي منهم على قيد الحياة ، وهم زيادة على ثلثمائة مملوك (٢) • غير أن عزل السلطان كتبغا ومقتل السلطان لاجين ، وعودة الناصر محمد بن قلاون الى السلطنة للمرة الثانية سنة ٦٩٨ ، أفسح المجال مرة أخرى للمماليك البرجية بفضل الأمير بيبرس الجاشنكير الجركسى نائب السلطنة ، اذ أمد منهم عدة حتى صاروا قوة هائلة قبالة الامير سلار والمماليك التركية المنصورية القلاونية• ووقع الحسد بين الطائفتين ، وصار بيبرس اذ أمر احدا من البرجية وقف اصحاب سلار وطلبوا منه ان يؤمر منهم احدا (٣) ، ثم انفجرت الكوامن بين البرجية والاتراك سنة ٧٠٦ بسبب اهانة الجاشنكير للأمير سنجر الجاولي التركي • وضاق السلطان الناصر بتلك الحال،وتحير بين بيبرس وسلار فاعلن سنة٧٠٨ أنه ينوي الحج بعياله ،فوافقه الاميران المتنافسان،

---

(١) المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٠٢
ابن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٤٧
بيبرس الداوادار ـ زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٣٠٧

(٢) المقريزي ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٠٥ ـ ٨٠٦
ابن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة (ق) ج ص ٤٩

(٣) المقريزى ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ص ٨٧٥ ـ ٨٧٦

ولا سيما بيبرس والبرجية، الذين أعجبهم سفر الناصر لينالوا أغراضهم.(١) ولما وصل الناصر الى الكرك ، خلع نفسه، وظن كل من سلار وبيبرس أن طريق السلطنة أضحى خاليا له دون الاخر ، فاختار المماليك الأتراك سلار ليكون سلطانا ، واختار البرجية بيبرس . لكن سلار رأى أن السياسة تتطلب منه ان يتنحى عن ذلك ولو الى حين بسبب كثرة البرجية (٢) ، وصار بيبرس هذا اول السلاطين من الجراكسة في مصر (٣) . ولما توجه الأمراء لتحليف نواب الشام على سلطنة بيبرس، كاد خجداشه آقوش الافرم نائب دمشق يطير فرحا لانه جركس الاصل مثله ، وعاشا بالقاهرة بين المماليك الاتراك كالغرباء (٤) . غير أن السلطان بيبرس الجاشنكير لم يطمئن الى ما حدث ، لوجود كثير من الأمراء والمماليك الاتراك عند الناصر محمد بالكرك ، فأرسل يطلب منه سنة ٧٠٩ ان يبعث اليه ما عنده من المماليك ، ليكونوا في خدمة السلطنة بالقاهرة، بحيث لا يبقى عند الناصر سوى عشرة برسم الخدمة الخاصة . غير أن الناصر راوغ وامتنع عن الاستجابة الى أوامر بيبرس ، وهدد بأنه يعتزم الالتجاء الى التتار ، وكتب الى نواب الشام من الأتراك بذلك(٥) . واشتد ضيق

---

(١) المقريزي ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٤٣

(٢) المقريزي ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٤٥
ابن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ١٧٩ ، ٢٣٤.

(٣) ابن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٢٢٣

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٢٣٦
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٩٦ ، ج ٣ ص ٤٦ ٢٤٧

(٥) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢ ــ ٥٣
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٢٣٩
المنهل الصافي ج ١ ص ٣٦٨ أ ، ب

بيبرس من سلوك الناصر ، وأخذ يتشكك في الأمراء الأتراك بالقاهرة، فأخرج بعضهم من القلعة ، وقبض على البعض الآخر ،وتسحب الباقون الى الكرك في مائة وستة وستين نفرا من المماليك السلطانية، بخيلهم وهجنهم وغلمانهم . واستطاع الناصر كذلك أن يكسب عطف أمراء النيابات الشامية فأظهروا الأهبة للمساعدة ، وبفضل هذه المساعدة عاد الناصر الى السلطنة للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ (١) .

وظل المماليك البرجية طوائف مغمورة عدة سنين ،بدليل انه حين اتفق السلطان حسن والامراء سنة ٧٤٨ على تخفيف المصاريف السلطانية وتقليل النفقات بسائر الجهات ،تقرر الاستغناء عن البرجية من المماليك السلطانية . وقابل البرجية هذا الاجراء بمحاولة عزل السلطان حسن وتولية اخيه حسين في نفس السنة ، غير ان مؤامراتهم انكشفت ، وقبض على اربعين منهم ونفوا الى البلاد الشامية ، وضربت طائفة اخرى بالمقارع ثم حبست بخزائن الشمائل ، ومنذ ذلك الحين لم يسمح بالدخول الى قصر السلطان الا لأمراء المشورة (٢) .

ثم تغيرت الاحوال زمن السلطان شعبان بن حسين ، اذ استطاع أحد البرجية الباقين بالقاهرة، وهو برقوق الجركسى ،أن يصل الى منصب الاتابكية ، فأخذ يعمل على جلب الجراكسة من جديد ولا سيما زمن السلطان حاجى بن شعبان ، وترتب على ذلك ان صار الجراكسة مرة

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٦

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٦ — ٥٧

اخرى أصحاب السلطة الكبرى في البلاد الى درجة جعلت برقوق يعزل حاجى بن شعبان ، ويتولى السلطنة سنة ٧٨٤ (١) •

على أن العنصر التركى ظل قوة لا يستهان بها في عصر برقوق ، ويتضح ذلك من خروج الأميرين التركيين يلبغا ومنطاش على برقوق سنة ٧٩١ (٢) • وعلى الرغم من افاضة المصادر المملوكية في ذكر وقائع هذه الفتنة فانها جهلت أن الحرب بين برقوق وأعدائه لم تكن موجهة فحسب ضد السلطان وحده بل ضد الجراكسة كذلك • وأنتهت المرحلة الاولى من هذه الحرب الطويلة بنفي برقوق الى الكرك سنة ٧٩١ وتشريد مماليكه من الجراكسة (٣)، واقامة سلطان اسمه المنصور من البيت القلاوني • ثم تطورت الأحوال بانحياز الجراكسة الى جانب منطاش في نضاله ضد يلبغا (٤)، وبذلك انتصر منطاش على منافسه ، وصار مدير مملكة السلطان المنصور ، غير أن منطاش أساء الى الجراكسة اكثر المماليك عددا ونفوذا ، وأحسوا بقوتهم حتى أنهم حاولوا اغتيال برقوق سنة ٨٠٠ (٥) ، وهى السنة التى توفي فيها برقوق • وانتقم السلطان فرج ابن برقوق لأبيه من الجراكسة لنكرانهم أفضاله عليهم، ولأنهم أرادوا ألا

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٦٢

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٩٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، جـ ٧ ص ٢٦ ، ٣٠٩
المنهل الصافي جـ ١ ص ٣٢١ ب

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٨٨
ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ١ ص ١ ٣ أ

(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ١١٩

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٥٨٨

تكون السلطنة وراثية بل مملوكية قاعدتها تعيين واحد منهم ،فاخذ في اضطهادهم غير أنوسائله الاضطهادية (١) لم تجد نفعا ، لأن الجراكسة أضحوا أكثرية مطلقة ، على حين بات الترك أقلية لا تذكر (٢) • وهذا هو تفسير نجاح الجراكسة في خلع السلطان فرج ومقتله ،وتوليه الخليفة المستعين بالله منصب السلطنة مدة قصيرة ، حتى وقع الاختيار أخيرا على أمير جركسى لتولية ذلك المنصب وهو المؤيد شيخ • ومع أن السلطان الجركسى الجديد اشتهر بميله للأتراك ، فان ذلك لم يقلل من القوة التوجيهية في الدولة والجيش في أيدى الجراكسة نتيجة اكثار السلاطين في جلبهم (٣) • ومما يدل على سيطرة الجراكسة في الدولة أن المؤيد شيخ أراد أن يضمن ولاية العرش لابنه المظفر احمد ، فعين الطنبغا القرمش اتابكا ، اذ لا يخشى منه أن يثب على العرش موضع ابنه لأنه لم يكن من جنس القوم بل كان تركيا (٤) ، ويقابل ذلك ارتفاع شأن افراد من المماليك الجراكسة لكونهم جراكسة فحسب ، ومثال ذلك قرقماس بن عبد الله الأشرفى الذى صار أمير عشرة على عهد السلطان برسباى ، وهو لا يحسن الفاتحة ولا مسك لجام الفرس ولا يفرق بين الرجل والمرأة الا أن هدى لذلك ، وليس له من المحاسن الا

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٥١
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٥٨ ، ج ٥ ص ٤١٦
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١١
المنهل الصافي ج ٢ ص ١٩٦ ب ، ١٩٧ أ
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٧٣
المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٣١ ب
العيني : عقد الجمان مجلد ٢٠ ص ٦٣١
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٤٧

انه جاركسى الجنس لا غير (١) • واشتهر طوخ بن قبد الله الجكمي أحد أمراء الطبلخاناة بالتجاهر بالمعاصى وادمان الخمر ، ولم يكن فيه من الصفات سوى أنه جاركسى الجنس ايضا ، وهذا عندهم في الغاية القصوى على قول ابن تغرى بردى (٢) •

ويدهش المؤرخون المعاصرون لما تمتع به بعض أفراد من الجراكسة من الاحترام والتقدير في غير استحقاق ، ومن هؤلاء سيف الدين لاجين الجركسي الذي رشحه خشداشيته من الجراكسة للسلطنة بدلا من السلطان فرج (٣) ، وكذلك كسو بن عبد الله الظاهرى الذى رشحه الجراكسة ، وهو جندى ، لمنصب السلطنة (٤)

غير ان تأليف الجيش المملوكى لم يقتصر في العصر المملوكى الثانى على المشتروات من الجراكسة فحسب ، بل اعتمد كذلك على ما عكف عليه السلاطين الجراكسة من سياسة استقدام أقاربهم في أعداد كبيرة ،(٥) ومن بين هؤلاء نسبة كبيرة من البالغين الذين لم يتلقوا تعليما حربيا شأن الذين جلبوا صغار السن من المماليك • وحصل اولئك الاقارب على مناصب كبيرة ،فاصبحوا أمراء وخاصكية دون أن يكونوا

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٢٥ ب
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ، ص ٢٤٢ أ ، ب
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٥٥
انظر ايضا Poliak op. cit. p. 244
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ٣ ص ٥٥ أ
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٢٦ ، ج ٦ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، ج ٧ ص ٩٣ =

ارقاء (١) ، وهذا هو معنى قول المقريزى ان معظم الجيش صار مكونا من رجال أصحاب مهن وحرف ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور خباز، ومحول ماء في غيط أشجار ونحو ذلك ، ولذا ليس عجيبا أن تصبح المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرا وأشحهم نفسا ، وأجلهم بامر الدنيا ، وأكثرهم اعراضا عن الدين ،وليس عجبا كذلك أن يصبح الجيش عاجزا ، وان تصبح الدولة المملوكية في ضعف وانهيار لسوء ابالة الحكام ،وشدة عبث الولادة ،وسوء تصرف أولى الامر حتى انه ما من شهر يمضى الا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه(٢).

والخلاصة أن النصف الثانى من دولة المماليك الجراكسة يصح وصفه بانه عصر الأقارب والأصهار ، فقد ولى اينال الحكم دون عناء لان كل الامراء كانوا أصهارا له (٣) ،وبلغت قاعدة القرابة منتهاها في عهد

= المنهل الصافي ج ١ ص ١٦٤ أ ، ٢٤٣ ب ، ٢٦٩ ب ، ٢٩٦ ب ٢٩٩ ب ، ٣٠٧ أ .
منتخبات من حوادث الدهور ص ٣٨ ، ٥٥
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٣ ، ٧٢٨
السخاوى : الضوء اللامح ج ٢ ص٣١٥ ، ج٣ ص٢٨،٦٣، ج ٦ ص ٢٠١ ، ٢١٩ ،ج ١٠ ص ٢٨٨ .
ابن اياس : بدائع الزهور ج٣ص٧٨،١٥٣،١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٤ ج ٤ (كالة) ص ٨٨ ، ١٢٨ .
انظر ايضا Poliak : op. cit. p. 244

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٠٤
(٢) المقريزي ــ الخطط ج ٣ ص ٣٤٨
(٣) ابن اياس ــ بدائع الزهور ج ٢ ص ٦٤

قايتباى (١) ، وفي عصر الغورى توجد أدلة كثيرة تشير الى تولية الأقارب وظائف كبيرة (٢) •

ومن العناصر الأخرى التي استعان بها سلاطين المماليك في توطيد سلطانهم عنصر الخوارزمية ، الذين يعتبرون أول الوافدين على بلاد الشام،تحت ضغط جيوش جنكيزخان،وهو ماتقدم تفصيله في موضعه(٣).

ومن هذه العناصر كذلك طوائف الأكراد الشهرزورية ، نسبة الى شهرزور ،وهى مدينةالسليمانيةالحالية بكردستان •وجاء اولئك الأكراد الى دمشق سنة ٦٥٩ فرارا من جند هولاكو ، وهى في طريقها الى بغداد، وبلغت عدتهم نحو ثلاثةآلاف ، ومعهم أولادهم ونساؤهم ،فسر بهم الملك الأيوبى بدمشق وقتذاك ، وهو الناصر يوسف ، غير انه لم يلبث ان أعرض عنهم بسبب شغبهم ، فساروا عنه الى الكرك ،حيث أقام الملك الأيوبى الآخر وهو المغيث بن العادل الثانى ، لكنهم ما لبثوا ان ضايقوه بسلوكهم (٤) • وانتهى بهم الأمر الى النزول على الساحل بغزة ،حتى استأمنهم بيبرس ، وسمح لبعضهم بالقدوم الى القاهرة ، وأقطعهم الاقطاعات (٥) •ومع هذا دبر الشهرزورية مؤامرةفاشلة لاغتيال بيبرس

---

(١) ابن اياس ــ بدائع الزهور ج ٢ ص٢٦٠ ،ج٣ ص ٧٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٤ ، ٢٥٩ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ،

(٢) ابن اياس ــ بدائع الزهور (وكالة) ج ٤ ص ١٢٩ ، ١٥٦ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ٢٩٦

(٣) انظر ما سبق ص ٥٤ من هذا الفصل

(٤) المقريزي ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤١١ ، ٤١٢ بيبرس الداوادار ــ زبدة الفكرة ج ص ١١

(٥) بيبرس الداوادار ــ زبدة الفكرة ج ٩ ص ٦١

وتولية أحد الأيوبيين مكانه ، وهو العزيز بن المغيث (١) ، ولذا شرد بيبرس أولئك الشهرزورية ، ولم يبق منهم بالقاهرة الا فئةقليلة ظهرت أيام كتبغا سنة٦٩٣ ،وانضمت الى الأويراتية ، على حين انحاز البرجية الى سنجر الشجاعى (٢) •

أما التركمان وهم العنصر الخارجى الثالث في الجيش المملوكى ، فيرجع استخدامهم الى ما قبل عصر سلاطين المماليك ، اذ استعان بهم السلطان صلاح الدين في حروبه الأولى ضد الصليبيين ، وحمل اليهم الاموال والخيول والتشاريف فقدم اليه منهم خلق كثير (٣)•واستعان بهم السلطان بيبرس في حروبه ضد الصليبيين كذلك ،وأنزلهم بعد استيلائه على يافا سنة ٦٦٦ بالبلاد الساحلية لحمايتها(٤) ،وكذلك فعل السلطان قلاون • وظهر من بين أولئك التركمان بهادر المعزى الذى صار من أمراء الألوف زمن السلطان لاجين (٦)

قام تاجر المماليك بدور كبير في جلب هذه الأجناس المختلفة الى مصر ، فلا عجب اذا تردد اسمه كثيرا في المصادر التاريخية ،على أنه

---

(١) ابن ابي الفضائل ــ النهج السديد ٥٢٧
(٢) ابن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٤٤
المقريزي ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٠٠
ابن الفرات ــ ج ٨ ص ١٨٠
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٩
(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٦٥
(٥) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٨٤
بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ١٦٣ ــ ١٦٤
(٦) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ١٢٣

أول حائز للمملوك ، وأول استاذ له • ويشير الى هذه الحقيقة الامير حسام الدين المجيرى ، الذى بعث به السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧٠١ برسالة الى غازان ملك التتار ، حين سأله عن سبب تلقيبه بالمجيرى ، اذ قال « نحن تشترينا التجار ونحن صغار ، ثم يجلبونا الى البلاد ، اينتسب كل منا الى اسم تاجره ولقبه (١) » • ويلقب تجار المماليك غالبا بلقب خواجا ، وأحيانا يطلق عليهم التجار الخواجكية (٢) • ومن الأمثلة على ذلك الخواجه عثمان التاجر ، والخواجه كزل ، والخواجا علاء الدين ، والخواجا مجد الدين السلامي ، والخواجا علاء الدين السيواسى ، والخواجا محمود شاه اليزدى ، والخواجا ناصر الدين ، والخواجا محمود ، وغيرهم (٣) • ولم تشر المراجع الى تاجر من تجار المماليك باسمه الا اذا جلب مملوكا أو عددا من المماليك النابهين ، ممن صاروا أصحاب الوظائف الكبيرة في الدولة • ومن هؤلاء التجار المشهورين الخواجا

---

(١) العينى : عقد الجمان ، مجلد ٥٨ ص ٢٢٦

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ١٥ ، ١٧ ، ج ٦ ص ١٣ ، ٦٩ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ج ١٣ : ٣٨ — ٣٩ .

(٣) العينى : عقد الجمال ، مجلد ٦٤ ص ٣٨ ، ٦٧ ، مجلد ٦٧ ص ٦٠
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٩١
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ ، ج ٧ ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٢
المنهل الصافى ج ١ ص ٢٢٢ أ ، ٢٦٩ ب ، ٣١٦ أ ٣٨٠ أ ٤٣١ أ ، ج ٢ ص ٥٧ أ ، ج ٣ ص ٥٣ أ ٤٣٥ أ
منتخبات من حوادث الدهور ص ٣٤٩
السخاوي : الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٢٨ ، ج ٣ ص ١٠ ، ١١ ، ٧١ ج ٦ ص ٣٢٢ ، ج ١٠ ص ٢٩٠ .
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤ ، ٧٠ ، ٩٠ .

محمود ، في بعض المصادر ، والخواجا محمود بن رستم في بعضها الاخر ،تاجر السلطان قايتباى ،والخواجا محمود شاه اليزدى تاجر المؤيد شيخ (١) ، والخواجا كزل ، والخواجا كزل تاجر الظاهر جقمق ،ويلبغا الكزلي الظاهري ، والخواجا خليل تاجر جاركس بن عبد الله خليل اليلبغاوى أمير آخور السلطان برقوق وعظيم الدولة ،والخواجا سالم تاجر يلبغا السالمى ، والخواجا جوبان تاجر بركة بن عبد الله الجوبانى اليلبغاوى رفيق السلطان برقوق وخجداشه ثم غريمه ، والخواجا يشبغا، تاجر أرغون الظاهرى ،وتغرى بردى والد المؤرخ وغيرهم كثير (٢) .

ومن هؤلاء التجار من وردت أسماؤهم كاملة ،ولهم اهمية خاصة مثل الخواجه عبد الواحد بن بدال التاجر الذى ينسب اليه الامير آقبغا عبد الواحد مقدم المماليك السلطانية ،في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون (٣)،وأشهر منه فخر الدين عثمان بن مسافر تاجر السلطان برقوق

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٩٠
السخاوى : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠١
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢
المنهل الصافى ج ١ ص ١٨٩ ب

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٥٤ — ٤٥٥ ،
ج ٧ ص ٣٣ ، ٣٤
المنهل الصافى ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٧ أ ، ٣٣٦ أ ،
٤٥١ أ ، ٤٧٤ ب ، ج ٣ ص ٤٤٠ ب
منتجات من حوادث الدهور ص ٣٤٩ .
السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٧١ ، ج ١٠ ص ٢٨٩
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤

(٣) المقريزي : الخطط ج ٤ ص ٢٢٥

وأبيه أنس (١) ،فقدكان معتبرا منأعيان المملكة•وعرفالسلطان برقوق له قدره،فكان لا يرد له شفاعة ،ولا يخيبله رجاء .واشتهر عنه بانه لم يكنيعرف اللغةالعربية (٢) •ويتضح مناسماء هؤلاء التجار،انغالبيتهم من غير العرب •

أما مجد الدين اسماعيل بن محمد السلامى فهو أشهر أولئك التجار جميعا ، اذ اشتغل لحساب السلطان الناصر محمد بن قلاون ، وهو عربى الاصل ،ولد بسلامة من أعمال الموصل وعرف باسمه المشهور به ،وهو المجد السلامي (٣) ، وجاءت شهرته من الدور الذى قام به لتوثيق العلاقات بين السلطان الناصر محمد بن قلاون ، والقان أبي سعيد ملك التتار ، وسمح أبو سعيد للمجد السلامى بشراء المماليك من بلاده ، وصرح له بالاقامة هنالك ،كلما دعتالحاجة الى ذلك (٤)•

واشتهر بعض أولئك التجار أحيانا باسم تاجر الخاص(٥)، وأصبح الواحد منهم مكلفا بجلب المماليك للسلطان ، ولذا عهد بهذه الوظيفة احيانا الى أمير من أمراء المماليك • ومن بين الأمراء الذين شغلوها اقبال بن عبد الله المحمدى الظاهرى الساقى المعروف باقبالضضغ الذى بلغ منصب السلحدارية بامرة عشرة في عهد السلطان فرج (٦) •

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٩١
السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ١٠ ، ١١
العيني : عقد الجمان مجلد ٦٧ ص ٦٠

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٦١
المنهل الصافي ج ١ ص ٣١٦ ب

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٨٠ أ

(٤) المقريزي : الخطط (بولاق) ج ١ ص ٤٣
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٨١

(٥) السخاوى : الضوء اللامع ج ٤ ص ١٢
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٦٩

(٦) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٩٦ أ ، ب
السخاوي : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٨٧

واذا وصل تاجر المماليك الى القاهرة لقى أنواع الحفاوة من السلطان ولا سيما أيام الناصر محمد بن قلاون ، ويشير القلقشندى الى مسامحة التجار الخواجكية بما يلزم من المكوس والمقررات السلطانية عن نظير ثمن ما يباع منهم من المماليك (١) •

لم تشر المصادر الى أثمان الأجلاب من المماليك ، ما عدا الذين برزوا في الحياة العامة، وولوا مناصب كبيرة ، وارتقوا في سلك الجيش،فمثلا تذكر المصادر المملوكية أن المنصور قلاون لقب بالألفى لأنه دفع فيه ألف دينار (٢) • على أنه من المعروف أن الأمير اقطاى بن عبد الله الصالحى اشترى بدمشق بألف دينار (٣) ، ولم يلقب بالالفى • وثمة مماليك آخرون ، اشتهر كل منهم بالالفى ، ولم تفسر المصادر أسباب هذه التسمية ، مثال سنقر الالفى، وسنجر الالفى ، وقانصوه الالفى(٤)، ثم ان هناك يشبك المؤيد اشترى بالفى دينار (٥) كما أنه لم يعرف بالضبط

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٣٨ — ١٣٩ ، ج ١٣ ص ٣٨ — ٤٠ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٣٢٥
المنهل الصافي ج ٣ ص ٣٧ ب
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٣٥

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٤٢
المنهل الصافي ج ١ ص ٤٢٢ أ

(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٩٥
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٨٢
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٤

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٠٩
المنهل الصافي ج ٣ ص ٤٥٤ أ
السخاوي : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٧٩

السر في نعت قانصوه خمسمائة وقانم خمسمائة والطواشى مرجان المعروف بستمائة ، بهذه الألقاب (١) • وتشير المصادر الى بعض الامراء الذين أدت الأحوال الى بيعهم من جديد ، أثناء امرتهم،وذلك لسقوط قيد عتقهم ، فدفعت فيهم اثمان تختلف طبعاعن أثمانهم الاولى • ومن هؤلاء الأمراء ايتمش بن عبد اللهالأسندمرى البجاسى الجرجاوى الذى اشتراه السلطان برقوق سنة ٧٨٥ للمرة الثانية بمائة الف درهم ، بعد أن تبين له أنه ما زال في الرق لدى ورثة الأمير جرجى نائب حلب • وجعل برقوق هذا الأمير أتابك العساكر (٢) ، كذلك يشبك بن عبدالله الاتابكى المعروف بالمشد ، اذ كان مملوك الامير سودون البجاسي، نائب حلب • فلما مات سودون ، استولى عليه الامير يشبك الأعرج الساقى نائب قلعة حلب وقتذاك بغير طريق شرعي ، ثم باعه بعد مدة للظاهر ططر قبل سلطنته ، غير أن الامير ايتمش الخضرى المتحدث على أولاد السلطان فرج بن برقوق أنكر ذلك البيع ، باعتبارهم الورثة الوحيدين لسودون مملوك ابيهم ، فاشتراه ططر مرة اخرى بمائة دينار بطريق التحدث والوصية الشرعية فأعتقه ، وارتقى في وظائف الجيش حتى نال امرة طبلخاناة . وبلغ بارسباى أثناء سلطنته هذا الخبر ، فاشتراه اذ ذاك من أناس بألف دينار وأعتقه ثم أنعم عليه بامرة مائةوتقدمةألف(٣)،

---

(١) ابن تغرى بردى : منتجات من حوادث الدهور ص ١ ٣
ابن اياس : بدائع الزهور ٣ ص ٨٨ ، ١٤١ ، ٢٦١
السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ٦٥ ، ج ١٠ ص ١٥٣

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٧٦ ب
العينى : عقد الجمان مجلد ٦٥ ص ٦٢٥

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٤٢٢ أ

وثمت أمير آخر تكرر شراؤه ، انما لم يذكر ما دفع فيه للمرة الثانية وهو كشتغدى بن عبد الله ، من كبار أمراء السلطان الظاهر بيبرس ، وارتفع شأنه عند السلطان قلاون الى أن ظهر قبل موته بمدة يسيرة أنه باق في الرق ، فاشتراه من مواليه وأعتقه ، وشاع في الدولة ذلك العمـــل (١) ٠

ويشير المقريزى الى أن السلطان الناصر محمد بن قلاون كان أكثر السلاطين سخاء في شراء المماليك ، وبلغ ما دفعه ثمنا لمملوك واحد مائة الف درهم احيانا ، مما جعل الأب يجد سعادته في بيع ابنه الى تاجر يجلبه الى مصر ٠ واقتدى الامراء بالسلطان في ذلك(٢)، وأدى ذلك الى زيادة أثمان المماليك عند شراء التجار لهم ،حتى بلغ عشرين الف وثلاثين الف واربعين ألف درهم (٣) ٠ غير أنه يبدو أن الناصر لم يدفع أثمانا بهذه الضخامة الا مرتين ، وذلك حين اشترى صرغتمش بخمسة وثلاثين الف درهم ،فضلا عن تشريف أستاذه ومسامحته في عدة من المقررات(٤)، وحين دفع مائة الف درهم في شراء ملكتمر الحجازى (٥) ، وذلك بسبب جمال الخلقة وطول القامة وحداثة السن في هذين المملوكين ، عند

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٥٥ ب
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٥
الخطط ج ٣ ص ٣٤٨
(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٥
(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٣٦
(٥) ابن حجر : الدر الكامنة ج ٤ ص ٣٥٨
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٢
المقريزي : الخطط (بولاق) ج ٢ ص ٤٠٤

شرائهما (١) . وتبدو ضخامة هذه المبالغ مما هو معروف عن متوسط أثمان المماليك في ثلاث حالات ، ترجع كلها الى القرن التاسع الهجرى . ففى سنة ٨٣٦ ، اشترى السلطان برسباى عدة مماليك، منهم فايتباى الذى أصبح سلطانا ، من الخواجا محمود ، ودفع ضريبة كل مملوك خمسين دينارا ،(٣) . وفي سنة ٨٧١، اشترى السلطان فايتباى جماعة من المماليك، ضريبة الواحد منهم مائة دينار ، وذلك بعد أن منع السلطان جلب المماليك مدة شهر ، وزادت اثمانهم بسبب ذلك (٤) . وفي سنة ٨٧٣ اشترى السلطان فايتباى كذلك ، مماليك كتابية كانوا في حوزة سلفه خشقدم ، ودفع في كل منهم عشرة الاف درهم (٥) ، فيكون متوسط ثمن المملوك في القرن التاسع ما بين ٥٠ ، ٧٠ دينارا (١) .

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٠٦
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٩٠
(٣) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٥٣٤
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٦٦ ، ١٠٠
ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٦٧٢
(٥) في العصر المملوكى الأول ، وجدت علاقة ثابتة بين قيمة الدرهم وقيمة الدينار ، فالدينار وهو في الغالب عشرون درهما ، بلغ سعره احيانا ٢٥ أو ٢٨ درهما (القلقشندي : صبح الاعشى جـ٣ ص ٤٤٢ . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٣ ، ٧٤ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، جـ٦ ص ٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢
اما في العصر المملوكى الثانى ، ولا سيما فى عصر السلطان فرج فان قيمة الدرهم هبطت حتى صار الدينار سنة ٨٠٥ ما بين ٦٠ و ٦٥ درهما (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : جـ ٦ ص ١١٥) ، ومن سنة ٨١٥ الى سنة ٨٢٦ تراوحت قيمة الدينار بين ٢٣٠ ، ٢٨٥ درهما (ابن تغرى بردى : النجوم =

وجرت صفقات شراء المماليك بالقاهرة اولا بخان مسرور ، وموضعه من باب الزهومة قرب الصاغة الحالية الى الجامع الازهر ، ويجاوره حجرتان للرقيق ودكة المماليك (١) ، وكذلك دكة المحتسب لمراقبة ما يجرى من بيع وشراء . وظلت هذه السوق قائمةحتى سنة٨٤٩ (٢) ثم انتقلت الى سوق جديدة ، أنشأها السلطان قانصوه الغورى سنة٩٢٠ بجوار خان الخليلى (٣) . ويبدو من ذلك أنه كان في عصر الجراكسة سوق واحدة على الأقل لبيع المماليك .

ولبيت المال أهمية كبيرة في شراء المماليك لأن العرف جرى على أن يشترى السلطان المماليك الجدد بمال من هذا البيت ،والسلطان هو الذى يعتقهم من ملكيته ، غير انه كثيرا ما حدث ان توفى سلطان من السلاطين ولديه من المماليك الكتابية من لم يعتق .وفي هذه الحالة يشتريهم السلطان الجديد بمال من بيت المال مرة اخرى (٤) ، على

= الزاهرة جـ ٦ ص ٢٧ ، ٣٥٦ ، ٥٣٧ ، ٥٩٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، جـ ٧ ص ١١١ ، ١١٥ ، منتخبات من حوادث الدهور ص١٦ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٩٩) ، ومن سنة ٨٥٨ الى سنة ٨٦١ أصبح سعر الدينار بين ٣٦٠ ، ٣٧٠ درهما . وبلغ الدينار سنة٨٦٢ مقدار ٤٦٠ درهما ، وهو اقل قيمة انخفض اليها الدرهم (ابن اياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٦٦)

(١) المقريزى : الخطط ، بولاق ، جـ ١ ص ٣٧٤

(٢) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ١٦

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور (كاله) جـ ٤ص ٤٠٤ — ٤٠٥

(٤) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٦٧٢
ابن اياس : بدائع الزهور (كاله) جـ ٣ ص ١٦ .
ابن ابى الفضائل : النهج السديد ص ٥٤٠

ان يذهب جزء من ثمن الشراء لأسرة السلطان المتوفى (١) . ففى سنة ٨٧٣ أمر السلطان قايتباى بعقد مجلس في القلعة بحضور القضاة لشراء المماليك الكتابية التابعين للظاهر خشقدم ، فاشترى السلطان نحوا من خمسمائة مملوك ، ضريبة كل مملوك عشرة الاف درهم ، لكنه طمع في حق أولاد خشقدم ، ولم يدفع لهم نصيبهم (٢) . ويتعلق بهذا الموضوع ما ورد من نصوص عن عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون حين عزل نفسه عن السلطنة سنة ٧٠٩ ، وتولى نيابة الكرك ، بتقليد من السلطان المظفر بيبرس ، اذ بعث بيبرس الى الناصر ، يطلب اليه ارسال المماليك الذين عنده ، لأنهم اشتروا من بيت المال (٣) فأثار بيبرس بذلك مسألة فقهية وهى أن الناصر اشترى جميع مماليكه من بيت المال ؛ وليس له الحق من الناحية القانونية في الاحتفاظ بهم ، بسبب عزله عن السلطنة . ولما عاد الناصر الى السلطنة سنة ٧٠٩ ، استدعى القضاة ، وأقام عندهم البينة بأن جميع مماليك السلطان المظفر بيبرس وجميع ما وقفه من الضياع والأملاك ، اشترى من بيت المال ، فوافق القضاة على ذلك. وندب السلطان الامير جمال الدين أقوش الأشرفى نائب الكرك لبيع تركة المظفر بيبرس واحضار نصف ما يحصل ، ودفع النصف الآخر للابنة

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٥٣ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩

ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٧٧ أ ٤٠٤ ب ج ٣ ص ٥٦ ب

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٠

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٢٥٤

المنهل الصافي ج ١ ص ٣٦٨ ب

الوحيدة التى خلفها المظفر بيبرس ، وهى زوجة الأمير برلغى الأشرفى ، وفعل الناصر مثل ذلك بمماليك سلار واوقافه وضياعه (١) •

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٨ ص ٢٥٧

الفصل الثالث

تربيــــة الفـارس

الطباق – تحديد زمن انشائها – عددها – اسماؤها – المـــماليك الكتابية – أعمارهم – أطباق الكتابية – كتابية الأمراء والمتعممين – التعليم الديني بالطباق – معلمو الطباق – الفروسية وفنونها – معلمو الفروسية – تعليم الطعن بالرمح ، والرماية ، والضرب بالسيف ، وركوب الخيل – الطواشية وتأديب المماليك – عنق المماليك الكتابية وتخريجهم – مماليك تربوا مع أبناء السلاطين.

يرسل السلطان مشترياته من المماليك الى الطباق حيث ينزل كل منهم في طبقة جنسه « برسم الكتابة » على قول المقريزي (١) • وقامت هذه الطباق بساحة الايوان بالقلعة ، لسكنى المشتريات مـــن المماليك وتعليمهم ، وربما ظل المملوك مقيما بها بعد عتقه . واشتملت كل طبقة على عدة مساكن تتسع لألف مملوك (٢) .

(١) المقريزي : الخطط جـ ٣ ص ٣٢٧ .

(٢) المقريزي : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧
القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٣٧٥ ، ٣٧٦
السخاوي : التبر المسبوك ص ٣١٢
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٨٨
الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٢٧٧

ويقول المقريزي ان السلطان الناصر محمد بن قلاون هو الذي بنى الطباق بساحة الايوان بالقلعة وأسكنها المماليك السلطانية سنة ٧٢٩، وذلك بعد أن أمر بهدم السجن الذى أنشأه أبوه قلاون ليسجن فيه الأمراء وهو سجن الجب (١) . غير أنه من المعروف أن الظاهر بيبرس بنى بالقلعة طبقتين مطلتين على رحبة الجامع ، وأنشأ برج الزاوية المجاور لباب القلعة، وأنشأ جواره طبقة للماليك (٢) . ومن المعروف كذلك أن السلطان قلاون كثيرا ما كان يخرج الى هذه الطباق في موعد حضور الطعام للمماليك، ليختبر طعامهم بنفسه، وأن السلطان خليلا أجاز للمماليك النزول من القلعة في النهار ، على ألا يبيتوا الا بها (٣) . ثم انه تقدم في شرح فتنة سنة ٦٩٣ ، أن المماليك السلطانية الذين اتهموا في اثارة تلك الفتنة أنزلوا من الطباق ، وسكنت طوائفهم في أماكن متفرقة بالقاهرة.(٥)

على أن الناصر محمد بن قلاون أمر سنة ٧١٢ بهدم قصر الرفرف بالقلعة الذى شيده أخوه خليل وصوّر فيه امراء الدولة وخواصها واتخذ مجلسا له . وأقام الناصر مكان هذا القصر برجا بجوار الاصطبل (٥) . وفي سنة ٧١٥ نشب حريق في اطباق المماليك الواقعة بالقرب من البرج المنصورى (٦) ،فعزم الناصر على بناء الطباق الجديدة،

---

(١) المقريزي : الخطط (بولاق) جـ ٢ ص ١٨٩ ، ١٣
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ١٩٠ ، ١٩١
(٣) المقريزي : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٦ — ٣٤٧
(٤) انظر ما سبق ص ٦٣ ، ٦٤
(٥) المقريزي : الخطط (بولاق) جـ ٢ ص ٢١٢ — ٢١٣
(٦) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٢ ص ١٥٧
انظر ص ١٦٣ ، ١٦٤ في Zettersteen - Beitrage

بحيث تكون كلها في مكان واحد ، وجمع فيها فئات المماليك السلطانية جميعها ، فبلغ عدد الطباق بذلك اثنتي عشرة طبقة (١) ،

وانفرد خليل بن شاهين الظاهري دون غيره من المؤرخين بتحديد عدد الطباق في القرن الخامس عشر الميلادي ، غير ان المصادر المملوكية المعاصرة أوردت أسماء ثماني عشرة طبقة ،مما يرجح أن هذه الأطباق لم توجد كلها في وقت واحد ، بل طرأ عليها كثير من التغيير والتعديل، وربما تغير اسم بعضها الى اسم آخر . وهذه الطباق هي :

طبقة الرفرف (٢)
طبقة الطازية (٣)
طبقة الزمام (٤)
طبقة الاشرفية (٥)

---

(١) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٢٧

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢١٧
السخاوي : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٨٧
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ١٩٠

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٧١
ابن اياس : بدائع الزهور (كاله) ج ٥ ص ١٠٧
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ١٠ ص ١٦١
السخاوي : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠١ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٤ ، ٣٥ ، ١٧٦
المنهل الصافي ج ١ ص ٢٢٣ أ
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢١٦ ، ٢٨٧

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٩٩ ، ج ٦ ص
١٨٤ ، ٤٨٦ ، ٥٢٣ ، ٥٢٨ ، ٥٥٣ ، ٥٩٢
المنهل الصافي ج ١ ص ٣٠٨ أ
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ١٠٩
الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣

طبقة الحوش (١)

طبقة الغور (٢)

طبقة المقدم (٣)

طبقة الصندلية (٤)

طبقة الخازندار (٥)

طبقة الميدان (٦)

طبقة المستجدة (٧)

طبقة القاعة (٨)

طبقة قراجا (٩)

طبقة الأربعين (١٠)

---

(١) ابن أياس : بدائع الزهور (كاله) ج٤ص ١٨٨ ، ٢٧٤
الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٢
(٢) السخاوي : الضوء اللامع ج ٧ ص ٢١٠
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٩٢
(٣) ابن تغرى بردى :النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣١٥ ، ٤٧٥
منتخبات من حوادث الدهور ٦٥٨
السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٤ ، ج ١٠ ص ٢٨١
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٤٠
المنهل الصافي ج ٢ ص ١٧ أ ، ب
ابن اياس : بدائع الزهور (كاله) ج ٤ ، ص ١٦٦
(٥) ابن أياس : بدائع الزهور (كاله) ج ٥ ص ٤٩
(٦) ابن أياس : بدائع الزهور (كاله) ج ٤ ص ٤٢٨
(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦٩٥
(٨) السخاوي : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٨١
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٢٦ ، ٤١
(٩) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ١٦٦.
(١٠) ابن أياس : بدائع الزهور (كاله) ج٣ ص ٣٠٩ ، ٣١٠

طبقة الطواشي مرجان الخازندار (١)
طبقة فيروز الخازندار (٢)
طبقة الخروب (٣)
طبقة البرانية (٤)

ومن هذه القائمة ، يتبين أن عددا كبيرا من الأطباق حمل أسماء طواشية أو أسماء وظائف تولاها أشخاص معينون على شئون هذه الأطباق والأمثلة على ذلك ، طبقة الزمام ، وطبقة الخازندار ، وطبقة الطواشي مرجان الخازندار ،وطبقة فيروز الخازندار .اما طبقة الصندلية فتنسب الى الأمير الطواشيصندل المنجكى المتوفى سنة ٨٠١ ، وهو خازندار السلطان برقوق (٥) ، كما تنسب الطبقة الأشرفية الى مماليك السلطان الأشرفشعبان بن حسين (٦) .وانتسبت طبقة قراجا الىالأمير قراجا الخازندار ، وكان امير لا طواشيا (٧). وانتسبت طبقة صوابالى الطواشي صواب بن عبد الله السهيلي الخازندار المتوفي سنة ٧٠٦ ، وهو

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٩٢ أ
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٨٧
المنهل الصافي ج ٢ ص ٥٢٤ ب ، ٥٢٥ أ
(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٦
(٤) السخاوي : الضوء اللامع ج ٦ ١٤٨
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ١٤٠
المنهل الصافي ج ٢ ص ٢١٦ أ ، ب
(٦) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٤٧٢
(٧) السخاوي : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢١٥
ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ١٦٥

من اخصاء الظاهر بيبرس (١) ، اما طبقة المقدم فلعلها تنسب الى مقدم المماليك او مقدم الطبقة وكل منهما طواش على اية حال .

ويكاد المقريزى ينفرد بشرح تربية المماليك في الطباق بالقلعة ، وخلاصته أن الرسم كان في أول عهد السلاطين المماليك الا تجلب التجار سوى المماليك الصغار . فأول ما يبدأ به فيما اصطلح العرف على تسميته برسم الكتابة ، هو أن يحفظ أجزاء من القرآن الكريم ، ولكل طائفة فقيه يحضر اليها كل يوم ،ويأخذفي تعليمها القرآن والخط وآداب الشريعة والصلوات والأذكار . فاذا شب الواحد من المماليك ، علمه الفقيه شيئا في الفقه وأقرأه فيه مقدمة . فاذا صار الىسن البلوغ ، أخذ معلم في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك واذا ركبوا الى لعب الرمح لا يجسر جندى ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم . وينقل المملوك بعد تمرينه وعتقه الى الخدمة ، وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء . فيبلغ ذلك بعد أن تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الاسلام وأهله بقلبه، واشتد ساعده في رماية النشاب . وجنح بعض المماليك الى الدراسة الفقهية أو غيرها من الدراسات المدنية، وصار منهم الفقيه والأديب والشاعر والحاسب . (٢)

وكيفما كان الامر اعتنى السلاطين بتربية المماليك في هذه الأدوار الاولى من حياتهم،فجعلوا عليهم أزمّة من الخدم واكابر من رؤساء النوب

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٢١٧ أ
(٢) المقريزى : الخطط ج ٣ ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨

يفصحون عن حال الواحد منهم ، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ،ويناقشونه على حركاته وسكناته . فاذا علم أحد منهم أن مملوكا من المماليك اقترف ذنبا أو أخل برسم أو ترك أدبا من آداب الدين والدنيا، قابله على ذلك بعقوبة على قدر جرمه . وبلغ من ذلك أنه اذا رأى مقدم الطبقة أن مملوكا يغتسل في السحر ، سأله عن سبب ذلك ، وينظر في سراويله فان لم يجد فيها جنابة من احتلام عاقبه أشد العقوبة. وأجرى السلاطين لطباق المماليك الرواتب الكثيرة ، من اللحوم والاطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات . وتكون كسوة المملوك عند نزوله بالطباق من الثياب القطنى البعلبكى ، ومن الثياب الكتان الخام المتوسط،فضلا عن المعاليم من النقود . ثم رخص السلطان برقوق للمماليك في سكنى القاهرة وفي التزوج ، فنزلوا من الطباق الى المدينة وتزوجوا من نسائها . غير أنهم لم يلبثوا أن أخلدوا الى البطالة والعافية ، ونسوا حياة الطباق وصرامتها ، شأنهم في ذلك شأن الينى شرية أواخر الدولة العثمانية . ثم تلاشت الأحوال ، وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها لتفضيل المماليك للراتب النقدى أيام السلطان فرج بن برقوق، اذ جعل لكل واحد منهم في اليوم عشرة دراهم من الفلوس ، فصار غذاؤهم في الغالب الفول المصلوق عجزا عن شراء اللحم وغيره (١) .

ثم تطور الجلب في المماليك ، فاصبح من الرجال ما بين ملاح ووقاد وفلاح ، ممن ضاق به العيش في بلاده . وهبط مستوى تعليم المماليك

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٤٧ — ٣٤٨
السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٤ — ٥٢٥

سواء في الدين أو الفنون الحربية .ورأى السلطان فرج أن يترك أولئك المماليك الكبار وشأنهم ، فتغيرت الأحوال وصار المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم ، فكان ذلك من عوامل خراب مصر والشام كما تقـدم (١) .

اما « رسم الكتابة » الذي ذكره المقريزي في وصفه لطبـاق المماليك ،فالمقصود به تعليم المماليك، والسر في ذلك أن أكثر المشتروات في هذا العصر الأول من المماليك الصغار ، ولذلك سموا المماليـك الكتابية (٢) . غير أن المصادر لم تهتم بايراد أعمار هؤلاء المماليك عند قدومهم الى مصر ما عدا الاشارة الى الواحد منهم على انه « صغير » او « في جملة مماليك صغار (٣) » . أما الحالات التى وردت فيها الأعمار فهى قليلة ،لأشخاص صاروا من المماليك الكتابية ،ثم صاروا ذوى مكانة فيما بعد في الدولة . فالسلطان خشقدم جاء الى مصر وهو ابن عشرة تخمينا (٤) ، والسلطان شيخ المحمودي وهو ابن اثنى عشر سنـة (٥) ، أما الأمير تغرى برمش بن عبد الله الجلالى المؤيدى ، نائب قلعة الجبل فكان في السابعة من عمره حين وصل الى القاهرة (٦) ، ولم يكن

---

(١) المقريزي : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٨
(٢) المقريزي : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٧
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٧٠ ، ٨٧
(٤) السخاوي : الضوء اللامع جـ ٣ صر ١٧٥
(٥) السخاوي : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩.
العيني : عقد الجمان مجلد ٦٥ ص ٥٠٧
(٦) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ١ ص ٤٠٤ أ ، ب

فايتباي يتجاوز السادسة عشرة حين جاء الى مصر سنة ٨٣٩ (١). والملحوظ ان المماليك الكتابية لم يكونوا جميع مشتروات السلطان ، بل عاشت بعض هذه المشتروات ، دون أن تدخل مرحلة الكتابية بسبب تجاوزهم سن التعليم .

لكن هل كان للكتابية طباق خاصة يقيمون بها ويتلقون تعليمهم فيها . الجواب على ذلك أن المصادر المملوكية المعاصرة تؤدى الى الاعتقاد بوجود هذه الطباق الخاصة ملحقة ببعض الطباق الكبرى ولاسيما طبقة الزمام وطبقة الطازية . فالمملوك برسباي الذي تسلطن فيما بعد ، نزل في طبقة الزمام مع جملة مماليك الأطباق الكتابية (٢) . وأقام فايتباى كذلك بين الكتابية بطبقة الطازية ، واستقر غيرهما من المماليك الذين أصبحوا امراء بين المماليك الطباقية (٣) .

ثم لم يقتصر اقتناء المماليك الكتابية على السلاطين فحسب، بل اقتنى بعض الأمراء وغيرهم من المتعممين أعدادا منهم ، فكان برقوق من جملة المماليك الكتابية التابعين للامير يلبغا العمرى زمن السلطان الناصر حسن (٤) . واقتنى كل من الأميرين خجاسودون أحد أمراء

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠١ — ٢٠٢
(٢) السخاوي : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠١
ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٠٧ أ
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٥ ، ١٦ ، ٩٠ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٠٩ ، ج ٧ ص ٤٢٢
السخاوي : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٧١
(٤) السخاوي الضوء اللامع ج ٣ ص ١٠ — ١١

الألوف على عهد السلطان برسباى (١) ،والزينى استادار السلطان جقمق، عددا من الكتابية فضلا عما كان عندهم من المماليك غير الكتابية. ولم يكن من المألوف ان يقتنى أحد المتعممين من أمثال الزينى شيئا من المماليك الكتابية أو غير الكتابية ، ولذا تعجب ابن تغرى بردى وقال «فان ذلك شىء لم نعهده لمتعمم (٢) » .

اما تفصيل الدراسات التي يتلقاها المملوك في الطباق ، فالمعروف ان بعض المماليك الكتابية حفظ القرآن الكريم كله عن ظهر قلب وحرص على تجويده ، فاشتهر الأمير ازدمر الابراهيمى الظاهرى جقمق بتلاوة القرآن والقراءة مع قراء الجوق « رياسة مع فهم في الجملة وطول نفس (٣) » ، وعرف عن يشبك من سليمان شاه المؤيدى الفقيه، أحد أمراء السلطان المؤيد شيخ وصهره بانه اشتغل بالقراءات . ومن الذين اشتهروا بحسن الخط والتأنق فيه ، الأمير قجماس الأسحاقى الظاهرى جقمق ، الذى يقال أنه كتب بخطه قصيدة البردة للبوصيرى، وقدمها لأستاذه جقمق فاستحسنها(٤) واعتبرت الأجادة في الخط مبررا لزيادة ثمن

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ص ١٦٢ أ
السخاوي : الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٧٧

(٢) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ١٦٧
المنهل الصافي ج ١ ص ٣٥١ أ، ٤٠٤ ب ، ٤٠٥ب
السخاوي : الضوء اللامع ج ١ ص ١٦٥ ، ج ٢ ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ج ٣ ص ٣٠ ؛ ج ١٠ ص ٢٧١

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٢٩

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ص ١٨١ ب، ٣٣٨ ب، ج ٣ ص ١٤١ أ ، ٤٢١ أ
السخاوي الضوء اللامع ج ٦ ص ٢١٣

المملوك اذ طلب أحد التجار من الظاهر بيبرس ثمنا مرتفعا في مملوك لأنه يكتب خطا مليحا ، فاستكتبه ، فكان كذلك، فزاد في ثمنه(١) .

وأما العلوم الدينية فالمعروف أن الأمير تنكز المتوفى سنة ٧٤٠، سمع صحيح البخاري غير مرة من ابن الشحنة ،وسمع كتاب الآثار للطحاوي، وصحيح مسلم (٢) . وسمع الامير أرغون شاه الداوادار صحيح البخاري كذلك، وبرع في الفقه ، وأذن له بالافتاء والتدريس (٣) . واشتهر الأمير تغرى برمش بمعرفة الفقه والحديث والتاريخ والادب ونظم الشعر باللغتين العربية والتركية (٤) ، وصنف العيني شرحا لطيفا على المختصر المعروف بتحفة الملوك في الفقه اجابة لرغبة شيخ الخاصكى المتوفى سنة ٨٠٧ . ويبدو ان هذا المختصر كان شائع الاستعمال في الطباق ، اذ أفاد منه كثير من المماليك (٥) . واشتهر الامير محمد بن جنكلي بن البابا المتوفي سنة ٧٤١ ، بأنه درس الحديث والطبقات وقارف النظم(٦) . أما يعقوب شاه الارزنجانى مهمندار بارسباى ، فاشتهر بقراءة المطالعات من الروم والتتر ، والعجم والهند ، كما عرف باجادة اللغتين التركية والعربية (٧). وشغف الأمير احمد بن بركوت المكينى بالنظر في دواوين الشعر، فضلا عن

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٨٢ أ
(٢) العيني : عقد الجمان مجلد ٦٤ ص ١٣٨
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ١٨٦ ب
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٤٠٤ ب
السخاوي : الضو اللامع ج ٣ ص ٣٣
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٠٧ ب
السخاوي : الضوء اللامع ج ١ ص ٢٤٦
(٦) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ١٤١ أ
(٧) السخاوي : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٨١

اتقانه فن الموسيقى (١) ، واشتغل الامير بلباي الدمرداش بعلم الهيئة (٢)، واهتم على من امير صاحب بجمع المدائح النبوية ، اذ وجد في تركته عند موته خمسة وتسعون مجلدا كلها مدائح (٣) غير انه يبدو من هذا التوسع في الدراسة والتبحر في الاطلاع ان اولئك المماليك واصلوا دراستهم بعد مرحلة التعليم في الطباق الكتابية .

ولم يختلف تعليم أبناء السلاطين ، أو تعليم أبناء الأمراء عن مناهج الطباق الكتابية ، بل تعلم بعض المماليك الكتابية فعلا مع أبناء السلاطين والأمراء في مكتب خاص في بيوتهم . ومن الأدلة على ذلك ما كان للامير سيف الدين كوندك الساقى من المكانة عند السلطان السعيد بن بيبرس لأنه ربى معه في المكتب (٤) . وكان بزلار بن عبد الله العمرى من مماليك السلطان الناصر حسن، فرباه مع أولاده، وتأدب وكتب الخط المنسوب . ومن أبناء السلاطين الذين اشتهروا بالتبحر في العلوم الدينية محمد بن جقمق ، الذي حفظ القرآن ، واشتغل بالفقه والفرائض والحديث والمنطق والعربية . فلما تسلطن أبوه زاد طلبه للعلم ، فقرأ على ابن حجر العسقلانى ، وحضر على سعد الدين في الفقه والتفسير ، وأثنى عليه ابن حجر بالفهم والحفظ (٦) . وحين قدم بيبرس المنصورى

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٠
(٢) السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ١٩
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٠
(٤) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٦ ص ٦ ٦
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٣٨ ب
(٦) السخاوي : الضوء اللامع ج ٧ ص ٢١٠ — ٢١١

صاحب التاريخ الى الديار المصرية سنة ٦٥٩ ،اشتراه الأمير سيف الدين قلاون ، وأنزله في بيته ، حيث رتبه في المكتب الخاص بتعليم أولاده (١) ، وكذلك شأن بيبرس الركن العلائى الذى مات والده وهو طفل ابن سنتين ، فنشأ في كفالة أمه تحت وصاية ألأتابك أزبك من ططخ ، فاستدعى له مربيا خاصا (٢) . أما أحمد بن برسباى الشهابى فتولى تربيته زوج امه قرقماس الأشرفى أمير سلاح ، وأحضر له من علمه القرآن والخط المنسوب وأقرأه العلم (٣) .

أما معلمو الطباق الكتابية فلم تذكر المصادر التاريخية وكتب التراجم والطبقات منهم الا القليلين ، الذين اقترنت أسماؤهم بأسماء بعض الأمراء الذين تعلموا على أيديهم ، ومن أولئك تقى الدين القلقشندي الذي وصف الامير تغرى برمش نائب القلعة بانه لم يكن يفهم من العربى كلمة (٤) . ويرجع سبب اهمال المصادر وكتب الطبقات لأولئك المعلمين ، أنهم لم يكونوا من المنصرفين الى العلم ، وأن ثقافة بعضهم لم تتعد اقراء القرآن ،بل ان بعضهم اشتغل ببيع الليمون ،مثل الشيخ عبد الجبار بن علي الأخطابى ، أو نسخ الكتب ، مثل محمد بن احمد العسقلانى ، ومحمد بن عمر التاج الكردى ، أو ببيع الكتب ، مثل محمد بن حسن الحنفي (١) .

---

(١) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٥ ص ٤٧٣
(٢) السخاوي : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٢١
(٣) السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ص ٢٤٧
(٤) السخاوي : الضوء اللامع جـ ٢ ص ٢٧٠
(٥) السخاوي : الضوء اللامع جـ ٤ ص ٣٥ ، ٣٦ ، جـ ٧ ص ٨٧ ، جـ ٨ ص ٦٧ .
ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ١٤٠

ومن الواضح ان المماليك الكتابية كانوا احسن ثقافة ومكانة من غيرهم من المماليك ،الذين جلبوا كبارا ،فلم تتغير طباعهم ولم يهتموا بشىء من التعليم المضارع لما نشأ عليه الكتابية من الأدب والتفقه بالدين في سن الصغر (١) .ومع هذا ترقى معظم هؤلاء المماليك حتى بلغوا الوظائف الكبرى ، وحصلوا على الاقطاعات الثقيلة ،دون ان يحسنوا الكلام في العربية فضلا عن لغتهم التركية الأصلية ،ودون دراية بأعمال وظائفهم . ومثال ذلك اركماس الظاهري صاحب الداوادارية الكبرى ، في عهد برسباى (٢) . وشارك في ذلك الأمير أنص بن عبدالله الجركسي والد السلطان برقوق الذي وجد الفقيه صعوبة شديدة في تحفيظه الفاتحة من القرآن، ولم يعرف من التركية سوى اللهجة الجاركسية.(٣) ثم ان اولئك المماليك ضربوا مثلا في الفساد والمعاصي ، ولعل الامير طوخ بن عبدالله الجكمى أسوأ مثال لهذه الطائفة من المماليك في هذا العصر ، اذ عرف بالتجاهر بالمعاصى وادمان الخمر ، فضلا عما اشتهر به من الكبر والجبن والبخل وعدم معرفته أنواع الفروسية (٤) .

أما التعليم الحربى للمملوك في الطباق ، فليس في المراجع التاريخية وصف تفصيلى قائم بذاته سوى ما أورده المقريزى في الخطط من حيث انتقال المملوك من التعليم الديني الى هذا النوع الثاني من التعليم عند

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٣٥ أ
النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥١٠
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج١ص ١٨٩ ب ، ١٩٠ أ
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٦٩ ب ، ٢٧٠ أ
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٤٢ أ

سن البلوغ ، حين يأخذ في المران على أنــواع القتال من رمى السهام ولعب الرمح (١) . غــير ان المؤلفين في الفروسية ، ومعظمهم اساتذة في فنونها المختلفة، وكذلك مؤلفي كتب التراجم والتاريخ، وعلى الأخص في العصر المملوكى الاول، ألقوا ضوء جديدا على هذا النوع من التعليم عند المماليك . وأول ذلك أن الفروسية شملت المهارة في ركوب الخيل واللعب بالرمح والحذق في الرمى والضرب بالسيف، وسوق البرجاس والمحمل، ولعب الصولجان، واستعمال الدبوس، والمران على المصارعة وسباق الخيل(٢) . على أن المملوك من المماليك لم يتعلم جميع فنونها وفروعها في الطباق ، بل اقتصر تعليمه علــى استعمال الرمح والقوس والسيف وركوب الخيل فقط على معلمين أخصائيين. ثم يتعلم المملوك ما عدا ذلك من فنون الفروسية ، بعد عتقه وتخرجه من الطباق جنديا، حين يخرج السلطان لمملوكه خيلا وقماشا على قول المصطلح وفي كتب التراجم اشارات مبعثرة عن المعلمين الذين تولوا القيام بمهمة تعليــم المماليك سواء في الطباق أو غيرها ، اذ اقترن لفظ الفروسية بألفــاظ معلم وأستاذ ورأس ، ومثال ذلك الطنبغا بن عبد الله الظاهرى الذى عرف بالمعلم لأنه تولى تعليم اللعب بالرمح في عهد برسباى(٣) ، وكذلك

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٤٧ ــ ٣٤٨

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل ج ١ ص ٢٣٤ ب ، ٢٦٦ أ ، ج ٢ ، ص ٤٤ أ ، ب ج ٣ ص ٢٠ ب ، ٥٣ ب
النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٣٠ ، ج ٧ ص ٨٤٤
السخاوي : الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٤ ، ٤١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٦٣ ب

تمراز بن عبدالله الناصرى الظاهرى ، الذى تولى وظيفة معلم الرمح زمن السلطان برقوق .واشتهر تمراز كذلك بانه رأس في فنون الفروسية فضلا عن وظيفة التعليم ، وهـو استـاذ آقبغا التمرازى وغيـره من التمرازية (١) . أما كزل بن عبد الله السودونى أحد أمراء العشرات ومعلم الرمح في عهد المؤيد شيخ ، فهو أستاذ المتأخرين في تعليم الرمح زمن برسباى ، وتخرج عليه معظم المماليك والأمراء وقتذاك (٢) . واشتهر الأمير آقبغا بن عبدالله التمرازى الاتابكى بدوره بأنه استاذ زمانه في مختلف فنون الفروسية ، وانتهت اليه الرياسة في ركـوب الخيل ، وتخرج به جماعة من أمراء الدولة وأعيانها في عهد برسبـاى وجقمق (٣) .

والخلاصة أن الأستاذ في الفروسية هو الذى بلغ الغاية فـى فنونها ، حتى ليصبح مرجعا فيها جميعا ، فضلا عن اشتغاله بالتعليم . أما المعلم فهو الذي يختص بتعليم الرمح ، ومثال ذلك الامير اينال ضضغ الذى تولى تعليم الرمح للمماليك عدة سنين زمـن السلطان (٣) . واصطلح أهل الفروسية علىهذه الألقاب .فاذا اصبح المعلمملما بأصول تعليمه ،وغدا مرجعافيه ، اعترف لهالمعلمون الآخرون بالرياسة . ومثال

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ١ ص ٤٣١ أ ، ٤٣٢ أ

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ٣ ص ٥٤ ب
السخاوي : الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢٢٧

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ١ ص ٢٣٤ ب ، ٢٣٥ أ

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ١ ص ٢٩٦ ب
السخاوي : الضوء اللامع جـ ٢ ص ٣١٩

ذلك الأمير جوبان الظاهرى الذى اشتغل بتعليم الرمح زمن السلطان برقوق ، وعرف أولا بالمعلم ، ثم انتهت إليه الرياسة في عصره ، حتى أضحى حكما في هذا الفن زمن السلطان شيخ والسلطان برسباى (١).

واشتهر الأمير سودون طاز ، الذى جعله السلطان برقوق معلما للرمح بانه رأس في هذا الفن لما اكتمل فيه من قوة الطعن ، وشدة مقابلة الخصم ، وسرعة الحركة ،وحسن تسريح الفرس اثناء اللعب(٢) .وتمتع يلخجا من ماش ،بلقب الرياسة لمهارته في لعب الرمح فيما هو معروف بسوق المحمل سنة بعد سنة ،قبيل خروج المحمل من القاهرة نحو ثلاثين سنة (٣) . ومن الذين انتهت اليهم الرياسة في الضرب بالسيف الأمير اينال الناصرى زمن السلطان جقمق (٤) ، كما انتهت رياسة الرمى بالنشاب الى السلطان الظاهر تمربغا قبل توليته السلطنة . وبلغ مـن مهارة تمربغا في ذلك أنه صنع لنفسه القوس والنشاب ورمى بهما رميا لم يشاركه فيه احد شرقا ولا غربا في عصره ، فضلا عن اجادته لسائر فنون الفروسية من اللعب بالرمح وتعليمه ، والبرجاس وسوق المحمل وتعبئة العساكر والضرب بالسيف والدبوس وركوب الخيل .ومع هذا ظل أغلب هؤلاء المعلمين من أمراء العشرات والطبلخاناه ، ورؤساء نوب.

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١١ أ

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٤٩ أ
السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٨٠

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٤٤٤ أ ، ب

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٩٩ أ

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ٤١

واقتصرت حياتهم على تعليم المماليك السلطانية في الطباق ، ولم يصل منهم الى امرة مائة سوى واحد ، وهو الامير اينال الساقي رأس نوبة النوب زمن السلطان فرج (١) •

ولم يؤثر عن هؤلاء الاساتذة والمعلمين والرؤساء في فنون الفروسية أنهم الفوا فيها مؤلفات معروفة حتى الان ، وانما تكثر الاشارات اليهم فيما هو مقطوع بوجوده من مؤلفات غيرهم ، حيث يشار اليهم بأنهم أصحاب مذاهب مختلفة في هذه الفنون ، واعتبارهم قدوة فيما اختصوا به من انواع الفروسية •

وانفرد ابن تغرى بردى من المؤرخين المشهورين ، بالاشارة الى أهمية تعليم الرمح ،وسوق المحمل، منذ بداية عصر المماليك ،والسر في ذلك ما عرف به هذا المؤرخ من الحذق في لعب الرمح وتدوين أخبار معلميه السابقين ، والدأب على مشاهدة رؤساء هذا الفن في عصره، وملاحظة ما طرأ عليه من تطور (٢) . اذ يذكر في حوادث شعبان سنة ٦٨١ لعب مماليك السلطان قلاون في سوق المحمل بالرماح والسلاح ، وفضل عليهم مماليك السلطان برقوق في هذا الفن ، لأنهم احدثوا فيهأشياء جديدة(٣).وأورد ابن تغرى بردى وصف احتفال السلطان شيخ بسوق المحمل سنة٨٢٣ بساحة بولاق ، حيث لعب المماليك الرماحة،

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٩٦ ب ، ٢٩٩ أ ، ٤٣١ أ ، ج ٢ ص ١٤٩ أ، ج ٣ ص ٢٥٣ ب
السخاوي : الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٢٩ ، ج ٣ ص ٢٨٠.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٣١١ ــ ٣١٢

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٤١٧

وكذلك لعب المعلمون أمام السلطان . وبلغ من ارتياحه أنه أمر باقامة حفل للعب الرمح في كل اسبوع ، فيلعب معلمان هما وصبيانهما مخاصمة رياضية . فيقف المعلم يمينا والى جانبه يقف صبيانه صفا واحدا ، ويقف تجاهه معلم آخر وصبيانه معه ، ويبلغ عدد كل فريق خمسة أفراد . فيخرج المعلم للمعلم للمباراة ، ثم يخرج نائب المعلم لنائب المعلم الذى يقابله ، ثم يخرج سائر أفراد كل من الفريقين للمباراة الفردية . ويستمر هذا اللعب من الظهر الى العصر عادة ، والناس يشهدون ويرفعون أصواتهم تشجيعا لهذا أو ذاك من المتبارين .

وأهم ميادين اللعب بالرمح وسوق المحمل في ذلك الحين هي ساحة بولاق والرميلة تحت القلعة ، أما ميدان بركة الحبش فيسوق فيه المماليك الرماحة بحضرة أساتذتهم أيام تعليمهم (١) .

وعالجت كتب الفروسية طرق تعليم الرمح ، فأشارت الى شروط الرمح الجيد ، وهى أن يكون بين الدقيق والغليظ حتى لا ينبو عن الكف ، خفيفا حتى يمكن حمله ، طوله عشرة اذرع او اقل قليلا . ومن هذه الشروط انه ينبغي على المتعلم ان يتخذ في تعليمه فرسا شديد القوائم مطواعا ساكنا لين المعاطف ، وعلى المتعلم أن يتولى بنفسه احكام سرج فرسه والاطمئنان على شد حزامه (٢) ، وأن يعلق الرمح في منتصفه في

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٠٣
(٢) كتاب علم الفروسية ص ٨٦ أ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٠ م فنون حربية)

مؤخر السرج خلف الفخذ اليمين ، بحيث يكون رأس الرمح مرتفعـا الى الأمام بالقرب من أذن الفرس اليمنى ، على أن يكون بين اسفله وبين الارض أقل من ذراع (١) .

وعند الخروج للتعليم يسير المملوك فرسه راكبا في الناورد اى الدوائر المرسومة بالميدان ، فيسير أولا في الدائرة الواسعة الخارجة قرب المتفرجين ، ثم يتدرج الى السير في الدوائر الداخلية التي تحتاج الى مران طويل . ويعالج المملوك رمحه اثناء السير فيغير من وضعه بأن يجعل رأسه بحذاء الركاب الأيمن ، ويسوّى بين رأسه واسفله فـي الارتفاع ، ويواصل التدرب على ذلك في حركات متناسبة مع سيـر الفرس وتدرجه في الجرى ، ومع مستويات التسديد والدفاع بالرمح من حيث الارتفاع والانخفاض وتغيير أوضاعه يمنة ويسرة (٢) . فاذا خرج المملوك الرماح لمطاردة فارس ، اتخذ رمحا من نوع آخر غير رمح المتعلم . واستلزم ذلك صفات كثيرة ، وهى أن يكون الرماح شديد اليقظة الى جميع ما يعمله ، فاذا رأى خصمه يكسر عليه بفرسه ، ويحبس جريه ويمد يده الى رمحه ، اسرع هو الى طعنه قبل ان يستوى هجومه (٣)،

---

(١) كتاب علم الفروسية ص ٨٩ ب (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥ م فنون حربية)

(٢) كتاب علم الفروسية ص ٩٠ أ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥ م فنون حربية)

(٣) كتاب الجهاد والفروسية ص ١٧ ب (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣ م فنون حربية)

فضلا عن ضرورة اجادته لتدريبات المطاردة ، والمصارعة والمقابلة والعناق وتبطيل طعنات الخصم . ووضع المعلمون لذلك كتبا اصبحت مراجع في تعليم الرمح ، وأشهرها كتاب البنود في معرفة الفروسية على طريقة المعلم الاستاذ نجم الدين الاحدب ، والكتاب الذي وضعه عن تدريبات المطاردة بكتوت الرماح الخازندار الظاهرى احد رجال الحلقة (١) .

وساعد تعلم الضرب بالصوالجة على اتقان الطعن بالرمح لما فيه من تمرين عضلات الجسم على سرعة الاستجابة الحركية واكتساب المهارة في الضرب سواء من اليمين أو اليسار أو الأمام أو الخلف (٢) ، وأجمع معلمو الصوالجة على أن يكون طول الصولجان سبع عشرة قبضة من قبضات المتعلم ، حتى لا يحتاج الى الانحناء في اللعب، أو اخطأ ضرب الكرة في سرعة (٣) . وعلى الضارب أن يختار ما يلائمه من الصوالجة من حيث الثقل كذلك، كما ينبغي أن تكون الكرة وسطا ولا تحشى قطنا ولا صوفا بل وبرا ، لأنه اخف وزنا وأقل ضررا في الرمي الطائش (٤) .

أما البرجاس ، وهو كذلك من مقومات الفروسية للمملوك الرماح أثناء تعليمه ، فهو هدف خشبى مكون من سبع قطع تركب بعضها فوق

(١) كتاب علم الفروسية (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤ م فنون حربية)

(٢) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٣ أ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣ م فنون حربية)

(٣) كتاب علم الفروسية ص ١١٥ ب (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥ م فنون حربية)

(٤) كتاب علم الفروسية ص ١١٩ أ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥ م فنون حربية)

بعض حتى يوازي ارتفاعه رأس الفرس • وينتهي هذا الهدف بحلقة من المعدن ، فيسوق المملوك في البرجاس سوقا خفيفا ثم سريعا، بعد أن يجمع أفخاذه على أجناب الفرس ،ويقصر عنانه ،ويرفع الرمح قليلا ، ثم يرمى به نحو الحلقة المعدنية ، فاذا أصاب سقطت عن قاعدتها الخشبية ، واذا اخطأ طاش الرمح الى أرض الميدان (١) .

وتطلب تعليم الرماية بالقوس والنشاب معرفة انواع القسى وأسماء أجزائها ، والدراية بالنشاب وأنواعه وأدواته . والقسي نوعان : احداهما العربية المصنوعة من عود واحد من الخشب بغير غراء (٢) ، والثانية الفارسية وهي التي تتركب من الخشب والقرن والعقب بواسطة الغراء (٣) . ولأجزاء القوس أسماء ، فموضع امساك الرامى يسمى المقبض ، ومجرى السهم فوق قبض الرامي يسمى كبد القوس ، وما يعطف من خشب القوس يسمى السية، وما فوق المقبض من جهة يمين الرامي يسمى الرأس ، وما هو أسفله على يساره يسمى الرجل . أما النشاب فهو ما يرمى به عن القسى الفارسية،وما يرمى عن القسى العربية فهو النبل . ومجرى السهم من الوتر يسمى الفوق ، وحديده يسمى النصل ، والريش يسمى القذذ ، والسهم قبل تركيبه يسمى القدح .

---

(١) كتاب علم الفروسية ص ٢ ب (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥ م فنون حربية)

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ١٣٤

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ١٣٥

والكنانة ويقال لها الجعبة وهي ظرف السهام، وتكون تارة من جلد وتارة من خشب (١) ، واطلق عليها زمن سلاطين المماليك اسم التركاش (٢).

ويبدأ الأستاذ في تعليم الرمى لتلاميذه من المماليك، باتخاذ قوسين لينتين ، فيطرح احداهما بين يدى المتعلم والأخرى بين يديه. فيبدأ أولا بتعليمه كيف يقبض ، وكيف يمد بالاصابع الثلاثة حتى يصح قبضه ، ويتطلب ذلك وحده أياما ومرانا . ثم يعقد الاستاذ على الوتر من غير سهم، ويشد اصابعه عليه، حتى يستقيم عقده . ويتبعه المتعلم في ذلك من غير رمى ، فيطلق الوتر فارغا أياما حتى يصح اطلاقه. ثم يأخذ الأستاذ في تعليم المملوك اطلاق السهم من القوس بغير ريش ، فلا يزال به حتى يعلمه التفويق والاحكام في الرمى وذلك بالتدرج رويدا رويدا من قوس التعليم اللينة، الى قوس أقل ليونة حتى يبلغ خمس اقواس متفاوتة فى القوة ، وتصون الخامسة هى الصالحة للعمل في الميدان . فاذا تمكن المتعلم من الرمى عليها ، أخذ فى شد القسى الشديدة ونزعهـــا جهد طاقته ، وتمرس في استخدامها ليلا ونهارا (٣) . وعلى المتعلم ان يسمى عند الابتداء ويكبر عند الإطـــلاق ، ويصلى على رسول الله بعـــد ذلك ، وعلى الاستاذ ان يشكر تلاميذه ويشجعهم ليزدادوا رغبـــة ، فيروض تلامذته ويؤلف بينهم . ويحرضهم على العمل ولا يوبخهم الا

---

(١) السخاوي : كتاب القول التام في الرمي بالسهام (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢ م فنون حربية)

(٢) طيبغا الاشرفى البكلمشى اليوناني : كتاب بغية المرام وغاية الغرام في الرمى بالنشاب ــ مخطوط بدار الكتب المصريـــة (رقم ٣ م فنون حربية) ــ ص ٢٦ ب .

(٣) طيبغا الاشرفى : كتاب بغية المرام ــ مخطوط دار الكتب (رقم ٣ م فنون حربية) ص ٢٨ ب .

خلوة ، ليجتهدوا في الطلب ويكثروا في احترام الموضـع الذى خص بالرمى ، ولا يرضى لأحد ان يتكلم فيه بفاحشة لانه مسجد .(١)

فاذا صح رمى المتعلم ، ورمى الأماج أياما على غير علامته أو هدف ـ والاماج هو رمية السهم قاب قوس واحد(٢) ـ خرج الى الصحراء ورمى في الفضاء ، على غير علامة كذلك . فاذا رأى سهامه في الهواء صحيحة مستوية غير مضطربة ، رجع الى الأستاذ ليعلمه الرمى الـى العلامة(٣) ، وذلك بأن يمرنه على الوقوف تجاه العلامة منحرفا قليلا ، ويجعل العلامة محاذيه لعينه اليسرى، وركبته اليسرى واستواؤها على أصابع رجله ، قبالة العلامة طولا ، ورجله اليمنى عرضا ، ويجعل بين الرجلين فرجة قدرها ذراع ، فيكون عقب الرجل اليسرى قبالة بياض الرجل اليمنى من داخلها . ويعتمد على رجله اليمنى ، ويخف برجله اليسرى(٤) ، فيرمى المتعلم أول يوم، خمسة أرشاق وأقل من ذلك على قدر قوته واحكام صنعته ، ثم يعمل على زيادة الرمي حتى يمهر في ذلك وتكثر صوائبه (٥) .

---

(١) طيبغا الاشرفى : كتاب بغية المرامى ص ٢٨ ب

(٢) ابن القيم : الفروسية ص ١٠٧

La Distance a laquelle un arc peut lancer
une fleche . (Dozy - Supp. Diet)

طيبغا الاشرفى : كتاب بغية المرام ص ٢٦ ب

(٣) ابن القيم : الفروسية ص ١٠٨

(٤) طيبغا الاشرفى : كتاب بغية المرام ص ٤ ب

(٥) كتاب علم الفروسية ص ١١١ ب (مخطوط بدار الكتب رقم ٥ م فنون حربية)

وعلى الرامى أن يتعرف العيوب والأفات التـــي تعرض للرماة في نظرهم وبدنهم . وعليه أن يقف على علل القسى والنشاب، ومعرفة اصلاحها ، كما ينبغي ان يكون على علم بتقويم نشابه وقوسه وعقـــد أوتاره واصلاح عيوبها ، فضلا عن معرفة احكام الرهن والرمى الحلال والسباق والمناضلة. فاذا عرف ذلك، صار راميا أو دخل في جملة الرماة(١)

أما تعليم الرمى للفرسان فعلى نوعين، وأولهما الرمى نحو الارض وهو ما يسمى بالقيغج والرمى الى اعلا ويطلق عليه القبق. ويشترط في رمى الفارس، أن يعرف التنقيل، وهو سوق الفرس قليلا قليلا، والسوق هو الجري الشديد ، والرمي اثناء الجريان والجولان ولاسيما عنـــد اشتداد جرى الفرس الى آخر الشوط بالميدان (٢). والأصل في رمى القيغج والقبق، اتقان علم ركوب الخيل وحبس رءوسها باللجم، والتدريب عليها في الكر والفر ، حتى يتعودها الفارس ، ويصير له ذلك عادة(٣). فاذا استوى الفارس على فرسه ، ومكن رجليه من الركاب ولزمـــت ركبتاه وما يليهما من الساقين جانبي الفرس ، قبض بكل كفه عـــلى مقبض القوس ، وأمسك العنان بالوسطى والبنصر حتى يفوق السهم. ثم ينهض الفارس قائما مع ميل يسير ، على القربوس الأمامى ويحنى وسطه قليلا وتصير صرته على قربوس السرج . ثم يقبض على السهم بجميع الكف ، ويجعل فوق السهم الى خلفه ونصله أمام الرامى. وبعد

(١) طيبغا الاشرفى : كتاب بغية المرام ص ٢٧ ب
(٢) طيبغا الاشرفى : كتاب بغية المرام ص ١٨ أ
(٣) طيبغا الاشرفى : كتاب بغية المرام ص ١٨ ب

قبض السهم يفوق بثلاثة أصابع فاذا فوّقه ، جعل نصله على رأس الفرس، فيما بين اذنيه، من غير ان يمسهما . وينبغي ان تتم العملية كلها في وقت واحد ، حيث يجرى سوق الفرس وتفويق السهم وجر القوس بالسهم ، وافلات العنان من أصابع اليد اليسرى جملة واحدة(١) .

ولا يختلف رمى القبق عن رمى القيغج الا في الاتجاه الى أسفل أو أعلا. وأحسن ما يكون الرمى في القبق حين يلتفت الفارس من أعلا كفل الفرس الى فوق، ويرمى بعد ان يتجاوز الخشبة قدر باع. والأحسن بالرامي ان يتبع السهم بنظره الى ان يتعدى السهم العلامة . اما رامي القيغج فيتطلب ان يلتفت الرامى الى خلفه، ويرى العلامة من انحناء عند الفخذ الايسر من الفرس، ويتبع السهم بنظره الى العلامة . ويستخدم الفارس عند رمى القيغج سهما ذا نصل رقيق ، بينما يستعمل السهم العريض النصل المعروف بالطومار لرمى القبق ، وأطول الميادين للقيغج والقبق عشرة اذرع (٢) .

واذا اجتمع الرماة لرمى القيغج والقبق ، بدأ أحدهم بالسوق والدخول في الرمى ، ولا يدخل الثانى خلف الاول الا اذا ابتعد عنه بعدا كافيا، حتى اذا ما اتفق ان سقط الأول، تمكن الثانى من عطف فرسه عنه كيلا يقع فوقه (٣) .

---

(١) طيبغا الاشرفى : كتاب بغية المرام ص ١٩ ب

(٢) طيبغا الاشرفى : كتاب بغية المرام ص ٢١ ب ، ٢٢ أ

(٣) طيبغا الاشرفى : كتاب بغية المرام ص ٢١ ب

أما أرض الميدان، فينبغي أن تكون مستوية صالحة لأن يثبت عليها حافر الفرس . فاذا كان أحد طرفى الميدان عاليا، وجب أن يكون سوق الرماة الى العلو ، كما ينبغي معرفة اتجاه الرياح ، اذ تكون في ظهر الرامى عند السوق، وتتجه الى الجانب الاخر من الميدان عرضا. وينبغى للرامى أن يحذر لطمة الفرس واصطدامها في خشبة القبق ، وعليه أن يجعل بينه وبينها من البعد مسافة معينة قدر باع، وأن يختبر الفرس قبل الرمى عليها، بترويضها على الجرى والدخول نحو الخشبة والعلامة مرات، حتى يرى الفرس ذلك ويعرفه ، وأن يسوق من غير رمى حتى يتعود الفرس الجرى ، بعد ترك اللجام على الغارب(١) .

وجرت العادة في القبق أن تجعل في الميدان ، حبل معترض مرتفع على خشبتين ، ويجعل القبق في موضع متوسط بين الخشبتين ، ويكون سوق الرماة عند الرمى من تحت الحبل. وفي بعض الأحيان ، استعاض اللاعبون عن الحبل ، برسم دائرة اتساعها عشر باعات، يكون القبق في مركزها ويرمون الى السماء لاصابة القبق . ويجوز أن ينصب الرامى حلقة معدنية على رمح مثل البرجاس ، ويرمى عليها (٢) .

ومن فنون الفروسية استعمال أنواع السيوف، اذ أن مايستخدم منها في وجه من وجوه القتال لا يستخدم في وجه آخر. والسيوف التى يستعملها المتعلم في التدريب غير السيوف التي يقاتل بها ، فضلا عن

---

(١) طيبغا الاشرفى : كتاب بغية المرام ص ٢١ ب
(٢) طيبغا الاشرفى : كتاب بغية المرام ص ٢١ ب

ضرورة معرفة أنواع السيوف التى عنـــد الاعداء . والسيوف عامة نوعان : العتق وهي الجيدة الصناعة ، والسيوف الحديثة وهي أقل جودة (١) • ويختلف النوع الاول عن الثاني في الجوهر والسقايـــة والقد • ومن السبوف العتق اليمانية والقلعية والهندية ، وهي تختلف في اللون والقد والصناعة، فاليمانية آكثرها، عرض ثلاثة اصابع ، وأقل ما يكون منها ، عرض أصبعين ونصف أصبع، ويتراوح طولها من ثلاثة أشبار الى أربعة أشبار ، ووزنها من رطلـــين ونصف رطل الى ثلاثة أرطال. واكثرها مستوية القدود، يتساوى عرض أعاليها وأسافلها (٢)، أما القلعية فليس فيها ما يكون عرضه أربعة أصابع ولا ثلاثة تامة، وطولها مـــن أربعة أشبار الى خمسة ، وقدودها مستوية ، يتساوى اعـــلاها وأسفلها في العرض ، والهندية تماثل اليمانية تقريبا (٣) .

ومن السيوف الحديثة السليمانية والسرنديبية والفارسية، فالأولى طولها أربعة أشبار وعرضها من أربعة أصابع الى ثلاثة أصابع وأوزانها من ثلاثة أرطال الى ثلاثة ونصف ، والصغار منها لطاف العرض وتشبه اليمانية والفرنجية في صناعتها(٤)، والثانية أكثر عرضها، ثلاثة أصابع، وتشبه العتق اليمانية في حديدها وقدودها . أمـــا السيوف الفارسية

---

(١) كتاب علم الفروسية ص ٩٨ ب (مخطوط رقم ٥ م)
(٢) كتاب علم الفروسية ص ٩٩ أ (مخطوط رقم ٥ م)
(٣) كتاب علم الفروسية ص ١٠٠ أ (مخطوط رقم ٥ م)
انظـــر Rey - Les Colonies Franques. p. 31
(٤) كتاب علم الفروسية ص ١٠٠ ب (مخطوط رقم ٥ م)

فأعرض مايكون منها، ثلاثة أصابع، وطولها ثلاثةأشبار أعاليها أدقّ قليلا من أسافلها . وهناك أنـواع أخرى مـن السيوف الحديثة ، وأولها الدمشقيةوطولها أربعةأشبار، وعرضها أربعةأصابع، وهي أقطعالمحدثة كلها. أما المصرية فهي طويلة مستوية غليظة الأشفار، وتمتاز الأفرنجية بعرض أسافلها، وبما في صدرها من أهلة او صليب ذهب محشو، وهي أخرط رءوسا من اليمانية (٢) .

وتعلم المبتدىء ضرب السيف على مراحل ، فيستعمل اولاً ، سيفا ذا مقبض دقيق خفيف الوزن ، ويضرب به في حائط من الطين بعد عجنه (٣) ، فينتصب المتعلم على يمين الطين ، ويمد رجله اليسرى الى قدام، واليمنى الى وراء . ثم يرفع يده حتى يصير مرفقه مسامتا لأذنه، وسيفه مقابلا فخذه ، ورأسه أعلا من قمة الحائط. ثم يمسك المبتدىء السيف بين السبابة والابهام، ويشد خنصره على بنصره، ويكون ضربه قواما مستقيما لا منحرفا . ويضرب المبتدىء في اليـوم الاول خمسة وعشرين ضربة ، وفي اليوم الثاني خمسين ، ويستمر على ذلـك حتى يستوى له الألف ضربة في يوم واحد ، ووقوف واحـد ، وذلك هو الادمان (٤). ويتبع ذلك التمرين على الضرب بالسيف في قطع اللباد

---

(١) كتاب علم الفروسية ص ١٠١ أ مخطوط رقم ٥ م)

(٢) كتاب علم الفروسية ص ١٠١ ب (مخطوط رقم ٥ م)

(٣) كتاب علم الفروسية ص ١٢٢ أ (مخطوط رقم ٤ م فنـون حربية بدار الكتب المصرية)

(٤) كتاب علم الفروسية ص ١٢٤ ب ، ١٢٥ أ (مخطوط رقم ٤ م)

فوق حائط من الطين المعجون، فيقطع المبتدىء اللباد طبقة بعد طبقة (١)، فاذا انتهى من ذلك ، انتقل الى قطع الورقة على اللباد، وذلك باستعمال سيف رقيق الحد مسلوب الوسط الى ذبابته ، مستقيم ليس عريضا ولا طويلا (٢) .

أما تعليم السيف للراكب ، وهو الفارس ، معنى ولفظا ، فتطلب مرانا مبدئيا طويلا. ينصب الفارس في الأرض أعوادا من قصب رطب، طول الواحدة منها ، في طول قامة الفارس . ثم يبتعد الفارس فيجرى فرسه ملء فروجه، فاذا حاذى الأعواد عن يمينه، سل سيفه ونفح منها ما حاذى منكبه بضربة . ويعمل ذلك مرارا حتى يقصر القصب الى مقدار ذراع من الارض ، وهذا يحتاج الى مهارة خاصة كلما قصر القصب . فاذا اكتملت هذه المهارة للفارس ، نصب عن يمين مضمار الجرى خمس نشابات، بين كل واحدة والأخرى عشرة أذرع، وأجرى الفرس ونفح النشاب أسفل الريش على مقدار واحد بسيف رقيق الشفرة . فاذا حذق ذلك نصب خمسة اخرى عن يمينه ، وخمسة عن يساره، ثم أجرى فرسه وسط العشرة، ونفح النشاب يمنة ويسرة حتى يقطعها كلها . وبعد ذلك يتعلم الفارس ضرب السيف أماما وهو اللبب ، وخلفا وفي كل جانب (١) .

---

(١) كتاب علم الفروسية ص ١٠٦ أ (مخطوط رقم ٤ م)
(٢) كتاب علم الفروسية ص ١٢٧ ! (مخطوط رقم ٤ م)
(٣) كتاب علم الفروسية ص ١٠٤ أ (مخطوط رقم ٥ م)

وطريقة حمل السيف، أن يشد الفارس سيفه الى وسطه في منطقته بسير وثيق ، حتى لا يعلق الغمد ويضطرب ، عند المناوشة والركوب والنزول . ويكون سيف الفارس قصيرا ليأمن التلف والانقلاب ، على عكس سيف الراجل الذى يكون طويلا معلقا تحت الابط (١) .

ومما تتطلبه الحذق بضرب السيف أن يواصل الفارس الضرب بالصوالجة ليصبح ماهرا في الجرى السريع في الحروب ، وأن يكون عارفا باهمية تطريف قدميه في ركاب الفرس حتى لا يظهر شيء من حديد الركاب ، فاذا ضرب استطاع أن يجعل ضربه نفحا وشزرا ، وأن يعمل على وقاية نفسه ودابته ورأسه (٢) .

على أن أساس فن الفروسية في كل زمان ومكان هو ركوب الخيل والتفرس عليها . ولما كان اقتناء الخيل وتربيتها والانفاق عليها أمرا غير ميسور لأفراد المماليك، عنى السلاطين والأمراء باعداد الاصطبلات السلطانية والاميرية الحافلة بأنواع الخيول. وأهمها هنا اصطبل الجوق الذى خصصه السلاطين لخيول الخرج للمماليك الكتابية (٣) ، اذ جرت عادة السلاطين عند انتهاء الكتابية من تعليمهم الديني والحربي ان يعتقوهم ، وأن ينعموا عليهم بالخيل والقماش .

ويعتبر أصيل الفروسية، الثبات على الفرس العرى، وهو الفرس

---

(١) كتاب علم الفروسية ص ٢٨ ب (مخطوط رقم ٥ م)
(٢) كتاب علم الفروسية ص ١٠٣ أ (مخطوط رقم ٥ م)
(٣) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥

المجرد من السرج. فان من لم يتفرس على جرائد الخيل لم يصح ركوبه ولا ثباته ، ولا يؤمن عليه من السقوط، ان اضطرب فرسه أو أصابته هنة . ويبدأ الفارس بتعلم الركوب بالجل أولا ، فيلجم فرسه ويشد عليه الجل من الصوف أو الشعر ، ثم يقف على يسار الفرس عند منكبه ويضع ابهام يده اليسرى في مقدم الجل من فوق ، ويجعل راحته على منكبه ، ثم يثب ويضرب بيده اليمنى عند الوثب على عنق الفرس من الجانب الأيمن . فاذا أحسن الفارس ركوب الفرس على هذا النحو استغنى عن الجل ، وركب على العرى بغير سرج . وعليه حينئذ أن يجمع يديه في العنان ، وينصب ظهره ، ويلزم بفخذيه موضع دفتى السرج ، ويتقدم في ظهر الفرس قليلا ، ثم يمد ركبتيه وساقيه وقدميه الى كنفى الفرس، ولا يكون اعتماده على اللزوم بفخذيه (١). ثم يبدأ الفارس في تسيير الفرس على مهل وهو المعروف بتسيير العنق، ويستمر على ذلك أياما ، فيتبع ذلك بالجرى المتوسط وهو المعروف بالخبب اللين ، ولا يزال يزيد في خببه حتى يتدرج من سرعة التقريب الى سرعة ملء الفروج وهى اقصى ما يبلغ الفارس في جريانه (٢) .

فاذا أحكم الفارس الركوب على العرى ، عاد بعد ذلك الى الركوب بالسرج، وعليه أن يعرف عدة الفرس وأدواتها ، فيتخذ لجاما نازكيا لوثاقته وسهولة استعماله ، لأنه قطعة واحدة . وعليه ان يتخذ

---

(١) كتاب الجهاد والفروسية ص ٢ أ (مخطوط رقم ٣ م)
(٢) كتاب الجهاد والفروسية ص ٢ أ (مخطوط رقم ٣ م)

حكمة في رأس فرسه يعلفه منها الشعير ، ويسقيه الماء في سهولة اثناء السفر، ويستخدم مقودا يستعيض به عن الرسن وهو المرشحة، وذلك من باب الاحتياط (١) .

أما السرج فينبغي ان يكون وثيق الخشب، واسع المجلس، واطىء القربوس والمؤخرة . وعليه أن يتخذ حزاما وثيقا ، ليس خفيفا ولا ثقيلا، ويستوثق من سيرى الركاب والأبازيم ، ويجعلها أقرب الـى الطول منهما الى القصر ، لأن الركاب القصير ربما تسبب في قلع الفارس عند وثوب الفرس او حبسه عن الجرى فجأة (٢) .

واكتمل تعليم الفارس في الركوب في دوائر الناورد(٣) ، بحيث يستطيع أن يلوى فرسه ويفتله يمنة أو يسرة في سرعة وسهولة، وليس أنفع للفارس العامل بالرمح والسيف من اللين وسرعة العطف (٤) .

وحفلت كتب الفروسية بالارشادات الموجهة للفرسان بشأن الكر والفر والمطاردة والمبارزة والتخلص من المآزق ، والتغلب على الخصم من نواح متعددة وتجريده من سلاحه (٥) .

وفي أثناء المراحل المختلفة لتعليم المماليك في الطباق، أشرف على هذه المراحل كلها جمـاعة الطواشية ، لأنهـم المسئولون عن سلوك

---

(١) كتاب الجهاد والفروسية ص ٣ أ ، ٤١ ب (مخطوط رقم ٣ م)
(٢) كتاب الجهاد والفروسية ص ٣ ب ، ٤١ ب (مخطوط رقم ٣م)
(٣) انظر ما سبق ص ١٠٢
(٤) كتاب علم الفروسية ص ٤٢ ب (مخطوط رقم ٥ م)
(٥) انظر ما يلي

المماليك وتربيتهم، ومراقبة عدم اختلاط الكبار بالصغار منهم. وتكونت هذه الجماعة على شكل هرمي ، قاعدته طواشية الطباق ، وقمتها مقدم المماليك ونائبه ، وبين القاعدة والقمة طوائف ودرجات من أولئك الطواشية . فمنهم مقدمو الطباق ، وهم يلون مقدم المماليك ونائبه في الترتيب الهرمى، ثم طواشيه المماليك الكتابية، المكلفون بالسهر على شئون صغار المماليك، ثم السواقون المكلفون بحفظ النظام، والبوابون برسم الأبواب . وبلغت عدة أولئك الطواشية في وقت من الاوقات ستمائة طواش من جميع المراتب والدرجات. وتولى مقدم المماليك شئون الادارة كلها من تنظيم وضبط، وفصل في الخصومات. فاذا ركب السلطان ومعه المماليك السلطانية ، ركب مقدم المماليك خلفهم كأنه يحفظهم. ويشرف مقدم المماليك على مقدمي الطباق عند توزيع صدقات وانعامات السلطان عليهم ، ويراقب ترتيب الطباق . وعليه أن يرقب احوال السواقين ويتعرف أخبارهم ، ويرتب مقدمى الطباق ودرجاتهم حسب مكانتهم في الوظائف السلطانية، ويفرق الكساوى في المماليك، ويجمل النظر في أمر الصغار منهم والكبار ، ويأمرهم بالركوب في الأيام المعتادة، والدخول الى مكان الخدمة. ويعين مواقفهم في اوقات البيكار والحرب ، وفي الأسفار حول الدهليز السلطاني ، ولا يستخدم منهم الا من هو معروف بالخير ، ويقيم عليه الضمان (٢) .

---

(١) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٢٢

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١١ ص ١٧٣

ومن المعروف أنه لم يكن يلى تقدمة المماليك الا الطواشى الذى يبدأ بعض الأحيان خادما صغيرا في البيوت السلطانية، ثم مربيا (لا لا) لأبناء السلطان أو زماما او جمدارا في الحريم السلطانى . ثم ينتقل بعد ذلك في الوظائف الطباقية المختلفة حتى يصل وظيفة مقدم المماليك(١) . وغالبية هؤلاء الطواشية من الأحباش والروم، جلبوا الى مصر مع المماليك (٢) . وعرف الطواشية في الدولة المملوكية الاولى بالحزم والشدة وأعمال البر والصدقة فضلا عما اشتهروا به من التقوى والميل الى سماع الحديث (٣) . فالطواشي شرف الدين قميص مقدم المماليك زمن السلطان بيبرس وأولاده كان مهيبا سلطا صارما على المماليك السلطانية مبسوط اليد فيهم (٤) . واشتهر فاخر بن عبدالله مقدم المماليك السلطانية في عهد السلطان قلاون بانه ذو حرمة ومهابة

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠ — ١٥١
المنهل الصافى ج ص ٥٠٣ أ ، ٥٢٢ ب ، ٥٦٠ ب ، ج ٣ ص ٤٦ ب ، ٧٦ ب .
السخاوي : الضوء اللامع ج ٦ ص ١٧٦ ، ٢٢٦

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٠٤ ب ، ٣٣٣ أ ، ٣٥٨ أ ، ج ٢ ص ١٢ أ ، ب ، ١٣ ، ٥٦ ب ، ٣٥٢ ب
السخاوي : الضوء اللامع ج ٤ ص ٣٤٠
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٤

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٠٤ ب ، ج ٢ ص ١٢ أ ، ب ، ١٣ ب .

(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٠٥

وسطوة وكلمة نافذة ، لا يجرأ الواحد من المماليك ان يمر امامه بغير دستور (١) .

على أن السلاطين لم يغفلوا مراقبة مقدمى المماليك وغيرهم من الطواشية ، وعاقبوا المقصرين منهم في واجباتهم ، فأمر السلطان بيبرس سنة ٦٦٣ بقطع أيدي جماعة منهم بسبب اهمالهم في مراقبة المماليك ، واشتراكهم مع نواب الولاة والخفراء في التغاضي عما ارتكبه بعض المماليك من المفاسد في ارباع القاهرة (٢) ، وأمر بيبرس بشنق الطواشي شجاع الدين عنبر بسبب شرب الخمر (٣) ، وفي سنة ٧٢١ ثار المماليك على كريم الدين الكبير ناظر الخاص لتأخر جوامكهم شهرين ، فغضب السلطان الناصر محمد بن قلاون علي مقدم المماليك ونائبه ومقدمى الطباق ، وطرد جماعة منهم وقطع جوامكم وأنزلهم من القلعة (٤) .

وظلت وظيفة مقدم المماليك في أيدى الطواشية . ولم تخرج عن هذه القاعدة طوال عصر المماليك حتى تولاها أمير من أمراء المماليك وظل يشغلها مدة طويلة (٧٣٢ — ٧٤١) ، وهو الأستادار آقبغا عبد الواحد ، اذ عينه السلطان الناصر محمد بن قلاون في تقدمة

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٢٢
المنهل الصافي ج ٢ ص ٥٠٣ أ

(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٤٠

(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٢٣

(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٢٢٩

المماليك السلطانية مضافا على الاستادارية سنة ٧٣٢ ، لانـه وجد ان بعض المماليك نزل من القلعة الى القاهرة ، فضرب كثيرا من طواشية الطباق وطرد جماعةمنهم ،وأنكر على الطواشى شجاع الدين عنبر السحرتى تهاونه في وظيفة تقدمة المماليك . وقام آقبغا على ضبط الطباق ، فضرب عدة من المماليك والطواشية ضربا مبرحا ، وبالغ في اهانتهم فلم يجسر أحد منهم ان يتجاوز طبقته (١) .

غير ان الطواشية لم يظلوا على سيرتهم التي اشتهروا بها من الصرامة في تربية المماليك بالطباق ، ومن الورع والتقوى في حياتهم الخاصة ، بل تطرق اليهم الفساد في العصر الثانى للدولة المملوكية ، ولم يكترث بتأدية واجباته منهم الا القليل . وسلك المماليك الجلبان مسلك مقدميهم ، فلم يعودوا يحفلون بما للسلطان من هيبة ، وهاجموا دكاكين التجار ، وحصل للناس منهم غاية الضرر (٢) . ومن الطواشية القليلين المهتمين بتربية المماليك في ذلك العصر الثانى،بهادر بن عبدالله الشهابى المتوفى سنة ٨٠٢ ، الذى ولي وظيفة التقدمة زمن السلطان

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٧٧ ، ٤٠٢ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص٩٨ ، ١٠٩
المنهل الصافي ج ١ ص ٢٠٣ أ
انظر ص ١٨٩ ، ٢١٦ ، ٢٥٤ ، في
Zettersteen : Beitrage

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٦٢
العيني : عقد الجمان مجلد ٧٠ ص ٧٢٧
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٣٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ .

برقوق (١) ، وباشر مرجان بن عبدالله العادلي تقدمة المماليك السلطانية زمن جقمق بحرمة زائدة (٢) .وظل جوهر بن عبدالله المنجكي مقدم طبقة سنين طويلة بسبب ما اشتهر به من الاستقامة وعمل الخير فولاه جقمق وظيفة نائب مقدم المماليك السلطانية (٣) وللمؤرخ ابن تغري بردى مقابلة بين تقوى الطواشي صندل المنجكي صاحب طبقة الصندلية في عهد برقوق وبين طواشية زمانة الذين عرفوا « بالحرفشة وقلة الحرمة والحرص على جمع الاموال (٤) » .

اما نظام الانفاق على المملوك الكتابي اثناء مراحل تعليمه المختلفة بالطباق ، فقاعدته ان المملوك الصغير لا يحصل على راتب او اجر ، ولا يملك سلاحا ولا حصانا ، ولا يحصل على اقطاع الا عند عتقه . ومع هذا حدث في بعض الاحوال الاستثنائية مثل الخروج على السلطان أو اندلاع الوباء ، ان افاد المماليك الكتابية من الرواتب والاقطاعات قبل الاوان . ففي سنة ٧٩١ تزعزع مركز السلطان برقوق بسبب خروج كثير من الامراء على طاعته ومحاربتهم لـه في الشام ومصر ، فعرض السلطان جميع المماليك الصغار والكبار بالقلعة ليتوجهوا الى دمشق صحبة الامير سودوون الطرنطاوي ، فانفق في المماليك الكتابية لكل

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ١٩
ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٥٨ أ

(٢) السخاوي : الضو اللامع ج ١٠ ص ١٥٣
ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٣٥٤ ب

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٣ ب

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ص ٢١٧ أ

واحد مايتا درهم فضة ، وانفق في المعتقين من اولئك المماليك لكـل واحد الف درهم فضة (١) . وفي سنة ٨٦٥ تولى السلطنة احمد بن السلطان اينال ، فعمل على استرضاء المماليك السلطانية ، وانفق فيهم نفقة البيعة ، فنال الواحد من المعتقين ما بين ثلاثين ومائة دينـار ، على حين اخذ الواحد من الكتابية عشرة دنانير (٢) .وفيسنة٨٦٣ هلك عدد كبير من المماليك في الوباء ، فامر السلطان خشقدم بتـوزيع اجود الاقطاعات على مماليكه الاجلاب ، حتى أخذ الكتـابية الاقاطيع قبل العتاقة والخيل والقماش (٣) . وفي سنة ٩١٩ امر السلطان قـانصوه الغوري بتفريق الاموال على المماليك جميعا اشباعا لمطامعهم في النفقة المتكررة ، فاصاب المملوك المعتق مائة دينار ، والمملوك الكتابي تسعة دنانير ، واخذ المرضى والعجزة والايتام من المماليك مقادير تراوحت بين عشرين دينار وعشرة دنانير وديناين(٤) .وفي سنة٩٢٠ حصل الكتابية على جامكية ، وهو غير ما جرى به العرف ، وسبب ذلك غضب السلطان الغوري على الجلبان المعتقين وتهديده بترقية الكتابية على اكتافهم(٥).

واما حال المملوك الكتابي بعد عتقه فقاعدته ان يخرج السلطان

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ٢ ص ٣٢١ أ
النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٤٠٢
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٦٧
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٦٥٠
(٣) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٣٣٥
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور (كاله) جـ ٤ ص ٣٩٣
(٥) ابن اياس : بدائع الزهور (كاله) جـ ٤ ص ٤٣٠

له خيلا وقماشا ، وبدأ يصبح من المماليك السلطانية (١) . ويحصل من السلاح ما يلزمه من جميع انـواع الاسلحة من السيـوف والقسى والنشاب والرماح والدروع والقرقلات والاطبار وغيرها(٢) ،اماالخيل فتأتي من اصطبل الجوق الذي يختص بخيول الخرج (٣) . وعنـد العرض يحصل هذا المملوك على اجازة بانتهاء تعليمه يطلق عليها عتاقة(٤) لانها تشير الى عتقه والى انه غدا جنديا مدربا ، ويطلق على هذا العرض الذي يعتق فيه الكتابية بعد الفراغ من مراحل تعليمهم المختلفة «خرج» اي التخرج (٥) . غير انه لا يوجد بالمراجع المعروفة ما يوضح تماما مدة مراحل التعليم للمملوك الكتابي ما عدا ما ذكره ابـن تغري بردى في عتق ططر زمن السلطان برقوق بان « عادة برقوق جرت بانـه لم يخرج لمماليكه الجلبان خيلا الا بعد اقامتهم في الاطباق مدة سنتين

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٠٩ ، ٥٢٥ ، ٥٥٦ ، ج ٧ ص ٣٥ ، ٤٢٢ ، ٤٩٢ .
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٣ ، ١٩ ، ج ٤ (كاله)ص ٤٥ ، ج ٥ ص ٣٧٨
السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ١٧٥

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١١
ابن اياس : بدائع الزهور (كاله) ج ٤ ص ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٣٢٢ ، ٤٠٦ ، ج ٥ ص ١٢ .

(٣) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥

(٤) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٢٤٠ ، ٣٣٥
النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥١٠
المنهل الصافي ج ٣ ص ٤٢٠ ؛

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٠٩

وانه لا يخرج في سنة واحدة خرجين ، وانما يخرج في كل مدة طويلة خرجا من مماليكه ، ثم يتبعه بعد ذلك بمدة طويلة بخرج آخر ، وهذه كانت عادة ملوك السلف (١) » . ومع هذا يبدو ان ما جرى في عهد برقوق لم يكن قاعدة مستقرة ولا سيما في العصر المملوكي الثاني ، اذ جرى الخرج الاول في عضر قايتبان مثلا في شهر المحرم سنة ٨٧٤ بعد عام وخمسة شهور من توليته السلطنة (٢) . وفي عصر طومان باي الأول حدث اول خرج في رمضان سنة ٩٠٦ بعد شهرين من المناداة به سلطانا (٣) ، على حين يفيد ابن اياس ان السلطان الغوري لم يتبع قاعدة واحدة في مدة تخريج المماليك منذ توليته السلطنة في شوال سنة ٩٠٦ ، اذ تراوحت مدة التخرج في عهده بين سنة واحدة واثنتين على معدل خرج كل ١٤ او ١٥ شهرا (٤) . ومن ذلك يتضح ان سلاطين الدولة المملوكية الثانية لم يحفلوا بمدة تعليم مماليكهم بل اهتموا بتخريجهم افواجا بعضها تلو بعض في سرعة غير محمودة ، وكان هذا عاملا من عوامل ضعف الدولة .

وجرت العادة بان يعتق المماليك جماعات (٥) ، ولم يحدث ان

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٠٩

(٢) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٧٣٥
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١١

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور (كاله) ج ٤ ص ٧

(٤) ابن اياس بدائع الزهور (كاله) ج ٤ ص ٩٥ ، ١٧٣ ، ٢٥٤، ٣٢٢ ، ج ٥ ص ١٢ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٠٩ ، ٥٥٥
المنهل الصافي ج ١ ص ٣٠٧ أ

مملوكا كتابيا اعتق بمفرده ما عدا جقمق الذي تولى السلطنة فيما بعد .
وذلك لظروف استثنائية ، اذ ان اخاه جاركس القاسمي المصارع من اعيان خاصكية السلطان برقوق سعى عند السلطان فاشتراه من احد الامراء ، وجعله من المماليك الكتابية بطبقة الزمام . ولم يظل جقمق في هذه الطبقة مدة طويلة ، بل أعتقه برقوق بمفرده بفضل ما لاخيه من مكانة عنده ، فصار من المماليك السلطانية ، وبذا نالته السعادة وارتقى في الوظائف في سرعة (١) .

وحرص السلاطين على الا يعتقوا مماليكهم قبل سن البلوغ (٢) ، فيظل المملوك الذي يدخل الطباق في سن مبكرة عـــدة سنوات حتى يعتق (٣) . ويعلق المملوك اهمية كبرى على عتقه وفقا لقواعد الشريعة، فاذا تبين ان مملوكا من المماليك لم يجر عتقه على هذا النحو ، فيعتبـــر باقيا في رق من اشتراه وملكه ، او في رق ورثته ، ولو بلغ في هـــذه الحالة رتبة امير مائة . ومن هذا القبيل ايتمش الاسندمري امير مائة ورأس نوبة النوب زمن السلطان برقوق سنة ٧٨٥ ، اذ تبين انه ما زال في رق ورثة الامير جرجي نائب حلب ، فاشتراه برقوق من جديد ،بمائة الف درهم واعتقه في الحال ، وجعلهاتابك العساكر (٤) . ومن الحالات

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٤ ــ ٣٥
(٢) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ٦٥٧ ، ٦٥٨
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٠٩ ، ٥٩٠
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٧٦ ، ج ٦ ص ١٤٣
المنهل الصافي ج ١ ص ٢٧٩ ب
العيني : عقد الجمان مجلد ٦٥ ص ٢٨٩

النادرة ما فعله السلطان بيبرس مع بعض الامراء الذين تآمروا عليه سنة ٦٦٩ فأمر بالقبض عليهم ، وانكر عتقهم امعانا في الانتقام منهم والزمهم بأن يبيعوا انفسهم اليه ،فاشتراهم من ورثة مواليهم السابقين(١).

يتبقى بعد ذلك كله ان فريقا من المماليك الاجلاب لم ينزلوا الطباق السلطانية ، بل امتازوا عن غيرهم بما نالوه من تربية مع ابناء السلاطين لصفات خاصة ، وكان ذلك ضمينا في سرعة ترقية اولئك المماليك المتازين في سلك الوظائف والرتب . ومن هؤلاء الامير قوصون الذي تربى مع اولاد السلطان الناصر محمد بن قلاون ونال ما لم ينله احد عنده حتى زوجه الناصر ابنته وتزوج هو اخته ، وسرعان ما منحه امرة مائة وتقدمة الف (٢) ، وكل ذلك لانه جميل الطلعة .وكثيرا ما زها وتكبر لانه لم ينزل كغيره من المماليك في الطباق(٣). وجلب يلخجا بن عبدالله من ماميش الى مصر مع ابويه فاشتراهم السلطان برقوق ، وارسل اباه الى الطباق وابقى عنده يلخجا ليتربى مع ابنه عبد العزيز ، لجمال خلقته ، وما زال يلخجا يترقى في الوظائف في عهد السلطان فرج بن برقوق حتى انتهت اليه رياسة المماليك

---

(١) بيبرس الداوادار زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ١٢٩
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥١٣
ابن ابي الفضائل : النهج السديد ص ٥٤٤
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٥ ص ٦٢٥ .

(٢) المقريزي : الخطط ج ٤ ص ١٠٤

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٥٧

الناصرية (١) • ومن المماليك الذين لم ينزلوا الطباق ، بل تربوا مع ابناء السلاطين ، ارغون الداوادار ، من مماليك الناصر محمد بن قلاون(٢) ،وبزلار بن عبدالله العمري نائب دمشق الذي رباه الملك الناصر حسن مع اولاده (٣) ، وكوندك الساقي الذي ربي مع الملك السعيد بن بيبرس في المكتب (٤) ، وبيبرس بن عبدالله المنصوري الداوادار ، صاحب التاريخ المعروف بزيدة الفكرة ، الذي اشتراه المنصور قلاون ورباه مع اولاده (٥) ، وبيبرس الظاهري برقوق وسودون الظاهري برقوق (٦) ، وجانبك الاشرفي برسباى (٧) .

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٤٤٤ ب
السخاوي : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٩١ .
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ١٨٦ أ
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٥١
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٣٨ ب
النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥١٠.
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٤٤ ، ٨٢١ ، ٨٦٠.
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٧١ أ
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٠ ص ٤٧٣
(٦) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٤٩ أ
(٧) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٤٩ أ

الفصل الرابع

الفارس والدولة

اهمية الرق في تربية المملوك – المماليك السلطانية ، تأمير المملوك ، تدرج الامير في الوظائف والرتب العسكرية ، العوامل التي تتحكم في الترقية – الخاصكية – العصبية والجنسية ، القرابة – الزمالة والخشداشية – الفروسية ، طبقات الرتب والوظائف.

الواضح الان ان طبقة ممتازة نشأت في مصر من طوائف المماليك على اختلاف عناصرهم ، سواء بلغ الواحد منهم مرتبة الامرة ام لم يبلغ ، لان لفظ مملوك ساوى ورادف فعلا لفظ سيد في المجتمع . وتعين على الفرد من المماليك ان يكون في الاصل رقيقا وان تتحقق فيه شروط خاصة ، منها انه لا يكون قبل جلبه الى مصر مسلما او من اصل اسلامي ، اذ ان الرق لا يجري على المسلم ، كما ينبغي ان يكون المملوك مولودا خارج الدولة المملوكية ببلاد القفجاق تفضيلا في العصر المملوكي الاول ، أو ببلاد القوقاز والجركس وما حولها من الجهات في العصر المملوكي الثاني ، وان يكون جلبه في سن مبكرة.• وعلى الرغم من ان هذه الشروط لم يعتد بها في كثير من الحالات ، فانها ظلت موضع

تقدير ، بدليل ان أبناء المماليك الذين ولدوا في مصر وغيرها من بلاد الدولة المملوكية لم يعتبروا من الطبقة الممتازة ، وبدليل احوال الوافدية والاويراتية والمستأمنين في العصر المملوكي الاول ،واحوال الهجرات التي جاءت الى مصر في العصر المملوكي الثاني ، ومن المعرف ان هؤلاء واولئك ، صاروا في اجناد الحلقة اقل شأنا من المماليك السلطانيةالذين اتخذوا وسائل كثيرة للمحافظة على طبقتهم وامتيازاتهم (١) ،

على ان الرق فحسب لم يكن كفيلا بنجاح المملوك ، فمثلا اذا اشترى احد العوام مملوكا من المماليك ، فلا يواتيه حظ المملوك الذي يشتريه السلطان او الامير . (٢) والمعروف كذلك ان مملوك الامير يقل في المرتبة والمكانة عن مملوك السلطان ، وان من العقوبات الصارمة التي يفرضها السلطان على احد المماليك السلطانية ان ينقله الى خدمة الامراء ، واتبع سلاطين المماليك هذه الخطة معظم الاحيان لابعاد مماليك السلاطين السابقين لهم ، فوزعوا غير المرغوب فيهم على الامراء حتى يخلوا الجو للسلطان ومماليكه السلطانية (٣) ،

ومن المعروف كذلك ان مماليك الامراء يتحولون عادة الى خدمة السلاطين ، اما نتيجة لمصادرة اساتذتهم ، او تولية احد هؤلاء الاساتذة

---

(١) انظر ما سبق ص ٥٢ ــ ٥٨
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٣١٣
(٣) العيني : عقد الجمان مجلد ٦٦ ص ٣٤٨ ، ٣٥٢
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٤٩ ، ٢٧٧

السلطنة ٠ ومن الامثلة على ذلك ان السلطان الظاهر بيبرس اصله من مماليك الامير ايدكين البندقدار الصالحى ، وانتقل مع غيره الى خدمة السلطان الصالح ايوب بعد مصادرة ايدكين (١)٠ وعندما امر السلطان خليل بن قلاون بالقبض على الامير حسام الدين طرنطاى سنة ٦٨٩ صار جميع مماليكه وعدتهم اربعمائة وثمانون مملوكا في بيتـه مـن المماليك السلطانية، وتأمر منهم جماعة عرفوا بالحسامية (٢) ٠ ولما خرج الامير جاركس القاسمي المصارع على السلطان فرج ، استولى علـى مماليكه وموجوده (٣) ٠ ثم انه اذا مات احـــد الامراء ولم يكن له وريث ، صار مماليكه وسائر موجوده الى السلطان .فالسلطان قلاون نفسه اصله من مماليك الامير علاء الدين اقسنقر الساقي العادلي ،فلما مات الامير اقسنقر سنة ٦٧٤ صار قلاون الى السلطان الصالح ايوب في عدة من المماليك ، فعرفوا بالعلائية (٤) . واذا عزل احد الامراء من وظيفته ، يعرض الامير المعزول ما عنده من المماليك للبيع ، فيشتـري منهم السلطان ما يحتاجه منهم ، ومثال ذلك الامير سنقر الاعسر الذى اشتراه السلطان قلاون مع جماعة من المماليك عرضهم عليه الامير ايدمر

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٣٧
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٩٦
(٢) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٧ ص ٨
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ص ٤٠٤ ب
(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٦٢
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٣٢٦
بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٤١ — ١٤٢

الظاهري بعد عزله من النيابة بالشام . (١) ويطلق على هذه الفئة من المماليك السلطانية التى تألفت اصلا من مماليك الامراء ، المماليك السيفية (٢) ، وهم اقل مكانة من المماليك السلطانية الذين اشتراهم السلطان ارقاء من خارج الدولة المملوكية ، ونزلوا بالطباق بالقلعة . وربما شمل السلطان من السلاطين اولئك السيفية بعطف خاص لسبب طارىء ، ومثال ذلك السلطان المؤيد شيخ الذي اشتهر بالشجاعة والاقدام والخبرة بالحروب والوقائع ، فشمل المماليك السيفية بالاعجاب لما امتازوا به من الخبرة الحربية ولكثرة التجارب التي مرت بهم على مر السنين (٣) .

على ان المماليك السلطانية الذين تلقوا تعليمهم وتدريبهم بالطباق انما يخرجون جنودا فحسب ، فالعتاقة التى يحصلون عليها عند الانتهاء من هذا التدريب ، ليست الا شهادة تمنح للملوك ، وتشير الى انه اصبح حرا وانه اتم تعليمه . ويتضح من تراجم الامراء والسلاطين التى وردت في المصادر الملوكية ، انهم تساووا جميعا في المرحلة الاولى من حياتهم من حيث جلبهم ارقاء ودخولهم في ملكية احد السلاطين ، ثم نزولهم بالطباق، وتعليمهم الحربي به ، ثم نيلهم العتاقة وحصولهم على الخيل والقماش، وبلوغهم بذلك مرتبة الجندية . ثم تبدأ مرحلة جديدة في حياتهم

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٣٧ أ
(٢) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٥
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٣٠
المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٠٦ أ

بالتدرج في الوظائف ، وانتقال المملوك من رتبة الى اخرى حتى يبلغ المحظوظ منهم كرسى السلطنة .

وحرص السلاطين الاوائل على مراعاة هذه القواعد ، فنزع السلطان الظاهر بيبرس من يد المتعممين بعض الوظائف كالحجوبية والداوادارية ، ورتب جماعة من الامراء والجند في وظائف الخازندارية والأمير أخورية والسراخورية والجمدارية ،وامرة سلاح ،وامرةمجلس، وامرة شكار فضلا عن الحجوبية والداوادارية (١) • واشتهر السلطان قلاون بحرصه على تنقل المملوك في اطوار الخدم حتى يتدرب ويتمرن، وبتدرجه من ثلاثة دنانير في الشهر الى عشرة دنانير ، ثم نقله من الجامكية الى الوظيفة ثم الى امرة عشرة وامرة طبلخاناه • فاذا واتاه الحظ بلغ امرة مائة وتقدمة الف (٢) . وبلغ بعض امراء قلاون مرتبة نيابة السلطنة في الديار المصرية والممالك الشامية ، ومنهم من استقل بالسلطنة فعلا • وغدا جماعة منهم من اعيان الامراء في دولة الناصر محمد بن قلاون (٣) • واحتج الأمير بكتمر الساقي على السلطان الناصر حين قرب اليه احد المماليك وهو بهادر بن عبدالله ، فاعطاه امرة

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ١٨٣ — ١٨٤

(٢) المقريزي : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٨

السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ، ص ٣١٤ — ٣١٥

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ٧ ص ١٨

العيني : عقد الجمان مجلد ٥٦ ص ٧٢٤

القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٥٥

(٣) ابن الفرات : تأريخ الدول والملوك جـ ٨ ص ١٧

مائة وتقدمة الف وزوجه احدى بناته ، وجعله احد الاربعة المقربين الذين يبيتون عند السلطان ليلة بعد ليلة ، وهم الامراء قوصون ويشبك وطغاي وبهادر ، متخطيا بذلك عادة السلف في بقاء المملوك في الخدمة مدة من الزمن ، ينتقل بعدها لامرة عشرة ثم لامرة اربعين حتى يبلغ امرة مائة (١) .

ويختار السلطان من هؤلاء المماليك بعد تخرجهم من الطباق عددا يلحقهم بخدمته ويختص بهم لصفات فيهم ، ومنها جمال الخلقة وطول القامة ، ويطلق على هؤلاء الخاصكية ، فيتدرجون قبل تأميرهم في وظائف الجمدارية والسلحدارية والجمقدارية والدارادارية والاوجاقية والخازندارية ، ويسيرون في سلم الترقية أسرع من سائر المماليك السلطانية (٢) .

على ان المماليك السلطانية جملة عاشوا اعظم الاجناد شأنا وارفعهم قدرا وأشدهم الى السلطان قربا ، واوفرهم اقطاعا ، ومنهم تجعل الامرة رتبة بعد رتبة (٣) .

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٥٦ ب
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣١٤ ـ ٣١٥
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٢٧٨ ، ٣٠٠
المنهل الصافي ج ١ ص ٢٩٧ أ ، ٢٩٩ أ ، ٣٠٧ أ ، ٤٥٦ أ ، ج ٢ ص٥٧ب ، ٩٢ب ، ١٦٤ب ، ١٧٤ ب
الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٦
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٨٧ ، ١٨٧ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٣١٥ ، ج ٣ ص ٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ، ٣٦ ، ٧١ ، ١٧٥ ، ٢٣٧ ، ج ٤ (كاله) ص ٧ ، ٨ ، ١٢
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٥

وظلت قواعد تربية المماليك التي وضعها سلاطين الدولة المملوكية الاولى مرعية سائدة حتى اوائل العصر المملوكي الثانى ، غير انه اصابها من التغيير والتبديل ما جعل المؤرخين يطلقون على اولئك السلاطين الاوائل ملوك السلف . واذا اطروا عملا قام به سلطان من سلاطين العصر السلوكى الثانى ، فان اطراءهم يكون بسبب مطابقة هذا العمل للقواعد القديمة . فالسلطان برقوق مثلا جعل تخريج مماليكه على اوقات متباعدة متبعا في ذلك عادة ملوك السلف ، وحينما انصف السلطان شيخ شكوى بعض الامراء من قلة متحصل اقطاعه ، اعتبر المؤرخ ابن تغرى بردى ذلك من جودة تدبير السلطان وسيره على القاعدة القديمة في مراعاة العدالة (١) . وسار شيخ على نهج السلاطين السابقين كذلك في تقرير الجوامك للمماليك السلطانية ، فلم يقرب منهم احدا ، ولم ينعم عليه باقطاع ، وانما قصر ذلك على مستحقيه ممن باشر الوقائع وخدم الملوك وعرف بفن من فنون الفروسية او لمعنى من المعانى (٢) .

وجرى التقليد منذ قيام الدولة المملوكية الاولى على انه اذا تأمر احد من المماليك ، نزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش ، واوقدت له شوارع القاهرة ، فيسير الى المدرسة الصالحية بين القصرين ، ويحلف عند قبر الصالح بالقبة بجوار هذه المدرسة ، ويحضر تحليفه حاجب الحجاب (٣) ، وتبدأ اليمين التي يحلفها الامير باقرار

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٦ ، ٥٠٩

(٢) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٣٧٨

(٣) المقريزي : الخطط (بولاق) ج ٢ ص ٣٨٥

من الامير ، عن نفسه ، والقسم بالله سبحانه وتعالى وبالقرآن الكريم ، وبالنبى صلى الله عليه وسلم ، بأن يظل طوال حياته مخلصا للسلطان ، متفانيا في خدمته ومحبته ونصحه ، وان يتعهد بأن يكون وليا لمن والاه عدوا لمن عاداه ، من سائر الناس اجمعين (١) . ثم يمد السماط السلطاني لمن حضر وشارك الاحتفال بتنصيب الامير من خاصكية السلطان من السلحدارية والداوادارية والجمدارية (٢) ، حتى اذا انتهى السماط خرج الامير في موكب من القبة الصالحية ، متجها نحو القلعة ، فيجلس له في طول شارع القاهرة اهل الاغاني ، ليزفوه عند صعوده اليها وعند نزوله منها (٣) .

ولعل اختيار قبة الصالح ايوب مكانا يجري فيه تأمير المملوك راجع الى اعتراف المماليك بفضل السلطان الصالح ايوب عليهم ، بجلبهم في اعداد كبيرة الى مصر وتأميرهم ، ويتجلى هذا الولاء فيما اظهروه من الحزن والاسى عند نقل تابوته زمن السلطان ايبك من قلعة الروضة الى الضريح الذي شيدته له زوجه شجر الدر بهذه القبة ، اذ لبس الامراء واهل الدولة البياض حزنا عليه ، وقطع المماليك شعورهم وساروا الى هذه القبة ، كما انهم حرصوا على ان يضعوا عند القبر صناجق السلطان وبقجته وتركاشه وقوسه (٤) .

---

(١) القلقشندي : صبح الاغشى ج ١٣ ص ٢١٩
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٦١
(٣) المقريزي : الخطط (بولاق) ج ٢ ص ٣٨٠ — ٣٨١
(٤) المقريزي : الخطط (بولاق) ج ٢ ص ٣٧٥

ثم ادخل سلاطين بيت قلاون تقاليد وقواعد جديدة عند تأمــير المملوك ، فاتخذوا المدرسة المنصورية التي انشأها السلطان المنصــور قلاون ببين القصرين ، والتي تقابل قبة الصالح ، مكانا يجري فيه تنصيب الفارس ، فاذا اعطى السلطان احد مماليكه امرة ووظيفة ، أرسله الى المنصورية في جماعة من كبار الخاصكية والنقباء والحجاب ، ثم يخرج ويشق المدينة ، ويأتي الى حضرة السلطان بالقلعة ويبوس الارض ثم يقبل يد السلطان (١) ، وجرت العادة ان يتأمر عدد من المماليك فــي وقت واحد ، وان يقدم حاجب الحجاب لكل منهم بوقا وعلما (٢) نيابة عن السلطان ، ويلبس الامير شربوشا مكللا مزركشا ، وهو غطاء للرأس يشبه التاج على شكل مثلث يلبس بغير عمامة ، كما يرتدي تشريفا ، وهو خلعة تتناسب مع رتبة الامير ووظيفته (٣) . ثم يركب الامير فرسه تحت السنجق يحف به الامراء تحت سناجقهم ، ويشقون القاهرة . فتكون الحوانبت كلها اوقدت ، والمغاني وارباب الملاهي صفت في عدة اماكن يضربون بآلاتهم طربا وتهليلا ، فينثر الامراء عليهم الدراهم . وينتهي الاحتفال بطلوع الامير واصحابه الى القلعة (٤) ،

(١) العيني : عقد الجمان مجلد ٦٢ ص ٢٤٨

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٢١٩ ، ج ٩ ص ١٣ — ١٤
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٧٠

(٣) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ١٦٠
السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٤١

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٩٩
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٣٣٤
انظر ص ١٨٤ في
Zettersteen : Beiträge

وحرص كل سلطان على ان يجعل الامراء من مشترواته ليضمن ولاءهم له والمحافظة على ملكه . ووضع قواعد هذه السياسة السلطان الصالح ايوب عند توليته الحكم ، اذ قبض على امراء ابيه واخيه واعتقلهم وقطع اخبازهم ، واعطى مماليكه الصالحية الامريات فصاروا بطانته(١)، وجرى سلاطين ، المماليك على هذه السنة • ومن الاسباب التي حملت الامير قلاون على عدم قبول السلطنة بعد عزل السعيد بن بيبرس كثرة الظاهرية من العساكر ، ولذا لم يكد يتولى وظيفة الاتابكية للسلطان سلامش بن بيبرس بعد عزل السعيد ، حتى شرع في القبض على الامراء الظاهرية وملأ الحبوس بهم ، واستمال مماليكهم بتفريق الاموال فيهم. وقرب قلاون الصالحية القدماء ، واعطاهم الاقطاعات ، وكبر جماعةمنهم واستنابهم في القلاع بالبلاد الشامية ، واخذ كثيرا من ذراريهم وقرر لهم الجوامك ، ورتب جماعة منهم في طائفة البحرية ، فقوى جانبه وتمكنت اسبابـــه (٢) •

ولما استقر قلاون في دست السلطنة اخذ في استجلاب المماليـــك قصدا في الاستظهار والقوة ، وانعم عليهم بالامريات في سرعة (٣) . ويدل على مدى اعتقاده في هذه الخطة انه حين اشرف على الوفـــاة استحضر ابنه خليل،واوصاهبأن يحفظ مماليكهويبالغفي الاحساناليهم،

(١) المقريزي : السلوك لمعرفةدول الملوك ج ١ ص ٣٣٩ ــ ٣٤٠
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٥٦
بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ١٣٩
(٣) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٦ ص ٧٢٤
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٧١ ــ ٦٧٣

ويستمر بهم على اقطاعاتهم ووظائفهم بمصر والشام ويهتم بمصالحهم . فلما تولى خليل السلطنة لم يكن في مناصب الدولة الا من هو في طائفة ابيه قلاون وحزبه وملك يده وعتيقه ، فاصبحوا حافظين العهد لخليل ، واظهروا ولاءهم واخلاصهم له ، وغدوا دعائم سلطانه القصير العمر (١) .

على ان ترقية المماليك السلطانية في وظائف الدولة ، وما يتبعها من الانتقال من رتبة الى اخرى خضعت لاعتبارات مختلفة . ومن هذه علاقة المملوك بالسلطان ، فالخاصكية وهم الصفوة اسرع المماليك السلطانية في الترقية كما تقدم (٢) ، ومن الادلة على مكانة الخاصكية ان السلطان اذا غضب على احد منهم رده الى المماليك السلطانية ، فلا يستطيع استعادة ثقة السلطان الا بمجهود كبير ، فالسلطان برسباي لم يسمح برجوع تغرى برمش الجلالي الى موضعه بين الخاصكية الا بسفارة نائب حلب ورجائه (٣) .

اما لاعتبار الثاني فهو العصبية والجنسية ، وتجلت اهمية هذه القاعدة منذ اخذ نفوذ البرجية او الجراكسة يشتد بعد عودة السلطان الناصر محمد بن قلاون الى السلطنة للمرة الثانية ، اذ قويت شوكتهم بمصر وصارت لهم الحمايات الكثيرة ، وتردد اليهم الناس في الاشغال ، وقام بامرهم الامير بيبرس الجاشنكير ، فامر عدة منهم وصار قبالته

---

(١) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٢٧٦
(٢) انظر ما سبق : ص ١٣٤
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ص ٤٠٥ أ

الامير سيف الدين سلار الذي يمثل العنصر التركي من المماليك . فصار بيبرس اذا أمر أحدا من البرجية ، وقف أصحاب سلار وطلبوا منه ان يؤمر واحدا منهم ، غير ان البرجية ظلوا اكثر عددا وأقوى جانبا (١) . وصار السلطان الناصر محمد بن قلاون ليس له من السلطنة سوى الاسم فقط ، وغدا نواب البلاد الشامية من البرجية وخشداشية بيبرس فقوى امره بينهم (٢) .

وازداد شأن صلة القرابة في دولة الجراكسة ، فاصبح القفز الى الرتب العليا دفعة واحدة امرا مألوفا . ومن الامثلة على ذلك ما فعله السلطان برسباى عند قدوم جانم بن عبدالله من بلاد الجركس مع جملة اقاربه ، اذ جعله برسباى خاصكيا ، ثم انعم عليه وعلى قريب له ، وهو اقطوه ، بامرة طبلخاناه بعد مدة قصيرة على غير عادة السلف (٣)، وكذلك انعم برسباى على اخيه يشبك، عند قدومه ، بامرة طبلخاناه، ولم يلبث أن منحه امرة مائة وتقدمة الف بالديار المصرية (٤) . وجرى في هذا العصر المملوكي الثانى محاباة السلاطين وكبار الدولة لاقاربهم والانعام عليهم بالرتب والاقطاعات في غير نظام (٣) . ونال الأروام من المماليك

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٧٥ — ٨٧٦
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٦٨ أ
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٤٣ ب
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٤٥٦ أ
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٤٣ ب ، ٤٥٦ أ ، ج ٢ ص ١٩٢ أ ، ج ٣ ص ٢٥ ب
السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ٤ ، ٢٣٢ ، ج ١٠ ص ٢٧١

ـ لا الجراكسة فقط ـ نصيبهم من هذه المحاباة على يد السلاطين من جنسهم ، فالسلطان تمربغا الرومي ، اصله من مماليك السلطان جقمق ، فجعله خاصكيا ثم أمير عشرة . ولما استقر خشقدم ، وهو رومي كذلك ، في السلطنة ، ارتقى تمربغا الى تقدمة الف ثم اصبح اتابك العساكر ثم سلطانا (١) .

ومن الاعتبارات التي لها اهميتها في الترقية ايضا ما يرتبط به المماليك معا من صلات الزمالة في الرق والعتق والعمل والخدمة ، فيطلق على هؤلاء الرفقاء خجداشية او خشداشية ، وهو لفظ فارسى مفرده خجداش او خشداش . واثرت هذه الرابطة في اختيار السلاطين ، واذا كان من المعروف ان السلطان من السلاطين اختير لقوته او ذكائه او دهائه او جمال صورته ، فينبغي ان يضاف الى هذه العوامل كثرة خشداشيته او مكانته الخاصة بينهم كذلك . فاذا ما تولى السلطان الحكم ،عمل للخشداشية كل حساب ، ومن الامثلة على ذلك ما اشتهر به السلطان ايبك من المداراة لخشداشيته والصبر الطويل على مناوئتهم له وسوء اخلاقهم (٢) . ولما عزل السلطان الناصر محمد بن قلاون نفسه من السلطنة للمرة الثانية ،اختار الامراء البرجية بيبرس الجاشنكير سلطانا لانهم خشداشيته واقوى طوائف المماليك وقتذاك (٣). وحرص السلطان بيبرس الجاشنكير على تعيين خشداشيته نوابا في الممالك الشامية (٤)،

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ج ٣ ص ٤٠
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٤٢
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ١٨١
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٦٨ أ

وجاء في كتابه الى الامير قراسنقر بتقليده نيابة حلب « انت خشداشي، واميرا حماه وحمص خشداشاك (١) » ولما اضطربت الامور بمصر زمن السلطان بيبرس الجاشنكير بسبب سوء الاحوال الاقتصادية وانخفاض النيل وثورات العامة ،اعلن كثير من الامراء سخطهم ،ولجأوا الى السلطان الناصر محمد بن قلاون بالكرك ، بعد ان تبين لهم ان كل واحد من خشداشية بيبرس صار يسعى الى ان يترقى الى اعلا منزلة (٢) . ولم يصل كمشبغا بن عبد الله الحموي اليلبغاوي الى وظيفة اتابك العساكر بالديار المصرية زمن السلطان برقوق الا لكونه خشداشه ، فكلاهما مملوك الامير يلبغا العمرى اتابك العساكر ايام السلطان حسين بن شعبان (٣) . وترقى مأمور بن عبدالله القلمطاوى الى امرة مائة وتقدمة الف بالديار المصرية لانه خشداش السلطان برقوق كذلك (٤). واشتهر السلطان خشقدم بالعطف على خجداشيته ، فرقاهم الى الوظائف العالية ، ومنهم الامير قانم من صفر خجا الجركسي الذى صار اتابك العساكر ، فعظم امره ونالته السعادة ، وقصده الناس في الحوائج ،وعمر الاملاك الكثير (٥) ، ومغلباى طاز الابوبكرى الذى جعله خجداشه خشقدم امير طبلخاناه دفعة واحدة (٦) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٢٤٢
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٢٤٤
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٥٧ أ
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ١٧٤
(٥) السخاوي : الصور اللامع ج ٦ ص ٢٠١
(٦) السخاوي : الصو راللامع ج ١٠ ص ١٦٤

وربما تجمع الشدائد بين جماعة من المماليك فتكون بينهم اخوة وصداقة عظيمة ، يفيدون منها ، اذا سنحت الفرصة لاحدهم او لبعضهم، في الترقية او بلوغ السلطنة . ففى الفتنة التى حدثت عند سلطنة فرج وترتب عليها اضطهاده للجراكسة ، تشرد كل من ططر وبرسباى في البلاد الشامية والحلبية ، وانضم اليهما اثناء تشردهما المؤيد شيخ ، فلما تسلطن شيخ طابت حالهما حتى صارا من المقدمين في الديار المصرية (١) .وظفر اينال بن عبدالله المؤيدى المعروف باخي قسم بامرة عشرة زمن السلطان جقمق بجاه اخوته المؤيدية (٢) .

ومن الوسائل الاخرى في الترقية اجتهاد ذوي النفوذ والسلطان في الدولة فيترقية من يمتاليهممن المماليك بصلة من الصلات. فنال خشقدم بن عبد الله الناصري المؤيدي امرة عشرة زمن السلطان جقمق بسفارة الامير تغرى بردى البكلمش الداوادار لسابق معرفته به اثناء خدمتهما معا عند السلطان شيخ (٣) . وانعم الاتابك جقمق مدبر مملكة العزيز يوسف بن المؤيد شيخ ، على قانى باى بن عبدالله الجركسى بامرة عشرة لكونه من مماليك اخيه الامير جاركس القاسمي المصارع (٤) .
اما جار قطلوا بنعبدالله الظاهرىنائب الشام ، فهو منمشترواتبرقوق ومعاتيقه ، وسعى اليه أغاه الماردينى الداوادار ، عند السلطان برقوق فجعله خاصكيا (٥) .

(١) العيني : عقد الجمان مجلد ٦٩ ص ٥٢٦ و ٦٨٨ — ٦٨٩
ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٠٧ أ ، ج ٢ ص ١٩ب
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٩٧ أ
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٥٧ ب
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٧ أ ، ب
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٤٥٤ أ

ومهما يكن لهذه الاعتبارات المختلفة من اهمية في ترقية المملوك في وظائف الدولة ، فان سلاطين المماليك لم يغفلوا ما للفروسية واجادة الفنون الحربية من التقدير والاعتبار عند ترقية المملوك ولا سيما في العصر المملوكي الاول . ففي أثناء مهاجمة السلطان بيبرس انطاكية سنة ٦٦٦ حدث ان تمكن جندي من اسركند اصطبل عم هيثوم ملك ارمينيا الصغرى واحضره الى السلطان ، فاعطاه بيبرس عشرة طواشية وامره بحمل رنك كنداصطبل علي سنجقه المملوكي الاسلامي (١) ، وتامر محمد ابن امير سلاح بكتاش الفخري زمن السلطان قلاون لانه اشترك رغم صغر سنه في محاربة الامير سنقر الاشقر الذي خرج على طاعة قلاون واعلن نفسه سلطانا بدمشق (٢) . وابى قلاون ان يستجيب لرجاء الامير طرنطاى نائب السلطنة بالديار المصرية في الانعام على ولده وولد الأمير كتبغا الذي تزوج بابنته ، باقطاعية في الحلقة ، لانه لم يرهما في مصاف القتال يضربان بالسيف يوما من الايام (٣) . وامر السلطان خليل بن قلاون احد الاوشاقية لما اظهر من البلاء والشجاعة سنة ٦٩١ عند منازلة قلعة الروم (٤) . وانقذ شاهين كتك المعروف بالأفرم احد الخاصكية السلطان برقوق من اعتداء المتآمرين عليه بزعامة الأمير على باي سنة ٨٠٠ ، اذ قاتل بمفرده جماعة منهم ، ثم توجه الى داره ولم يفخر

---

(١) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٥ ص ٥٣٩
(٢) العيني : عقد الجمان مجلد ٦٣ ص ٤٨٠
(٣) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥١
(٤) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٢٩٧ — ٢٩٨

بما عمله ، فلما بلغ برقوق خبره انعم عليه بامرة عشرة (١) . اما يشبك ابن ازدمر احد مماليك السلطان برقوق فانه اظهر من الشجاعة والاقدام في وقعة تيمورلنك ، ما جعل السلطان فرج ينعم عليه بامرة عشرة عند عودته الى الديار المصرية (٢) .

ولم تعين المصادر المملوكية عدد السنوات التي يقضيها المملوك لارتفائه من رتبة الى اخرى ، بل اكتفت بالاشارة الى ضرورة مضى لطيفة على قول ابن تغرى بردى . فمثلا بعد أن أتم المملوك شيخ تعليمه بالطباق ، وأخرج له السلطان برقوق خيلا وقماشا ، وجعله في جملة الجمدارية ، نقله برقوق بعد مدة لطيفة الى الخاصكية ، ثم بعد مدة اخرى أصبح شيخ ساقيا ، وصارت له مكانة عند السلطان برقوق . ثم صار أمير عشرة سنة ٧٩٤ ، ثم أمير عشرين ثم أمير أربعين وبذا أصبح أمير طبلخاناه . ولما تعين اينمش للوصاية على المملكة بعد وفاة برقوق ، أعطى للامير شيخ سنة ٨٠١ تقدمة الف ، وهي أعلى المراتب ، أي ان شيخا استغرق في سلم المراتب المملوكة بعد تأميره نحو ثمانى سنوات ، ولم يزل يناضل حتى بلغ كرسي السلطنة سنة ٨١٥ (٣) .

على ان سلاطين العصر المملوكي الثاني لم يتقيدوا بقواعد الترقية

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٧٤ أ .
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٤٢٣ ب
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ — ٣٢٣
المنهل الصافي ج ٢ ص ١٨٩ ب
السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ٣٠٨ — ٣٠٩
العيني : عقد الجمان مجلد ٦٩ ص ٥٠٧

أو المدة الزمنية اللازمة ، بل أثرت الاعتبارات التي سبق الاشارة (١) اليها في نقل المملوك من الجندية الى امرة طبلخاناه او الى امرة مائة دفعة واحدة. ومن الامثلة على ذلك ان السلطان ططر أنعم على مملوكه يشبك ابن عبدالله بامرة طبلخاناه دفعة واحدة برغم انه عـاش خاملا هاملا عاريا من كل علم وفن (٢) . وانعم السلطان برسباي على بعض اقاربه بامرة طبلخاناه دفعة واحدة (٣) ، كما انتقل يشبك بن عبد الله الساقي من الجندية الى امرة مائة زمن برسباي ، وما لبث ان جعله هذا السلطان اتابك العساكر بالديار المصرية (٤) . وعلى عكس ذلك يظل الواحد من الامراء مدة طويلة احيانا في وظيفة واحدة دون ان يلتفت اليه احد لسبب من الاسباب ، ومثال ذلك ان قاني باي بن عبد الله الجركس ظل خاصكيا زمنا طويلا في عهد السلطان شيخ ، فلما قام الاتابك جقمق بتدبيـر مملكة العزيز يوسف بن شيخ انعم عليه بامرة عشرة لانه من مماليـك أخيه جاركس المصارع (٥) . أما الامير تغرى برمش مملوك جقمق فظل من جملة المماليك السلطانية مدة طويلة ، ولم يتأمر في عهد سلطنـة استاذه الا بعد زمن طويل (٦) . ولم يحقق السلطـان جقمق رغبة الامير اسندمر النوري أحد رفقاء أخيه جاركس المصارع ، باعادته الى وظيفته،وهي نيابة الاسكندرية التي عزله منها السلطان برسباي، واكتفى

---

(١) انظر ما سبق : ص ١٤٠ ـــ ١٤٣

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ص ٤٢٢ أ

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ص١٤٥٧،ج٣ص١٤٢٥

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٤٢١ أ

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ١٧

(٦) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٤٠٥ أ

بأن كتب له جامكية في كل شهر على ديوان المفرد كأنه من عامة الاجناد، وهذا رغم ما اشتهر به جقمق من تقديم جماعة من مماليك اخيه . ولعل ذلك راجع الى اهمال اسندمر هذا في وظيفته زمن برسباي مما ترتب عليه هروب الامير جانبك الصوفي من حبس الاسكندرية (١) .

واصطلح المؤرخون على تقسيم الامراء المماليك الى طبقات ذات مراتب عسكرية ، وعينوا الوظائف المرتبطة بكل مرتبة ، كما حددوا مقادير الاقطاعات المخصصة لكل منها ، فالطبقة الاولى هي طبقة امراء

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٢٦ أ

(٢) يعتبر الاستاذ كاترمير (Quatremere) من المستشرقين الاوائل الذين اهتموا بدراسة نظم الحكم عند المماليك . اذ عكف عند ترجمة كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي الى اللغة الفرنسية ، على شرح ما ورد بهذا الكتاب من المصطلحات المرتبطة بالدواوين والوظائف ونظم الحكم والرتب العسكرية والنظم المالية ، مستعينا في ذلك بالمؤلفات التى وضعت لتمكين أصحاب الدواوين من فهم الاداة الحكومية ، ومن هذه المؤلفات ما وضعه ابن فضل الله العمري من الكتب واشهرها كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار والتعريف بالمصطلح الشريف ، ومنها ايضا كتاب صبح الاعشى الذي صنفه أبو العباس احمد القلقشندى ، واشتمل على جميع ما يحتاج اليه كتاب ديوان الانشاء من الدراية والمعرفة بأدوات الكتابة والتاريخ والادب وتقويم البلدان والفلك .
وتوافر الاستاذ جودفرى ديمومبين (La Syrie à l'Epoque des Mameloukes. Paris 1923) على دراسة كتاب صبح الاعشى فخرج من دراسة هذا الكتاب وغيره من المؤلفات العربية بالسفر الذى وضعه عن الشام في العصر المملوكى
Gaudefroy - Demombynes
وشرح ديموبين فيما وضعه لكتابه من مقدمة طويلة اصول الحكم المملوكي والنظم المالية والحربية ووظائف الدولة العسكرية والديوانية .
وحرص الدكتور محمد مصطفى زيادة فيما نشره في كتاب

المئين ومقدمى الالوف ، وخدمة كل واحد منهم مائة فارس يسير بهم الى جيش السلطان في الحروب ، وربما زاد الواحد منهم العشرة والعشرين ، فضلا عن ارباب الوظائف الثانوية الملحقة بخدمته ، وهذا الامير عادة مقدم على الالف جندي في الحلقة. وبلغت عدة امراء المئين وفقا للقواعد الموضوعة اربعة وعشرين اميرا. غير أن هذا العدد نقص منذ زمن السلطان برقوق بسبب توفير اقطاعات بعضهم للانفاق منها على المماليك السلطانية الذين كثر عددهم في زمنه ، فاصبح عدد المقدمين بين ثمانية عشر وعشرين مقدما (١) • ومن هؤلاء الامراء يكون اكابر ارباب الوظائف والنواب الخارجون عن حضرة السلطان من أمثال نائب الاسكندرية ونائب الوجهين القبلي والبحري والمتولين للنيابات الكبيرة بالبلاد الشامية (٢) •

اما الوظائف التي تقتضي ان يكون اربابها من مقدمي الالوف ويكونون بخدمة السلطان بالقاهرة فهي على حسب منازلها : نائب السلطنة والاتابكية ويعبر عن صاحبها باتابك العساكر او الامير الكبير

السلوك للمقريزي على أن يشرح في الحواشي ما جاء بالمتن من مصطلحات شرحا وافيا ، واهتم بتطور النظم والوظائف والدواوين وما طرأ عليها من تغيير في العصور المختلفة حتى اتخذت صورتها النهائية في عصر المماليك ، واورد في الحواشي ما يقابلها من نظم العصور الوسطى .

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٤ .
الظاهري : زبدة كشف المماليك ص ١١٣
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٠ ــ ٣٥١

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٤ ج ١٢ ص ٦

منذ ان تولاها شيخون العمري زمن السلطان حسن بن الناصر قلاون (١) . فنائب السلطنة وهو المعروف بالنائب الكافل او كافل الممالك الاسلامية يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير ، وله رياسة ديوان الجيش ، وينهي الى السلطان بكل الأمور التي لا بد ان يقف عليها (٢) • والاتابك اكبر الامراء المقدمين بعد نائب السلطنة (٣) •

ويلي الاتابكية في المكانة وظيفة امير سلاح كبير ، وصاحبها هو رئيس السلاحدارية من المماليك السلطانية ، ويحمل سلاح السلطان في المواكب العامة ، ويشرف امير سلاح كبير على السلاح خاناه • ويأتي بعده في الاهمية امير مجلس ثم الداوادار الكبير الذي يتولى تبليغ الرسائل للسلطان ورفع القصص وتقديم البريد اليه ، كما يحصل على تصديق السلطان على المناشير والتواقيع (٤) • ويلي ذلك امير اخور كبير ، ووظيفته الاشراف على خيل السلطان ويقيم عادة بالاسطبل السلطاني ، ويساعده في مهمته فريق من امرا الطبلخاناه والعشرات (٥). اما رأس نوبة النوب الذي يلي امير اخور في الرتبة فيتولى الاشراف

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٨
المنهل الصافي جـ ٢ ص ١٨٧ أ
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٧
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٨
(٤) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٨ ــ ١٩
(٥) القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٨ و جـ ١١ ص ١٧

على تربية المماليك(١) ، ويليـه بدوره حاجب الحجاب ، ومن واجباته ان يفصل فيما يقع بين الجند والامراء من نزاع واختلاف في أمـور الاقطاعات ، فاذا تعذر عليه التوفيق رجع الى نائب السلطنة . ويتولى حاجب الحجاب كذلك تقديم الجند وعرضهم ، ويعاونه في ذلك عدد من الحجاب . وجرت العادة ان تـكون اعمال الحجوبية بيد خمسة من الحجاب ، اثنان منهم من مقدمي الالوف ، وهما حاجب الحجاب ونائبه (٢) . اما امير جاندار الكبـير فهو الذي يستأذن السلطان في دخول الامراء للخدمة ويدخل امامهم الى الايوان ، ويشترك مـع الداوادار في تقديم البريد ، ويساعده في عمله طائفة مـن البردادارية والركابية والخازندارية ، وهو الذي ينفذ اوامر السلطان بشأن تعزيز فرد من الافراد او قتله ، ويشرف بعد اشارة حاجب الحجاب كذلك على الزردخاناه، وهي السجن الخاص بالامراء الذين يغضب عليهم السلطان، ويطوف امير جاندار بموكب السلطان عند سفره (٣) .

يأتي بعد ذلك الاستادار الذي يتحدث في امر بيوت السلطـان من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، واليه امر الجاشنكيرية. وجرت العادة ان تكون الاستادارية بيد اربعة، اكبرهم مقدم الف ومعه ثلاثة طبلخاناه(٤) .

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٨
الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٤
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٩
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٦
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٠
(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٠

ومن مقدمي الالوف كذلك امير الحاج الشريف الذي يصحب الحجاج عند ذهابهم لتأدية فريضة الحج بالحجاز ، ثم الخازندار الذي يتحدث في خزائن الاموال السلطانية وما بها من نقد وقماش ، ثم شاد الشرابخاناه الذي يشرف على ما تحويه من السكر والمشروب والفواكه ، ويعاونه في ذلك بعض الامراء من دون طبقة امراء المئين (١) .

اما الطبقة الثانية من الامراء فهي طبقة امراء الطبلخاناه ، ونصيب كل منهم في جيش السلطان اربعون فارسا ، وقد يزيد بعضهم على ذلك الى سبعين وثمانين حسب اقطاعه ، غير انه لا يقل عن اربعين في اية حال . وليس لامراء الطبلخاناه عدد معين ، اذ يجوز ان ينقص عددهم بتفريق امرة الطبلخاناه الى امرتي عشرين او اربع عشرات . ومن امراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من ارباب الوظائف وهم الكشاف والولاة بالاعمال المصرية . ويعطى النواب بالشام (٢) . ومن الوظائف التي بحضرة السلطان ما يقتضى ان يشغلها امراء طبلخاناه وهم بحسب منازلهم : شاد الشراباخاناه الثاني ، والداوادار الثاني ، وامير اخور الثاني ، ورأس نوبة النوب الثاني ، والحاجب الثاني ، والخازندار الثاني ، ونائب القلعة المنصورة والزردكاش وامير شكار وامير جاندار ، وزمام الدور السلطانية ومقدم المماليك (٣) .

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢١
الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٤
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٥
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢١
الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٤

اما امراء العشرينات والعشرات وهم يكونون الطبقـــة الثالثة فنصيب كل منهم في الحروب عشرة فوارس او عشرون فارسا ، وهذه الطبقة لا ضابط لعدد امرائها بل تزيد وتنقص شأنها في ذلك شأن طبقة امرة الطبلخاناه ، ومن هذه الطبقة يعين صغـــار الولاة (١) • ومـــن الوظائف التي بحضرة السلطان مـــن امراء العشرينـــات والعشرات الداوادار الثالث ، وامير اخور الثالث ، ورأس نوبة الثالث، والحاجب الثالث ، واستادار الصحبة ، وسبعة حجاب وعشرة رؤوس نوب (٢) . ومن الوظائف المقررة ما يتولاها امير او غير امير ، مثل مقدم البريدية والمهمندارية ودلال المماليك ومتولي القاهرة ونقيب الجيش (٣) .

اما امراء الخمساوات ففي خدمة كل واحد منهم خمسة مماليك يذهب بهم الى جيش السلطان ، وهم اقل الطبقات عددا واكثر ما ينعم بامرتها على اولاد الامراء الذين توفي اباؤهم وذلك رعاية لسلفهم، وهم في الحقيقة كأكابر الجند (٤) ، وسماهم المؤرخون في عصر سلاطيـــن المماليك طبقة اولاد الناس (٥) ، كما سمى المؤرخون الايوبيون ابنـــاء البيت الايوبي باسم اولاد الملوك •

وجرت العادة ان ينعم السلطان على الامراء بالخلع عند تقليدهم

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٥
(٢) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٥
(٣) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٥
(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٥
الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٣
(٥) انظر ما سبق : ص ٥٣

الواظئف ، فحينما استقر المؤيد شيخ ساقيا خاصا زمن برقوق خلـع عليه السلطان بطراز ذهب وحياصة ذهب كذلك (١) . وعندما تطورت وظيفة اتابكية العسكر من رتبة الى وظيفة منذ تولاها الامير شيخون العمري زمن السلطان حسن بن قلاون حظى متوليها بخلعه خاصة من السلطان (٢) .

ولاكابر أمراء المئين الخلع من الاطلس الاحمر الرومي واسمه الفوقاني وهو بطرز زركش ذهب وتحته سنجاب ، وله سجف في ظاهره مـع الغشاء قندس ، وتحته الاطلس الاصفر الرومي ، ويكمل هذه الخلعة الفاخرة كلوتة زركش بذهب وكلاليب ذهب ، وشأش رفيع في طرفه حرير ابيض مرقوم بالقاب السلطان مع نقوش من الحرير الملون ، ثم منطقة من الذهب (٣) . ودون هذه الخلعة خلع للرتب التالية من نوع يسمى طرد وحش يعمل بدار الطراز بالاسكندرية وبمصر ودمشق ، ومجوخ بالقاب السلطان ، وربما ركب عليه طراز مزركش بالـذهب وعليه فرو سنجاب وقندس ، وتحت الطراز قباء ، ثم الكلوتة الزركش والحياصة الذهب ، والشاش بماثل ما يمنح لاكابر المئين (٤) .

وتختلف الرتب الاخرى في نـوع القماش واللون والحياصـة

---

(١) العيني : عقد الجمان مجلد ٧٠ ص ٥٠٧ ــ ٥٠٨
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٨
(٣) المقريزي : الخطط جـ ٣ ص ٣٦٩
(٤) المقريزي : الخطط جـ ٣ ص ٣٧٠

والشاش والكلوتة والسنجاب والقندس (١) . فلا ترصع المناطق بالجواهر الا في خلع السلطان لاكابر امراء المئين . ومعظم الامراء يلبس المطرز على الكمين من الزركش أو الحرير الاسود المرقوم ، ولا يكفت مهمازه بالذهب الا من له اقطاع في الحلقة (٢) .

ومن المعروف ان الامير يرتقي في الوظائف والرتب في عهد السلطان الذي امره ، ويجوز له ان يتولى السلطنة متى واتته الفرصة . غير انه في هذه الفرص التي يرتقي فيها الامير ما يستوجب نكبته واذلاله ومصادرة اموال بعد ان يبلغ اوج مجده وذروة عزه . ومن امثلة ذلك ما جرى للامير تنكز نائب دمشق الذي عظم شأنه زمن السلطان الناصر محمد بن قلاون وهابته الملوك والامراء ، ولم يزل في ارتقاء حتى اجتمعت له سائر الالقاب والنعوت ، واصبح موضع ثقة السلطان فلا يفعل شيئا حتى يشاوره . ثم بلغ السلطان الناصر ان تنكز يتآمر ضده ، فامر بالقبض عليه ومصادرة امواله واملاكه (٣) . ومن الامراء الذين خشيهم السلطان الناصر طغاي بن عبدالله لقوة شخصيته ومهابته في قلوب الخاصكية ، فلما مرض السلطان الناصر واشرف على الموت سنة ٧٣٤ ، استدعى المقربين اليه من الخاصكية واخذ يوصيهم باولاده وحريمه ، فراعه ان طغاي لم يحذ حذو

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٧٠

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٠ ــ ٤١

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٨ ــ ٤٠
المنهل الصافي ج ١ ص ٤٣٦ أ ــ ٤٣٨ ب

الخاصكية في حلق شعورهم حين حلق السلطان شعره اثناء المرض، وتشكك في اخلاصه، فحفظ له ذلك. وبعد شفائه اخرجه الى صفد نائبا عليها، ثم انتهز الناصر فرصة ماوقع بين طغاي وتنكز نائب الشام من نزاع فأمر بامساكه وارسل اليه احد الامراء فحل سيفه ، دلالة على تجريده من الامرة ، ثم احضر له القيد وتوجه به الى مصر ، ثم نقله الى الاسكندرية معتقلا فظل في حبسها حتى مات (١) .

وتعنت بعض السلاطين في معاملة الامراء ذوي الخدمات في عهد السالفين من السلاطين ، ومثال ذلك جانم بن عبدالله الاشرفي قريب السلطان برسباي الذي استقر اميرا كبيرا في عهده ، وصحبه في سفرته الى ارزنكان . فلما مات برسباي قبض جقمق على جانم ثم سيره الى مكة بطالا ، ثم نقله الى الكرك (٢) . واتبع السلطان اينال هذه السياسة مع قايتباى الجركسى احد مماليك جركس المصارع الذي ارتقى حتى اصبح امير آخور كبير في عهد جقمق ، اذ امر السلطان اينال بالقبض عليه ، ولم يطلق سراحه الا السلطان خشقدم الذي ارسله الى دمياط بطالا (٣) .

ومن الاسباب التي تدعو ايضا الى عزل الامراء ما يثبت من تقصيرهم في تأدية واجباتهم ، فالسلطان جقمق امر بعزل الامير سودون قرقماس عن الداوادارية ورسم بسفره بطالا الى القدس الشريف لأنه

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٢٣ أ ، ب
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٤٥٦ ب
(٣) السخاوي : الضوء اللامع ج ٦ ص ١٩٥

لم يستطع حماية ما استولى عليه من الـــدواب من قبيلة محـــارب بالبحيرة (١) • واقتضت الاحوال بأن يخرج السلطان احد الافراد من امرته ليحل مكانه احد المقربين اليـــه ، فيعتبر الاول بطالا (٢) . وفي حالات كثيرة يعود هؤلاء الى الوظائف من جديد ، غير انهم يعودون احيانا الى امرات ووظائف اقل شأنا مـــن تلك التي شغلوها من قبل . ومثال ذلك ما حدث للامير كزل بن عبدالله الظاهري الذي ارتقى في عهد السلطان فرج حتى اصبح امير مائة ، ثم نفاه السلطان شيخ الـــى دمشق لانه اهان الامير يلبغا الناصري اتابك العساكر ، ثم عاد اميـــر طبلخاناه زمن السلطـــان برسباي (٣) . وحظى الامـــير كمشبغا بن عبدالله اليلبغاوى بعطف استاذه الاتابك يلبغا العمري زمن السلطان شعبان ، ثم حدثت الفتنة بين اليلبغاوية والسلطان شعبـــان سنة ٧٦٨ فجرى عليه ما جرى على زملائه من اليلبغاوية من الحبس والتشريد . فلما قتل شعبان وتولى برقوق السلطنة، افرج عنه وانعم عليه بامرة عشرة، وصار يترقى حتى نقل الى تقدمـــة الف بدمشق (٤) . وعزل الامـــير جارقطلو الظاهري عن نيابة صفد زمن برسباي ، واعتقل بالاسكندرية سنة ٨٢١ ثم اطلق سراحه بطالا ، ثم استقر به السلطان ططر في نيابة حماه (٥) .

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٦٤ أ
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٤٣٢ ب و ج ٣ ص ٥٥ أ
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٥٣ ب
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٥١ ب
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٤٥٤ أ

وفي كثير من الحالات يرتب السلاطين لهؤلاء البطالين الرواتب والاقطاعات ، اذ كتب السلطان جقمق للامير اسندمر الظاهري جامكية في كل شهر مقدارها خمسة الاف درهم ، على ديوان المفرد بعد عزله من نيابة الاسكندرية (١) . واخرج السلطان برسباي امرة كزل الظاهري بعد ان اصبح بطالا ، وانعم عليه باقطاع جيد يأكله طرخانا. الى ان مات سنة ٨٤٠ (٢) . ورتب السلطان فرج للامير سودون طاز ما يكفيه بعد ان عزل نفسه عن الاخورية الكبرى بسبب ما وقع بينهما من الوحشة ، التي ترتب عليها وقوع فتنة ، انحاز فيها عدد من المماليك السلطانية الى سودون ، وانتهت بانتصار السلطان فرج عليه (٣) .

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٢٦ أ
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٥٣ ب
(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٨٠

الفصل الخامس

مــــوارد الفارس

التفرقة بين الفئات المختلفة للجيش المملوكي – الارزاق والاقطاعات قواعد توزيع الاقطاعات – مقادير الاقطاعات – انتقال الاقطاعات وانحلالها – بيــــع الاقطاعات واستبدالها – توارث الاقطاعـــات النفقات والرواتب والاجور – حقوق المقطعين وواجباتهم.

خضع الجيش المملوكي شأن سائر التنظيمات في الدولة المملوكية لسنة التطور ، فتحكم في تكوينه عوامل كثيرة (١) . وترتب على هذا التطور تغيير في مدلولات الالفاظ الاصطلاحية التي حفلت بذكرهـــا المراجع المعاصرة ، فلم تستقر هذه الالفاظ على معنى او مدلول واحد طوال عصر المماليك ، بل لحقها كذلك التعديل . واوضح الامثلة على ذلك صعوبة التفرقة بين الفئات المختلفة للجيش المملوكي منذ قيـــام الدولة المملوكية . فالجيش المملوكي في اول الامر تكون من بقــــايا الجيوش الايوبية التـــي جاء معظمها من المماليك مـــن الترك وبقايا

(١) انظر ما سبق (الفصل الرابع ص ١٢٩ وما بعدها)

الاكراد (١)، ويطلق على خاصة جند السلطان الايوبي اسم الحلقة (٢)، فشملت الحلقة بذلك اجنادا من الاحرار ومعاتيق السلطان .

وظلت الحلقة جند السلطان المختارين اوائل عصر المماليك ، ولما انتصر السلطان بيبرس على التتار سنة ٦٧١ ، وعاد الى مصر خلع على امراء الدولة ومقدمي الحلقة ، واعطى كل واحد منهم ما يليق به من الخيل والذهب والحوائص والثياب (٣) . على ان السلاطين الاوائل والامراء احتاجوا الى الاكثار من شراء المماليك والاهتمام بتربيتهم والاعتماد عليهم ، واصبح هؤلاء ينتسبون لاساتذتهم ويحملون اسماءهم. فمن هؤلاء، المعزية الذين ينتسبون للسلطان المعز ايبك الذين كان لهم شأن في استقرار سلطنته في حوادث عزل ابنه علي ، ومنهم كذلك الظاهرية الذين اصبحوا معظم العسكر بعد بضع سنوات من حكم السلطا نالسعيد بن الظاهر بيبرس ، وغدت القلاع الشامية بيد نواب منهم. ولم يستطع قلاون عزل سلامش بن بيبرس عن السلطنة والانفراد بالحكم الا بعد القبض على اولئك الامراء الظاهرية (٤) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ١٢٤
العيني : عقد الجمان مجلد ٤٩ ص ٤٥٧

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص ٢٢
ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢١٧
العماد الاصفهاني : الفتح القسي ص ٢٥

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ١٦٠ — ١٦١

(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٥٦
ابن تغرى بردى : النجو مالزاهرة (ق) ج ٦ ص ٣٧١

ثم تطور لفظ الحلقة حتى صار يدل على الجيش المملوكي الذي ينشئه السلطان دون فئات مماليك الامراء ، واضحت الحلقة اكثر الفئات المملوكية عددا. وربما جاء هذا التطور بسبب انضمام بقايا البحرية الصالحية الى جند الحلقة زمن السلطان قلاون، حيث بلغت عدتها اربعة آلاف ، وذلك في وقعة حمص سنة ٦٨٠ (١) . ثم ازداد عدد اجناد الحلقة بمن انحاز اليهم من التتار المستأمنين والوافدية (٢) ، واقتضت دواعي الحرب احيانا كذلك ان يدخل في الحلقة جماعات كثيرة من الجند الذين غدوا من اهل الصنائع ومن العوام على قول المؤرخين ، ففي سنة ٧٠٠ عاد التتار الى الهجوم على الشام زمن السلطان الناصر محمد بن قلاون ، فكتب السلطان الى نائب الشام باستخدام الجند البطالين بالنيابات الشامية ، وبذا انضم الى الحلقة عند قدومه الى الشام جماعات كثيرة من اهل الصنائع وهي في الاصل من الجند المماليك (٣) . واحيانا يضاف اجناد الامراء الى الحلقة بعد انحلال اقطاعات الامراء عنهم ، فأضيفت اجناد الامير بكتاش الفخري الى الحلقة بعد قطع خبزه سنة ٧٠٥ (٤) .

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٥٨ ، ٦٩٣ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٧٩
ابن واصل : تاريخ الواصليين ص ٤٠٦ أ ، ب
ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٤٢ — ٤٤
انظر كذلك
Pollak : Le Caractère Colonial de l'Etat Mameluok, P. 235

(٣) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٨ ص ١٩٣

(٤) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٦٨ .

اما نظام الحلقة بعد استقرار مدلولها الى مــــا يرادف الجيش المملوكي ، فهو ان كل الف من الاجناد تضـــاف الى امير مـــن امراء المئين في الحروب ، وبذا يصبح الامير مقدم الف اي انه صاحب مائة مملوك في جيش السلطان ومقدم الف من هؤلاء الاجناد (١) ويكون تحت قيادته جماعة من الامراء يقلون عنه في المرتبة ، غير ان سلطة امير مائة مقدم الف لا تكون الا اذا خرج العسكر ، فتكون مواقفهم معه ، ويتولى ترتيبهم في موقفهم ، ولكل مائة في الالف من هذا التنظيـــم باشى او نقيب، ويشرف مقدم الحلقة على اربعين منهؤلاء الاجناد (٢).

وكما تطورت الحلقة نحو الاتساع حتى صارت مرادفة للجيش المملوكي كله ، تطورت المماليك السلطانية نحو التحديد حتى صارت خاصة بجند السلطان ، الذين ينشأون في الطبـــاق . ويتولى السلطان تربيتهم على نحو مـــا تقـــدم في تفصيل . واصبحت فرقـــة المماليك السلطانية اربع فئات ، الاولى تشمل مشتروات السلطان المستقـــر في الحكم ، ويطلق على الثانية المماليك السلطانية لانتمـــاء افرادها الى السلاطين المتقدمين ، والثالثة السيفية وهي فئة المماليك الذين ينتسبون الى الامراء السابقين (٣)، والرابعة المماليك القرانصه او القرانيس وهم الذين قضت الاحوال بعدم تأميرهم الا بعد مـــدة طويلة قضوهـــا

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٦ .
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٦ .
الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٢٢
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٧
(٣) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٦

في الرق والجندية في خدمة بعض السلاطين ، فعاشوا متمتعين بمكانة خاصة ، اذ اعتبروا في منزلــة امراء الخمسات لقدم هجرتهم وصلتهم بالديوان الشريف واستحقاقهم للامرات الكبيرة دون الوصول اليها(١). ثم كان من الطبيعى ان يصبح لفظ المماليك السلطانية دليلا على جميع هــذه الفئات .

وتراوحت عدة المماليك السلطانية مع هذا المعنى الواسع ، فبلغت زمن السلطان بيبرس البندقداري ما يقرب من ستة عشر الف مملوك ، وتناقص عددهم الى نحو اثني عشر الف مملوك زمن السلطان قلاون ، والى اقل مــن ذلك زمن الروك الناصري الذي جرى سنة ٧١٥ (٢) . ويبدو ان عدة المماليك السلطانية ظلت تتناقص مدة البيت القلاوني بعد السلطان الناصر ، وذلك بسبب انتهاء الحروب الصليبية وزوال الخطر المغولى وقصر عهود السلاطين الذين لم يستطيعوا اقتناء مشتروات على عادة السلف ، على حين عكف الامراء على شراء المماليك للاعتداد بها في الحروب الداخلية. ومن الامثلة التوضيحية لذلك أن الامير يلبغا الخاصكي الذي تولى اتابكية العسكر بالديار المصرية زمن السلطان حسن بــن قلاون كــان بخدمته ثلاثة آلاف وخمسمائة مملوك (٣) ، وعدّ ذلك

---

(١) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٥
انظــر Poliak : Feudalism P. 2

(٢) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٦
المقريزي : الخططط ج ٤ ص ٣٥٣ .
ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٠ ، ١٧٣ .

(٣) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٣

من الاسباب التي جعلته يتصرف في امور الدولة ، ويعمل على التخلص من السلطان نفسه في غير خشية مـن مقاومة او منافسة الامراء (١) ، على حين لم يزد عدد عساكر مصر من المماليك السلطانية واجناد الحلقة زمن المقريزي عن خمسة آلاف مملوك ، لا يصح ان يباشر منها القتال الف او دونها (٢) .

وشذت عن هذه التنظيمات فئة لا هي من المماليك السلطانية ولا من مماليك الامراء ، بل هي فئة اولاد الناس ، وهم ابناء الامراء الذين عاشوا في بيوت الامارة والنعمة لا الطباق والتربية الحربية الخشنة . على ان هذه الفرقة اسهمت في الحروب بسهمها المتعيّن عليها . اذ كان الواحد من اولاد النـاس امير خمسة ، وعليه ان يتقـدم الى جيوش السلطان بخمسة مماليك (٣) ، غير انه ينبغي ان يكون ملحوظا ان هذه الطبقة لم تظهر الا بعد جيل على الاقل من قيام الدولة المملوكية ، انما لم يرتفع شأنها الا زمن السلطان حسن بن قلاون بعد ان تخلص مـن خصميه الاميرين الكبيرين شيخون العمري وصرغمتش سنة ٧٥٩ فأخذ في ترقية مماليكه والانعام عليهم ، وترقية اولاد الناس الى الرتب السنية لا محبة فيهم، وانما لانه يعتقد بأن عاقبتهم مأمونة ، وفيهم رفق بالرعية ومعرفة بالاحكام فضلا عن انهم لا يخرجون على طاعة السلطان ، فاذا حاولوا ذلك نهاهم اقاربهم وحواشيهم عن ذلـك خوفا على املاكهم

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٤٣٢ ب ـ ٤٣٤ أ .
(٢) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٣
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٥ .
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥١ .

وارزاقهم على عكس المماليك الذين لم يكـــونوا لانفسهم اسرات ، وظلت هذه الطائفة قائمة حتى آخر العصر المملوكي (١) .

والخلاصة ان الجيش المملوكي تألف من اجناد الحلقة والمماليك السلطانية ومماليك الامراء واولاد الناس بالديار المصرية ، غير انـــه لا يوجد بالجيش المملوكي بالشام طائفة المماليك السلطانيـــة لانهـــم لا يكونون الا بحضرة السلطان (٢) .

اما نظام الاتفاق على هذه الجيوش فخضع لكثير من التعديـــل والتغيير والتطور ، اذ تأثرت دولة المماليك في نظمهـــا بما نقلته عـــن الزنكيين والايوبيين من النظم السلجوقية الاصل فضلا عن غيرها من النظم السابقة على السلاجقة اي نظم الفاطميين في صورة (٣) .

ومن هذه النظم الاقطاع الحربي العام ، اذ المعروف ان نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي هو الذي جعل الاقطاع الحربي عاما في الدولة السلجوقية ، وذلك حين رأى ان الدولة قد اختل نظامهـــا وساءت حصيلة اموالها ، وانه لا بد للجند من اموال وارزاق منتظمة ،

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٣ ، ١٥٩ — ١٦٠
المنهل الصافي ج ٢ ص ٣٥ أ
منتخبات من حوادث الدهور ص ١٧٤ ، ١٧٥
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٣٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٧ ، ٢٦٢ ، ٢٩٤ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٨٢ .

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٦ .

ففرق البلاد على الاجناد اقطاعا وجعل متحصلها لهم، على ان يقدم صاحب الاقطاع عددا من الجند للخدمة في جيش السلطان . وحرص نظام الملك على عدم تركيز الاقطاع في جهة واحدة ، فجعل نصفه أحيانا (١) على بلد في آسيا الصغرى مثلا ، ونصفه احيانا على بلد في أقصى خراسان ثم ما لبثت الاقطاعات ان اصبحت وراثية ، وذلك تشجيعا لاصحابها في البقاء على الجندية. ففي سنة ٥٥٨ أخذ السلطان نور الدين محمود في تنظيم عسكره بعد انهزامهم من الافرنج عند حصن الاكراد، فأقر اولاد الجندي المتوفي على اقطاع أبيهم، فان لم يكن له ولد، جعله لبعض أهله ، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه احد (٢) . واصبح ذلك مبدأ ، فاذا توفي احد الاجناد وخلف ولدا ذكرا ، اقر السلطان اقطاعه عليه . فان كان الولد كبيرا ، تولى اقطاعه وواجباته بنفسه ، وان كان صغيرا رتب السلطان معه رجلا وصيا يكل اليه امره حتى يكبر . وصار الاجناد منذ استقرار هذا النظام يقولون « هذه املاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها » ، وكان ذلك من اعظم الاسباب لصبر الجند في المشاهد والحروب بين يديه (٣) . واهتم نور الدين باثبات

---

(١) البنداري : تواريخ السلاجقة ص ٥٧ ــ ٥٨ .
ابن الاثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٢٤
انظر : Lewis : The Arabs in History p. 148
Lambton : Landlord and Peasant in Persia p. 63

(٢) العيني : عقد الجمان مجلد ٤٩ ص ٣٥٤

(٣) ابن واصل : تاريخ الواصليين ص ١٥٥
ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٩
العيني : عقد الجمان مجلد ٤٩ ص ٥٣٤
المقريزي : الخطط (بولاق) ج ١ ص ٩٥
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٠ ــ ٥١

اسماء اجناد كل امير في ديوانه ، وما لدى الامير وجنده من سلاح ، وحرص ان يكون هذا وذاك في احسن حال من الاستعداد لاحتمال المسلمين النفير في اي وقت ، وذلك لكثرة حروب نور الدين (١) .

ومن انواع الاقطاعات ما يعتبر اقطاعا شخصيا يمنح هبة او منحة مقابل تأدية خدمة حربية او شبه حربية ، من اعمال التعبئة والتنظيم والتأمين واستمالة المجاورين قبل السير للقتال ، ومثال ذلك ما فعله نور الدين لاستمالة ملك الارمن صاحب الدروب المؤدية الى الشام ، اذ بذل له اقطاعا على سبيل الاغراء حتى اجاب الى طاعته وخدمته ومساعدته على الافرنج (٢) . وفي سنة ٥٨٥ قبل صاحب حصن شقيف من الافرنج الدخول في طاعة صلاح الدين وخدمته على اقطاع يعطيه له ، غير انه تبين للسلطان سوء نيته ، فاشتد في حصار الحصن حتى سقط في يده (٣) .

وثمت نوع آخر من الاقطاع مخالف للانواع السابقة ويعتبر اقطاعا شخصيا كذلك ، اذ يمنح للفرد مدى الحياة ، ويصح ان يكون وراثيا ، غير انه من حق باذله ان يسترده اثناء حياة المقطع وفقا للشريعة الاسلامية ، ويدخل في هذا النوع ما يمنح لبعض الطوائف الدينية ، والغرض منهذا النوع من الاقطاعات توفير اسباب الحياة للمقطع دون التزامات حربية ، او ضرائب مقررة . غير ان هذه الاقطاعات الشخصية

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٨

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٨

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٢٣ ، ١٣٥ .

خضعت لقوانين الميراث فتفتت بعد وفاة اربابها بين الورثة (١) .

على ان المقصود بالاقطاع هنا هو ما يتحصل من غلة نقدا وعينا من أراض زراعية او جهة من جهات الايراد . ويعرف هذا النوع عند الفقهاء المسلمين باقطاع الاستغلال ، فاجازوا اعطاءه لاهــــل الجيش مقابل ما هو مقرر لهم من ارزاق تصرف لهم عما يقومون به من الاعمال الحربية . ووضع الفقهاء لذلك شروطا ترتبط بما على الاقطاع من مال الخراج او الجزية ، وتقدير الخراج ، سواء بالمقاسمة او على المساحة فضلا عن مدة الاقطاع ، وحال المقطع اثناء بقاء الاقطاع ، من حيث السلامة والمرض والموت (٢) . ويرى بعض الفقهاء استيفاء نفقات ذرّية المتوفي من ارباب الاقطاع من عطائه الاصلي في ديوان الجيش ، ترغيبا للمقطع في المقام في خدمة السلطان (٣) .

وجرى السلاطين الاوائل في الدولة المملوكية الاولى على قاعدة توريث الاقطاعات لابناء الاجناد ، تشجيعا لهم على استخلاف آبــائهم في الجندية . فضلا عن حاجة السلاطين الى الابقاء عــلى جيش قوي لتوطيد سلطانهم في البلاد ودرء خطر اعدائهم من الايوبيين والصليبيين والتتار بالجهات المجاورة لهم ، ومثل ذلك ما حدث سنة ٦٦٢ حين وقف احد الجند للسلطان الظاهر بيبرس بيتيم ذكر انه وصيه وطلب له رزقا ،

(١) انظـر (Lambton : op. cit. pp. 64-65.)

(٢) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٧٢ ــ ١٧٣ .
ابو يعلى الحنبلى : الاحكام السلطانية ص ٢١٧ ــ ٢١٨ .

(٣) المـاوردى : الاحكام السلطانية ص ١٨٢ .

فقال السلطان لقاضي القضاة ابن بنت الاعز بأن الاجناد اذا مات احدهم استولى خجداشه على موجوده ، ويصبح اليتيم من الاوشاقية، فاذا مات اليتيم اخذ الوصي موجوده ، واذا مات الوصى قبله ذهب مال اليتيم في ماله . ورأى السلطان الا ينفرد احد الاوصياء بوصية ، بل يتولى القاضي تسوية هذه الحقوق، فتصير اموال الايتام مضبوطة بامناء الحكم (١) . وامر السلطان جميع الامراء ونقباء العساكر بتطبيق ذلك (٢) ، وزاد السلطان على هذا الترتيب الجديد ان رتب لايتام الاجناد على كثرتهم ما يكفل لهم العيش (٣) . وامر بيبرس سنة ٦٦٢ بمسامحة بنات الامير حسام الدين الجوكندار بما وجب للديوان في تركة ابيهن وهو مبلغ اربعمائة الف درهم . وقصد بذلك ان يفهم امراءه ان من مات منهم في خدمته وحفظ يمينه ، يبقى على ورثته ما يخلفه (٤) . ووفقا لهذه القاعدة ابقى بيبرس اقطاع الامير شجاع الدين والي سرمين بالشام بين اخوته وغلمانه بعد وقوعه اسيرا عند الفرنج سنة ٦٦٢ كل ذلك استجلابا للقلوب . ولم يقف تشجيع بيبرس لأمرائه واجناده عندذلك، بل أمر بعد استيلائه على قيسارية وعثليت وأرسوف من الفرنج سنة ٦٦٣ انيعلن قاضي دمشق وعدوله ووكيل بيت المال ان ما فتحه الله علىيد السلطان من البلاد صار ملكا للامراء المجاهدين. وجاء في مكتوب التمليك « ويبقى للولد منهم وولد الولد ما يدوم الى آخر الدهر ويبقى على الامير ، ويعيش الابناء في نعمته كما عاش الآباء (٦)» .

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٣٤ — ٣٣٥
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥١٢
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ١٨٠
(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٠٨ — ٥٠٩ .
(٥) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٠٩
(٦) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٣١ .

وفي سبيل الوصول الى السلطة اخذ قلاون بهذه الوسيلة حين اعطى ذراري البحرية الاقطاعات والرواتب (١) .

على ان المصادر المملوكية لم تشر الى التفرقة بين المصطلحات التي تحدد معنى الاقطاع ، من اقطاع بذاته او رزق او خبز او مثال . والمعروف ان هذه الالفاظ عربية صميمة ، كثيرة الورود في كتب الفقه والسياسة الشرعية ، فالرزق اصلا هو ما يتقاضاه الجندي نقدا من بيت المال (٢) . وفي عهد المماليك شمل الرزق جميع ما يصل الى الجندي والامير من الاقطاعات والرواتب والانعامات والتشاريف (٣). والخبز هو ما يحصل عليه الجندي او الامير من عطاء عينا او نقدا او ما يكفيه ويكفي الفرسان الذين في خدمته ، وينتقل المملوك عادة من الجامكية النقدية الى الاقطاعية وهي الخبز، ومثال ذلك المملوك بيبرس الداوادار حين اعطاه الامير قوصون سنة ٦٧١ خبزا عبرته مائة وخمسون اردبا قبل ان يصبح اميرا من الامراء (٤) . وكان خبز الواحد من البرجية زمن السلطان بيبرس الجاشنكير عبرة ما بين الف مثقال وثلاثمائة مثقال في السنة (٥) . وربما اعطى السلطان خبز مائة فارس لامير من الامراء . قبل ان يصبح امير مائة او بعد عزله من الامرة تأليفا

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٥٨ .
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٨٨ .
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٠ .
(٤) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ١٠٨ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٤٢٠ .
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ١٤٦ .

للقلوب او سدا لباب الشر ، مثلما فعل السلطان قلاون مع سنقر الأشقر نائب الشام بعـــد هزيمته واستسلامه سنة ٦٨٦ (١) ، وكذلك اعطى السلطان الناصر محمد بن قلاون خبز مائة فارس للامير آقوش الافرم قبل ان يتولى نيابة الشام سنة ٧٠٩ (٢) .

فالاقطاع المملوكي مصدر دخل سنوي للامير او الجندي بمـــا يعادل رتبته الحربية . ويحصل على هذا الاقطاع من السلطان وديوان الجيش . ونظرا لان الزراعة في مصر هي المصدر الاول للثروة ، فمعظم الاقطاعات اراضي زراعية في جهات آهلة بالسكان يرد ذكرهــــا في منشور الاقطاع . ورغبة في ضبط الاقطاعات وعدم استمرار اراضي معينة في اقطاع معين ، وعدم استمرار بعض الاقطاعــــات في ايدي الوارثين ، لجأ سلاطين المماليك الى مـــا يعرف بالروك لاعادة توزيـــع الاراضي بين السلطان وارباب الاقطاع (٣) . ولم تكن هـــذه الفكرة مجهولة عند المغول والسلاجقة ، واساسها ان الزعامة عندهم سيـــادة على القوم لا امتلاك الاراضي ، ويتولى شيخ القبيلة توزيع المراعـــي بين بطونها وفقا للعرف والتقاليد . ونقل السلاجقة والمغول هذا النظام الى الجهات التي خضعت لهم ، رغم ما دخل عليـــه من بعض التعديل نتيجة لاصطدامهم بنظم وحضارات فيهذه الجهات. فالذين حصلوا على اقطاعات انما حصلوا عليها بمحض رغبة السلطان ولا يترتب عليهـــا

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٢٥٥ .
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٦٠

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ١١٠

(٣) انظـــر : Pollak : Feudalism pp. 23-25

حقوق ، والسلطان مطلق الحرية في الابقاء على الاقطاع في يد صاحبه او نزعه منه (١) .

غير ان تفاصيل تنفيذ فكرة الروك انما جاءت من نظـام تقسيـم الاراضي وتوزيعها الذي يجري بين سكان القرية منذ القديم ، اذ تقرر فرض الضرائب على قاعدة ما تنتجه مساحة معينة من المحصول (٢) .

واشهر عمليات الروك بالديار المصرية في الدولة المملوكة ما جرى زمن السلطان حسام الديـن لاجين سنة ٦٩٦ وزمن السلطان الناصر قلاون سنة ٧١٥ (٣) .

ومن المعروف ان ارض مصر انقسمت اربعة وعشرين قيراطـا اختص السلطان المملوكي منها باربعة قراريط لخاصته ولما يكلفه مـن الانعامات والكلف والرواتب ، ومنها عشرة قراريط للامراء والاطلاقات والزيادات ، والعشرة قراريط الباقية اختص بها اجناد الحلقة (٤) . غير ان الامراء اغتصبوا كثيرا من اقطاعات الاجناد واضافوها الى دواوينهم ، واضطر فريق من الاجناد الذين يقطنون في المدن بعيدا عن اقطاعاتهم أن يعهدوا بحماية هذه الاقطاعات الى أشخاص اقوياء يباشرونها لهـم

---

(١) Lambton : op. cit. p. 77

(٢) Bell : Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest. p. 99.

(٣) انظـر : Poliak : Feudalism p. 24

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٩٢ .
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٤٢
الخطط (بولاق) ج ١ ص ١٤١

مقابل اجر يحصلون عليه من الفلاحين، ويخصم من المقرر عليهم لصاحب الاقطاع (١) . ولما لنائب السلطنة من السلطة في توزيع الاقطاعات ، كان من الطبيعي ان يرتفع شأنه ويضخم امره ويخص نفسه باوفر نصيب منها. ومثال ذلك ان الامير بيدرا الذي تولى نيابة السلطنة للسلطان خليل بن قلاون سنة ٦٨٩ أخذ اقطاع الامير حسام الدين طرنطاي بعد اعتقاله وقتله ، فاجتمع له عدته ومشترواته وحماياته بنواحي الاعمال فضلا عما استجده بيدرا من اشياء كثيرة من نواح اشتراها لديوانه من مقطعيها وبلاد استولى عليها. وانبسطت أيدي نوابه في الاعمال فجمعوا له كثيرا من وجوه الاموال بحيث لم يبق اقليم الا ومعظمه في ايديهم ، والمقطعون لا يصل اليهم من اقطاعاتهم الا ما يتصدقون به عليهم . فأصابهم كثير من الضرر ، وتكررت شكواهم (٢) . يضاف الى ذلك ما اتبعه السلاطين الاوائل من سياسة استمالة كبار الامراء بمنحهم عدة اقطاعات او زيادة مقاديرها ، ومثال ذلك ما فعله السلطان خليل بن قلاون مع المقربين اليه ، فزاد في اقطاع الامير سنجر الشجاعي نائب الشام ، وأذن له ان يطلق من الخزائن ما اراد من غير مشاورته (٣) كما عين للامير بيسرى الصالحي اقطاعا وافرا، وأنعم عليه بالاموال وأنواع الثياب بعد أن أفرج عنه سنة ٦٩٠ (٤) . على ان انخفاض النيل الذي تكرر حدوثه ابان الحكم المملوكي كان له اكبر الاثر في تعطيل الزراعة وهلاك كثير

(١) Poliak : Feudalism p. 25
(٢) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٢٨٠
المقريزي : الخطط (بولاق) ج ١ ص ١٤١ — ١٤٢ .
(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٦٧ — ٧٦٨ .
(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧٧٩ — ٧٨٠ .

من السكان والدواب (١) . ودعت هذه العوامل الى نقص ما يتحصل من الاقطاعات، فصار اكثرها يبلغ عشرين الف درهم، بعد انكان ينيف على ثلاثين الف درهم (٢) ، وهذا هو السبب المباشر للروك الحسامي. اذ اجتمع رأى السلطان لاجين ونائبه الامير منكوتمر سنة ٦٩٧ على روك النواحي والجهات وسائر المعاملات وجميع الاقطاعات وتجديد ترتيبها . فرسم بجمع الدواوين والكتاب والمستوفيين برياسة مستوفي الدولة تاج الدين الطويل وهو من مسالمة القبط ، لتحرير المقترحات الروكية وتحقيق خراج الديار المصرية وتعيين مقادير نواحيها ومساحة ضواحيها وجملة متحصلاتها وعقد معاملاتها وريع اموالها وغلاتها (٣) . وطلب الامير منكوتمر الى مستوفي الدولة بأن يجعل للامراء والاجناد عشرة قراريط ، وان يفرد القيراط الحادي عشر برسم من يتضرر من قلة عبرة خبزه ، وان يعين تسعة قراريط لاقطاعها لعسكر يقيمهم السلطان. اما ما تبقى من القراريط فيختص بها السلطان . فافرد للسلطان الاعمال الجيزية والاطفيحية والاسكندرية ودمياط ومنفلوط وكفورها ، وهو والكوم الاحمر من اعمال القوصية، وجعل للنائب منكوتمر اقطاعا عظيما، من جملته مرج بني هميم وكفورها وسمهود وخرجة قوص ومدينة ادفو ، وما في هذه النواحي من الدواليب . ومتحصل هذه النواحي ينيف على مائة الف أردب وعشرة آلاف اردب من الغلة ، فضلا عما في حوزته من

---

(١) المقريزي : اغاثة الامة ص ٣٢ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ .
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٤٩ .
(٣) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٣٤٠ .
لقلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٨ .

معاصر القصب التي يبلـغ عددها سبعا وعشرين معصرة ، وما له من المشتريات والمتاجر ، ويضاف الى ذلك ما له ببلاد الشام مـن الضياع والعقار وما يرد اليه مـن التقادم (١) . أما الامراء والاجنـاد فاخذوا اقطاعاتهم فيما تبقى من البـلاد ، ولم يستثن منهـا سوى الجوالى والمواريث الحشريـة التـي دخلت في جملـة الخاص السلطانـي ، وسوى الرزق الاحباسية (٢) . ورد السلطان ما اغتصبه الامراء مـن اقطاعات الاجناد واخرجها باسرها من دواوينهم فبطلت بذلك الحمايات (٣)

على ان اجراء هذا الروك الحسامي لم يحقق الغاية التي يهدف اليها ، لما انطوى عليه من اخطاء اودت بحيـاة السلطان لاجين نفسه وبحياة نائبه منكوتمر. ومن هذه الأخطاء قلة ارزاق الاجناد، فصار اكثر الاقطاعات لا يتحصل منه سوى عشرة آلاف درهم (٤) ، واختصاص السلطان ونائبه بالاراضي الخصيبة، فضلا عن ان القراريط التسعة التي بقيت خير من الاحد عشر قيراطا المقطعة (٥) ، يضاف الى ذلك عـدم وفاء السلطان ومنكوتمر بما التزماه من انشاء جيش قوي، انما اكتفيا

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٤١ ــ ٨٤٤ .
الخطط (بولاق) : ج ١ ص ١٤١ ــ ١٤٢ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٩٢ .
بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٣٤١ .

(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٤٤ ــ ٨٤٥ .

(٣) المقريزي : الخطط (بولاق) ج ١ ص ١٤١ ــ ١٤٢
السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٤٦

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٩٥

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٩٢
بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٣٤٠ .

باستمالة الامراء الساخطين عليهم بالانعام عليهم ببلاد من تلك التسعة قراريط (١) . ولما كتبت المثالات ، تولى منكوتمر توزيعها كيفما شاء . فكل من د فع له مثال لا سبيل الى المراجعة فيه ، وترتب على ذلك ان العدالة لم تأخذ مجراها . فمن الجند من سعد ومنهم من شقى ، وانتقل بعضهم من بلاد عامرة الى جهات غامرة ، ومن متحصلات وافرة الى نواح خربة ، وفاز بعضهم باكثر مما قصد (٢) . فشق ذلك على الجند ، وتجمعت طائفة من اهل القوة والشجاعة فيهم ، فتقدموا الى منكوتمر ورموا مثالاتهم ، واعلنوا عدم رضاهم عن هذه الاقطاعات وهددوا بالانقطاع عن خدمة السلطان وبالعمل عند الامراء او بالبقاء بطالين. فحنق عليهم منكوتمر ، وامر الحجاب فضربوهم، واخذوا منهم سيوفهم وسجنوهم . ولم يكتف منكوتمر بما اتخذه من وسائل العنف لاذلال الجند ، بل هدد الأمراء بقطع اخبازهم اذا سلكوا نفس الطريق فسكتوا على مضض وضغينة . ولما بلغ السلطان ما فعله منكوتمر انكر عليه ذلك ، وامره بزيادة اقطاعهم والافراج عنهم ، غير انه لم يفرج عنهم الا بعد الالحاح الشديد من السلطان . ويعتبر هذا الروك سببا كبيرا في اضعاف الجيش وزوال الدولة المملوكية (٣) . فمن المتاعب التي خلفها هذا الروك للسلطان الناصر محمد بن قلاون عند عودته للسلطنة سنة ٦٩٨ ، اشتداد العداء العنصري بين المماليك من الترك والجراكسه ،

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٩٢
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٩١
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٩٥
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٤٦

اذ ارتفع شأن البرجية بفضل زعيمهم الامير بيبرس الجاشنكير الاستادار، فشرعوا فيأخذ الاقطاعات وصارت لهم الحمايات الكثيرة، وتردد الناس اليهم في الاعمـــال ، وتأمر عدد كبير منهـــم (١) . ولم يكد بيبرس الجاشنكير يتولى السلطنة سنة ٧٠٨ بعد ان عزل الناصر نفسه والتجأ الى الكرك ، حتى عمل على توطيد سلطانه بأن قبض علـــى اكثر مـــن ثلاثمائة مملوك واخرج اخبازهم ، كما قطـــع اخباز المماليك الذين تسحبوا من مصر ولحقوا بالناصر بالكرك ، ولم يكتف بذلك بل اخرج عدة من المماليك السلطانية الى الصعيد واخذ اخبازهم (٢) .

وادرك السلطان الناصر محمد بن قلاون بعد عودته الى السلطنة سنة ٧٠٩ ما انطوت عليه سياسة بيبرس من خطورة ، وفي الوقت نفسه خشيوقوع الفتنة اذا اخذاقطاعات البرجية، لما بلغوهمن القوة والسلطان. فقرر مع ناظر الجيش سنة ٧١٥ روك البـــلاد ، واخراج الامراء الـــى الاعمال (٣) . واستدعى كل امير عند نزوله بالبلد المشايخ والدلالين والقياسين والعدول. وقدر سجلات كلبلد وعرف متحصلها. ومقدار ما تنتجه منمحصول ومبلغعبرتها، وما يتحصلمنها للجنديمنالعين والغلة والاوز والخراف والكشك والعدس والكعك وغير ذلك من الضيافة

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٧٥ – ٨٧٦ .

(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٤٧ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٦٩ .

(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ١٤٦ .

فاذا حرر ذلك كله ، ابتدأ بياس تلك الناحية وغنداقها — اى مساحة الاراضي المزروعة (١) ، وفصل ما فيها من الخاص السلطاني وبلاد الامراء واقطاعات الاجناد والرزق ، وكتب بذلك عدة نسخ . واستمر العمل نحو خمسة وسبعين يوما ، عاد بعدها الامراء بالاوراق ،التى تسلمها ناظر الجيش الذي تولى بمساعدة كاتب السر وسائر مستوفي الدولة تحرير اوراق تشتمل على بلاد الخاص السلطاني التي عينها لهم السلطان ، وعلى اقطاعات الامراء . وطلب اليهم السلطان ان يضيفوا الى عبرة كل بلد ما هو مقرر على فلاحيها من ضيافة لارباب الاقطاع فضلا عما بها من الجوالى ،وهى الجزية التى تؤخذ من اهل الذمة،والتى اختص بها قبل الروك ديوان خاص (٢) . وتبين عند تحرير المثالات ان اجنادا كثيرين اخذوا اقطاعاتهم من جهات اخرى للدخل ،ومن الامثلة على ذلك انه بلغ ما تحصل من المكوس على ساحل الغلة اربعة آلاف وستمائة الف درهم ، فأقطع هذا المقدار لاربعمائة جندي من اجناد الحلقة سوى الامراء ، تراوح اقطاع الجندي منهم من عشرة آلاف الى ثلاثة آلاف درهم ،واقطاع الامير من اربعين الف الى عشرة آلاف درهم ، فضلا عما اقتناه المباشرون من هذه المكوس من الاموال العظيمة . واخذ بعض الاجناد اقطاعا مما تحصل من نصف السمسرة ، ويقصد بها ان من باع شيئا فان دلالة كل مائة درهم درهمان ،منها درهم للسلطان ، ودرهم للدلال ، فصار الدلال يجتهد في تخليص درهمه قبل درهم

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٨ .

(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ١٤٦ .
الخطط (بولاق) : ج ١ ص ١٤٢ .

السلطان . واخذت طائفة من الجند والامراء اقطاعاتها مما يتحصل من رسوم الولايات والمقدمين والنواب والشرطية التى تجبى من عرصات الأسواق وبيوت الفواحش (١) . كما اختص عدة مقطعين بما يجبى من المدينة والوجهين البحرى والقبلى برسم اثمان الحوائص والبغال ، وبما يفرض على السجناء من غرامات، وما يدفعه ضامن الفراريج من خراج مقابل احتكار بيعها ، وما تقدمه الاقاليم برسم الهدايا للولاة والمقدمين وهو المعروف بمقرر الفرسان ، فضلا عن الضرائب المقررة على الاقصاب والمعاصر وما يؤخذ من رسوم الافراح وهي الحانات (٢) ، وما يجبى من سائر المراكب التي تسير بالنيل وهو المعروف بمقرر الحماية ويدفعه المسافرون بالمركب (٣) . ومن المكوس الاخرى التى اخذ منها الجند اقطاعاتهم ما يتحصل من البغايا والمنكرات والفواحش من رسوم ، وضمان تجيب مصر وشد الزعماء وحقوق السودان ، وما يجبى من كل عبد وجاريه عند نزولهم في الحانات ، ومن متوفر الجراريف في الاقاليم، وما يدفعه المشاعلية مقابل تنظيف أسربة البيوت والحمامات والمسامط ، وما يجبى برسم ثمن العبي ، وثمن ركوة السواس . فابطل السلطان الناصر محمد بن قلاون جميع هذه المكوس (٤) ، لان الكتاب من النصارى جعلوا ما يتحصل منها باسم الحوائج خاناه . حتى يتصرفوا في النفقات كيفما شاءوا (٥) . كما الغى السلطان وظيفتى النظر

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٤٦ .
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١٣ ص ٣٣ — ٣٤ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٤٧ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٤٨ .
(٥) المقريزى : الخطط (بولاق) ج ١ ص ١٤٢ .

والاستيفاء في سائر الأعمال ، ورسم الا يستخدم احد في اقليم ليس للسلطان فيه مال . ثم رسم السلطان الناصر بالتنازل عما تبقى من الاموال الديوانية والاقطاعية في سائر النواحى حتى سنة ٧١٤ . وجعل الروك الهلالي لاستقبال صفر سنة ٧١٦ والروك الخراجي لاستقبال ثلث مغل سنة ٧١٥ . (١) وافرد السلطان لخاصته الجيزية واعمالها . وافردت الجهات التى بقيت من المكوس كلها واضيفت الى الوزير ، وأفردت للحاشية بلاد ،ولجوامك المباشرين بلاد، ولارباب الرواتب جهات.ودخل في الاقطاعات بلاد اشتراها بعض الامراء او الاجناد لانفسهم من بيت المال ثم حبسوها (٢) . واضيف الى الاقطاع ما يستهديه المقطع من فلاحيه وابطلت الهدية (٣) . وارتجع السلطان ما اشترته المماليك البرجية من أراضى الجيزة وغيرها ، وجرد الأميرين بيبرس الجاشنكير

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٤٩ — ٥٠ .
جرت العادة باثبات هذا النقل في الدواوين منذ قديم الزمن على عهد الخلفاء والسلاطين . والسبب في ذلك هو ان ادراك الغلال واعتصار الاقصاب وقبض الخراج انما يجري وفقا للسنة الشمسية . اما عقد الضمانات واقساط المعاملات فيسير على حكم اشهر السنة القمرية ، وبين السنتين الشمسية والقمرية تفاوت في عدد السنين والحساب ،فاذا مضى ثلاث وثلاثون سنة زحفت السنة الى السنة الشمسية، فيتطلب ذلك تحويلها بالاقلام والدواوين (بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٣٤٢) .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٥٠ .
العيني : عقد الجمان مجلد ٦١ ص ٥٤ .

(٣) المقريزى : الخطط (بولاق) ج ١ ص ١٤٥ .

وسلار من اقطاعاتهما، واخذ ما بيد حواشيهما وجعلها كلها اقطاعات(١).
وبلغ مجموع ما اختص به السلطان عشرة قراريط ، وصارت اقطاعات
الامراء والاجناد اربعة عشر قيراطا موزعة في انحاء البلاد ، مما يجلب
للجندي التعب وكثرة التكاليف في الجباية (٢) .

ثم جلس السلطان الناصر محمد بن قلاون بالايوان بالقلعة في ٢٨
ذى الحجة سنة ٧١٥ لتفرقة المثالات ، فاخذ كل مقدم يقدم مضافيه ،
كل واحد باسمه الى السلطان ، فيعطيه مثالا يلائمه بعد ان يقف منه على
كثير من الامور التي ترتبط باصله وقدومه الى الديار المصرية والتاجر
الذي جلبه والوقائع التي اشترك فيها ، ويناقشه فيما تعلم من فنون
الفروسية ، ومدى مهارته في لعب الرمح ، ومدة اقامته في الطبقة
بالقلعة . واذا لم يقتنع السلطان باجابة المملوك ، رسم له بجامكيه هينه
حتى يصل الى رتبة من يستحق الاقطاع (٣) . ولم يقطع الناصر في
هذا العرض العاجز عن الحركة ، انما رتب له ما يقوم به عوضا عن
اقطاعه ، وجعل جهة مكس قطيا لضعفاء الأجناد ممن قطع خبزه ، وقرر
لكل منهم ثلاثة آلاف درهم في السنة ، وانتهت تفرقة المثالات في آخر
المحرم سنة ٧١٦ فتوفر نحو مائتي مثال (٤) . ثم أخذ السلطان في عرض

---

(١) المقريزى : الخطط (بولاق) جـ ١ ص ١٤٢
(٢) المقريزى : الخطط (بولاق) جـ ١ ص ١٤٢
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٩ ص ٥٢
المقريزى : الخطط (بولاق) جـ ١ ص ١٤٥
(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٢ ص ١٥٦
الخطط (بولاق) جـ ١ ص ١٤٦
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٩ ص ٥٣

مماليك الطباق ، ووفر جوامك عدة منهم ، وقطع عدة رواتب من رواتبهم وعوّضهم عن ذلك اقطاعات : ومما امر به السلطان اثناء العرض الا يرد احد مثالا اخذه مهما قل مقداره ، ولا يشفع امير في جندي ، وكل من خالف ذلك لقي جزاءه ٠ من الضرب والحبس والنفي والحرمان من الاقطاع (١) ٠

ووفقا لهذا الروك صار تقسيم الجيوش بالديار المصرية على النحو الآتي :

عدد امراء المئين ومقدمي الالوف	٢٤ أميرا منهم ٨ من الخاصكية ١٤ من الخرجية ، ويضاف اليهم نائب السلطنة والوزير ٠
عدد مماليكهم	٢٤٠٠
امراء طبلخاناه	٣٠٠ أمير منهم ٥٤ من الخاصكية ١٤٦ من الخرجية ٠
مماليك امراء الطبلخاناه	٨٠٠٠
الكشاف والولاة بالاقاليم	١٤
امراء العشرات	٢٠٠ منهم ٣٠ من الخاصكية ١٧٠ من الخرجية ٠
عدد مماليك امراء العشرت	٢٠٠٠

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ١٥٦ ٠
الخطط (بولاق) ج ١ ص ١٤٦
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٥٣ — ٥٤ ٠

ولاة الاقاليم	٧
عدد مماليك ولاة الاقاليم	٧٠
عدد مقدمي المماليك السلطانية	٤٠
عدد المماليك السلطانية	٢٠٠٠
عدد مقدمي اجناد الحلقة	١٨٠ المقدم يشرف على ٤٠ جندي
عدد نقباء الحلقة	٢٤ النقيب يشرف على ١٠٠ جندي
عدد اجناد الحلقة	١٠٩٣٢ (١)

اما مقادير الاقطاع وفقا للروك الناصري فكان تقديرها بالدنانير الجيشية ، والدينار الجيشى نقد فرضى قديم،بلغ زمن هذا الروك من عشرة دراهم الى سبعة دراهم (٢) . وتبعا لهذا بلغ اقطاع امير مائة من ١٠٠ ألف الى ٨٥ألف دينار جيشى ،أما الطبلخاناه فمن أربعين الى ثلاثين الف دينار ،وأعلا اقطاعات امراء العشرات،عشرة آلاف دينار واقلها سبعة آلاف دينار . وأخذ المماليك السلطانية من ١٥٠٠ دينار الى ٦٠٠ دينار في السنة ، وخص جندي الحلقة من ٩٠٠ دينار الى ٤٠٠ دينار في السنة(٣).

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٤ .

(٢) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٤ .
صار سعر الدينار الجيشى سنة ٧٧٣ (١٣٧٥) ٢/١ر١٣ درهم ، وظل هذا الدينار مستعملا للدلالة على ما يتحصل من خراج البلاد الداخلة في الأقطاع الخاص بالجيش ، وكان للاقطاع المخصص بالاسطول نقد فرضى آخر هو دينار الاسطول (المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ ، ص ١٥٦)
انظر أيضا Poliak : Feudalism p. 21

(٣) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٥ .

فيتضح من ذلك كله ان جميع ما بالديار المصرية من بلاد ونواح وجهات دخل في حساب اقطاعات السلطان والامراء وغيرهم من الجند ، ولم يخرج منها الا النزر اليسير الذي حبسه واوقفه بعض السلاطين السابقين على الجوامع والمدارس والحدائق .

فالاقطاعات التي اختص بها السلطان ودخلت في الدواوين السلطانية تقع في اربعة اصناف .

اما الصنف الاول فيشرف عليه ديوان الوزارة ويشمل ارض الجيزة ومنفلوط وغالب خراجها نقد يصل الى بيت المال للانفاق على دار الوزارة ، وباقى هذا الخراج قمح او غيره من الغلة . وفي ارض الجيزية تكون الاطلاقات لربيع الخيول السلطانية وخيول الامراء والمماليك السلطانية . اما منفلوط فهى اكثر متحصلا ، وغالب خراجها غلة من قمح او فول او شعير . وحملت الغلة الى الاهراء السلطانية بالفسطاط للصرف منها على الطواحين السلطانية والمناخات بالقاهرة والاسكندرية وبعض البلاد المتعلقة بالاقطاعات السلطانية (١) .

والصنف الثاني يشرف عليه ديوان الخاص الذى انشأه السلطان الناصر محمد بن قلاون حين ابطل الوزارة ، فصارت أراضى الجيزية والمنفلوطية داخله تحت اشراف هذا الديوان فضلا عما اضيف اليها من البلاد واهمها الاسكندرية وتروجه وفوه ونستروه ، ويحمل ما يتحصل

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٥ .
انظر Poliak : Feudalism p. 4

منها جميعا من المال الى خزانة الخاص للصرف على وجوه الاقطاع . وظلت الحال بشأن الغلة على ما كـانت عليه من الحفظ في الاهراء السلطانية لتوزيعها على المرافق الاقطاعية للسلطان ، ومن اعمـال هذا الديوان كذلك ما يقدمه للمماليك السلطانية من الأضاحى والمـؤن والكسوة احيانا (١) .

وفي عهد السلطان برقوق تطور الاقطاع مرة اخرى بانشاء الديوان المفرد الذي افرده السلطان بلادا معينة ، ورتب عليها نفقة مماليكه من جامكيـات وعليق وكسوة (٢) .

اما الصنف الرابع من هذا النظام الاقطاعي فاختص به ديـوان الاملاك الذى احدثه السلطان برقوق كذلك ، وافرد له بلادا اسماها املاكا ، واقام لها استادارا ومباشرين .ولم يكن في هذا الديوان كثير من وجوه الصرف في نفقة او جامكية او كلفة الا مـا يتطلبه موظفو الادارة بهذا الاقطاع (٣) .

اما اقطاعات الامراء والجند فشملت بقية الديار المصرية مـن الاراضي والمدن والقرى ، واختلفت هذه الاقطاعات في قدر عبرة الامير او الجندي المقطع عليها ، فبلغت بعض الاحيان عشرة بلاد ، وبلغـت

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٦
الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٠٨ – ١٠٩ .
انظـر Poliak : Feudalism p. 5

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٧ .
انظـر Poliak : Feudalism p. 5

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٧ .

أحيانا بلدا واحدا ، وما دون ذلك يقطع للمماليك السلطانية ، ولذا كثر اشتراك اثنين أو أكثر من اولئك المماليك في بلد واحد . ويأتي اجناد الحلقة في الطبقة الثالثة في هذا التوزيع ، فتجمع الجماعة منهم في البلد الواحد ويدخل المقطعون من العربان بالبحيرة والشرقية من ارباب الادراك وملتزمي خيل البريد في طبقة اجناد الحلقة (١) .

وديوان الجيش هو المسؤول عن هذه الاقطاعات ، اذ يثبت كاتب الجيش اسماء ارباب الاقطاعات من الامراء والمماليك السلطانية واجناد الحلقة وامراء التركمان والعربان في سجل يطلق عليه الجريدة الجيشية، فيذكر اسم المقطع وابتداء امرته او جنديته مع الاشارة الى ما يقابل هذا التاريخ من السنة الخراجية التي يحاسب بمقتضاها فيما يتحصل من اقطاعه ، وكيف انتقل اليه الاقطاع ، ويرمز قبالة كل اسم الى عبرة اقطاعه . وجرت العادة عند اثبات اسماء التركمان او البدو بايراد ما يؤديه كل منهم الى الاصطبلات السلطانية والمناخات من الخيل والجمال ، وما يقدمه عربان مصر من المقرر عليهم من التقادم واقامة خيل البريد في المراكز ونقل الغلال (٢) .

ويحرر كاتب الجيش سجلا آخر يختص بالاقطاع ، يبين فيه ما يشتمل عليه كل بلد او قرية من الضياع والكفور والجزائر والجروف وجهات الخراج والجوالى وغير ذلك من المعالم والحدود ، ويذكر عبرة البلاد

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٧ — ٤٥٨ .
(٢) النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

الجيشية وما استقر عليه حال متحصلها (١) وفي جريدة ثالثه بدون كاتب الجيش اسماء ارباب الاقطاعات التي ليست ارضا زراعية بل نقودا ومكيلات حتى يقف على ما هو مقرر لكل منهم في منشوره (٢).

ويقسم ديوان الجيش أجناد الحلقة جماعات بحسب مقدميهم ، كما يضيف كل جماعة من امراء الطبلخانات وامراء العشرات ومقدمي الحلقة ومضافيهم الى مقدم كبير من امراء المئين ، فيضع لهاتين الطائفتين جريدة (٣) .

اما اجناد الامراء فيحصيهم كاتب الجيش من دواوين الامراء على أوراق بعدة اجناد كل امير ، للوقوف على ما يخص الامير في النواحي والجهات ، وما عليه للجندي من نقد وكيل في اقطاعه ، اذا نص المنشور على ذلك (٤) . ولهذه الاوراق أهمية خاصة ، اذ بمقتضاها يعرض كاتب الجيش جند كل امير على السلطان بحضور الامراء ، فمن اجاز السلطان عرضه ، تثبت قبالة اسمه صفاته ، فيعين سنه ولونه وقامته ، ويصف ما يمتاز به عن غيره من أثر في وجهه أو غير ذلك،كما يذكر تاريخ عرضه امام السلطان ٠ ويستحق هؤلاء الجند الاقطاعات والنقود من تاريخ عرضهم واثباتهم في الديوان . ويستحق الامير اقطاعه من تاريخ منشوره . فان مات جندي أو فارق الخدمة أقام الامير عوضه مملوكا جديدا لعرضه على السلطان واثبات اسمه بالديوان ، وذلك مرة على

(١) النويرى : نهاية الارب جـ ٨ ص ٢٠٢
(٢) النويرى : نهاية الارب جـ ٨ ص ٢٠٣
(٣) النويرى : نهاية الارب جـ ٨ ص ٢٠٣
(٤) النويرى : نهاية الارب جـ ٨ ص ٢٠٧ ٠

الاقل كل عام حتى يقف السلطان على ما حدث من التغيير والتبديل (١).

ويجري توزيع الاقطاعات عادة عند ارتقاء السلطان دست السلطنة، او أثناء الفتن الداخلية رغبة من السلطان في اجتذاب عدد كبير من الامراء الى جانبه ، أو اثناء قيام أحد الامراء بتدبير المملكة نيابة عن السلطان الذي لم يبلغ سن الرشد ، أو عند انحلال الاقطاع بسبب وفاة صاحبه أو مصرعه (٢) .

وجرت العادة في احوال توزيع الاقطاعات ان يأمر السلطان ناظر الجيش بالكتابة للمستحق للاقطاع ، فيحرر الناظر ورقة مختصرة تسمى المثال مضمونها « خبز فلان كذا » ثم يكتب فوق ذلك اسم المستقر له ، ويناولها للسلطان فيصدق عليها بخطه بلفظة «يكتب»، ثم يعطيها للحاجب لتسليمها للمقطع ، وعند ذلك يقبل المقطع الارض . ثم يحفظ هذا المثال بديوان الجيش ، ويتولى كاتب الجيش تحرير مثال جديد يعرف بالمربعة الجيشية ، يتضمن أمر السلطان بأن يقطع ويقرر باسم فلان ما رسم له به من الاقطاع والنقد والكيل ان وجد ، خارجا عن الجوالى والمواريث

---

(١) النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٠٧ .
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥١ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٨٠ ، ٣٥٢ ، ج ٢ ص ٣ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٤١ ، ٢٤١ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩ ، ٢٤٦ ، ٥٤٢ .
منتخبات من حوادث الدهور ١٧٨ ، ١٨٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ .
انظر Poliak : Feudalism p. 28

الحشرية والرزق الاحباسية ، ان كان الاقطاع بالديار المصرية او عن الوقف والملك ان كان بالشام . ثم يبين المثال حال الاقطاع ان كان منقولا عن احد او من الخاص او كان مستجدا ، ويذكر به خاصته وعدته واتباعه او انه خاص به وحده ، ثم يعين جهات الاقطاع . ويثبت هذا المثال الثاني في الديوان وتشمله علامة السلطان ونائبه . ثم يخلّد هذا المثال الثاني بديوان الانشاء ، وبمقتضاه يكتب المنشور الاقطاعي وتشمله علامة السلطان وخط نائبه ووزيره ، ويكمل بخطوط كتاب ديوان الجيش بعد المقابلة على حجة أصله (١) .

وقام نائب دمشق مقام السلطان في عطية توزيع الاقطاعات بالبلاد الشامية دون أن يكون للنائب حق في ترشيح أحد. فاذا مات امير، اخبر السلطان لاقرار عوضه ممن هو في حضرته بالقاهرة او في خدمته بالبلاد المصرية والشامية. واذا مات أحد من جند الحلقة استخدم النائب عوضه دون الرجوع اولا الى السلطان . فيكتب المثال للمقطع على نحو ما هو جار في ديوان الجيش ، ويجهز مع البريد الى حضرة السلطان لمراجعته بديوان الاقطاع ، فان امضاء السلطان تكتب المربعة من ديوان الاقطاع ، ويحرر بمقتضاها المنشور كما تقدم وصفه (٢) .

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٣ .
التويري : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .
القلقشندي : صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٥٤ .
انظر Poliak : Feudalism: p 30

(٢) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٣ .
النويري : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٠٩ — ٢١٠ .
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٠ — ٥١ .

ومن الاوراق الرسمية الخاصة بديوان الجيش في امر الاقطاع القصة والنزول فالقصة هي طلب من جندي للحصول على اقطاع أو اعلان بخروجه عن اقطاع بيده او طلب باعادته الى اقطاع خرج عنه . اما النزول ويسمى كذلك الاشهاد فهو تنازل جندي عن اقطاع لجندي آخر ، ويشمل كذلك المقايضة أو الاشتراك في الاقطاع (١) .

وصار انتقال الاقطاعات بطريق القصة أو النزول أمرا مألوفا منذ أواخر عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون ، وذلك لان الروك الناصري خيب رغبات المستحقين ، فأخذ الكثيرون اقطاعات دون التي كانت بايديهم ، ولم يتجاسر احد منهم ان يتقدم بالشكوى الى السلطان خوفا من انزال العقاب به (٢) . وترتب على ذلك ان كثر القاء الشكاوى المجهولة بالاسطبل السلطاني احتجاجا على ما جرى من سوء التوزيع ، وباع أولاد الناس الاقطاعات التي باسمائهم وصاروا يسألون الناس الحاجة . واحتجت طائفة من أجناد الحلقة على استيلاء ديوان الجيش على ما زاد علي مساحة اقطاعاتهم بسبب تحسن الري والزراعة واضافتها الى المماليك السلطانية (٣) . يضاف الى ذلك أن السلطان اخرج جميع أخباز الجند المقطعة على الحكر، وانعم بها على بعض الامراء فجعلوها أوقافا على الجوامع التي انشأوها (٤) . كما انه اغدق

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٥٣ — ١٤٥ .
انظر : Poliak : Feudalism p. 30
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ١٥٦ .
(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٢٢٨ ، ٢٣١ .
(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥١٨ .

الانعامات والمنح على المقربين له من الامراء والمماليك السلطانية والخدام والجواري ، ومثال ذلك اقطاع الامير يشبك الناصري الذي بلغ سبع عشرة طلبخاناه أي ما يقرب من اقطاع سبع امراء من طبقـة امـراء المئين (١) . ثم ان الاحوال الاقتصادية ساءت على عهد السلطان شعبان ابن الناصر قلاون، كما ترتب على الوباء الذي حدث زمن السلطان حسن بن شعبان سنة ٧٤٩ أن هلك كثير من الفلاحين، واضطر الجند الى الخروج بغلماتهم لجمع المحصول من الغلال ، ولم يجن كثير من الناس شيئا من اقطاعاتهم . كل ذلك جعل الاقطاعات عاطلة دون ان تجد من يستغلها من من الامراء أو يزرعها من الفلاحين ، فكثر التصرف فيها بالبيع والتنازل والمقايضة ، فمن اراد النزول عن اقطاعه حمل مالاً الى بيت المال بحسب ما يقرره عليه اغرلو شاد الدواوين الذي افرد لهذا الغرض ديوانا سماه ديوان البدل . فدخل في اجناد الحلقة المتعممون من أرباب الوظائف الدينية والديوانية من الكتاب ، والمباشرون من الاقباط وكذلك أرباب الصنائع والحرف من المصريين ، فصار الخياطون والاساكفة يركبون الخيول ويلبسون الكلفتاه والعباءة (٢) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٤ .
العيني : عقد الجمان مجلد ٦٥ ص ٦٦ .
المقريزي : الخطط (بولاق) جـ ٢ ص ٣٢٢ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٣ .
المنهل الصافي جـ ١ ص ٢٢٨ ب
المقريزي : الخطط (بولاق) جـ ٢ ص ٣٢١ — ٣٢٢ .
القلقشندي : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٦ .
ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٦١ .
السخاوي : الضوء اللامع جـ ٥ ص ٢٨٢ .
ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٩٨ .
انظـر Demombynes : La Syrie. Introduction p. XIV

ثم ازدادت عمليات انتقال الاقطاعات بسبب انتقال السلطنة من البيت القلاوني الى مماليكهم من الجراكسة دون غيرهم من المماليك . وجد على هذه الحركة أن الامراء اخذوا يرتبون مماليكهم في بيت السلطان بجامكيات ، فصار الوحد من مماليك الامراء جندي حلقة ومملوكا سلطانيا وفي خدمة امير من الامراء في وقت واحد ، وغدا يحصل على رزق ثلاثة افراد • وكثر متحصل فريق من الجند وقل متحصل آخرين ، وقل عسكر مصر بسبب ذلك زمن السلطان المؤيد شيخ الى الثلث تقريبا (١) . وحاول السلطان شيخ معالجة هذه الاحوال بان عرض سنة ٨٢١ نحو اربعمائة نفر من اجناد الحلقة ما بين كبير وصغير وغني وفقير ، فمن وجد ان اقطاعه قليل المتحصل اشرك معه غيره ، على ان يصبح احدهما مستعدا للخدمة في جيش السلطان وحروبه . وامعن هذا السلطان في تطبيق هذه القاعدة بين ذوي الاقطاعات الصغيرة حتى جعل كل اربعة منهم مقام رجل واحد للسفر في حروب السلطان ، على ان يقوم الثلاثة الآخرون بالكلفة . وعهد السلطان الى قاضي القضاة بالتصرف فيما يجمع من اجناد الحلقة من الأموال (٢) .

وحرص شيخ سنة ٨٢٤ على ان يفصل بين اجناد الحلقة واجناد الامراء ، واعاد كل من الصنفين الى طائفته ، وزاد في اقطاع من شكا اليه من جند الحلقة من قلة متحصل اقطاعه (٣) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٧ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٩ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٦ .

غير ان هذه السياسة لم تستمر طويلا ، اذ اهتم السلاطين الذين جاءوا بعد شيخ بارضاء الاجلاب الجدد من المماليك السلطانية بمنحهم اقطاعات لاجامكيات ورواتب ، وفقا للقاعدة الذى جرى عليها السلاطين الاوائل . فشرهت نفوس هؤلاء الجلبان ، وكثر الحاحهم على السلطان اينال سنة ٨٥٧ في طلب اقطاعات الفقهاء والمتعممين ، مثل الاقطاعات التي اوقفها الزيني الاستادار على نفسه وعلى مساجده (١) . وانتهز هؤلاء المماليك الاينالية كارثة الوباء الذى حدث سنة ٨٦٤ فاصروا على أن يختصهم السلطان دون غيرهم من الاجناد بالاقطاعات التي مات عنها اصحابها ، ولم يرد لهم السلطان طلبا . وترتب على هذا التساهل ان اخذ الكتابية الاقاطيع قبل ان يأخذوا العتاقة والخيل (٢) . وسار السلاطين بعد اينال على ذلك المنوال مكرهين خوفا من ثورات الجلبان ، وهذا هو تفسير ما عكف عليه خشقدم من ايثار مماليكه بالاقطاعات الثقيلة ، وما جرى عليه السلطان قايتباي في توزيع اقطاعات المتوفين بسبب الوبا الذي حدث سنة ٨٩٧ ، على خشداشيتهم (٣) .

والمفروض أن الامير او الجندى ينال اقطاعه مقابل ما يقوم به من خدمة حربية ، فاذا لم يستطع تأديتها لكبر السن مثلا او بسبب المرض بعاهة تحول دون قيامه بعمله ، استرد السلطان الاقطاع منه ، واجرى عليه ما يكفيه في حياته . ومن الامثلة على ذلك الامير بكتاش

(١) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ١٦٧ .
(٢) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٧٧ .

الفخرى امير سلاح السلطان الناصر محمد بن قلاون ، اذ سأل اعفاءه من الخدمة والاقطاع بسبب كبر سنه فأجيب الى ذلك سنة ٧٠٥ ، وانتقل اقطاعه الى ديوان الخاص الشريف ،واضيفت اجناده الى الحلقة، وجوزى بالاحسان ،لانه طالما خدم في الحروب وظل على ولائه واخلاصه ،فرتب له السلطان خمسة آلاف درهم في الشهر (١) . وجعل السلطان الناصر في الروك الناصري الذي اجراه سنة ٧١٥ جهة مكس قطيا لضعفاء الجند الذين انتقلت عنهم اقطاعاتهم (٢) . اما الاقاطيع التي اختص بها زعماء العشائر فلاصحابها حق التصرف فيها كيفما شاءوا ، اذ منحها لهم السلطان على سبيل الملكية ، ومن هذا القبيل ما حدث سنة ٧١٥ حين كتب السلطان الناصر للامير مهنا زعيم آل مهنا بأطراف الشام باقطاع شامي على هذه القاعدة (٣) .

على ان المقطعين حاولوا دائما ان يورثوا سلالتهم جانبا من اقطاعاتهم ، دون ان يكون ذلك مقيدا بخدمة حربية ،فافادوا من النظم الموضوعة بشأن التصرف في انواع معينه من الاراضي ، فالسلطان له الحق شرعا في منح اراضي معينه على سبيل البر والصدقة دون التقيد بخدمة من الخدمات (٤) . ومن هذه الاراضي ما يعرف بالرزق الجيشية

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ١٨ — ٢٠ .
بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٤٢٥ .
انظر (ص ١٣٢ Zettersteen : Beitrage

(٢) المقريزى : الخطط (بولاق) ج ١ ص ١٤٦ .

(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ١٤٤ .
انظر Poliak : Feudalism p. 30

(٤) الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٧٠ — ١٧١ .
انظر Lambton : op. cit. pp. 64-65

التى لم تكن سوى اقطاعات يخرجها ديوان الجيش الى الامراء الذين اقعدهم المرض او كبر السن عن اداء واجباتهم الحربية (١) ويطلق على الواحد منهم طرخان (٢) . فالامير كزل بن عبدالله الظاهرى العجمى ترقى في عهد السلطان فرج حتى صار امير مائة ، اصابه ذهول في عقله زمن برسباى فانزله السلطان عن اقطاعه وامرته ، وانعم عليه باقطاع آخر يأكله طرخانا (٣) . وربما عفا السلطان من السلاطين على امير بعد اعترافه بما ارتكبه من اخطاء اوجبت عزله ، وفي هذه الحال يقدر السلطان لهذا الامير ولاءه القديم فيمنحه ما يكفل له العيش ، ومثال ذلك الامير منجك بن عبد الله اليوسفي نائب دمشق الذي تبين للسلطان الناصر حسن بن قلاون انه ما زال على ولائه واخلاصه له بعد عزله عن نيابته ، فرسم له بامرة طبلخاناه بالبلاد الشامية وان يكون طرخانا يقيم حيث شاء فأقام بدمشق مدة ، وما لبث ان ولى نيابة طرابلس ودمشق ثم نيابة السلطنة بالديار المصرية في عهد شعبان بن حسين (٤) .

واجرى السلاطين هذه الرزق الجيشية احيانا على زوجات الامراء والاجناد او ارامله‍م وايتامهم واولاد الناس وذرارى السلاطين والفقهاء

---

(١) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٢٥١ ، ٥٧٧ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ١٣ ص ٤٨ .
انظر Poliak : The Influence of Chingiszkhan Yasa p. 870

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٥٣ ب .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ٣٦٥ ب ، ٣٦٦ أ .

والمتعممين من باب المنحة رعاية لاسلافهم (١) على ان السلاطين لـم يكونوا ملزمين بتوزيع هذه الرزق الجيشية ، ولذا وجد المقطعون ان خير وسيلة للابقاء على اقطاعاتهم الحربية دون ذهابها بعدهم الى ديوان الجيش هو العمل على تحويلها الى أملاك يتوارثها ابناؤهـم عنهم . وتوافرت الأملاك اوائل حكم الدولة المملوكية في الديار الشامية ، على حين قل مقدارها في مصر (٢) . غير انها أخذت تكثر في مصر كذلك ولا سيما في العصر المملوكي الثاني ، بسبب ما اجازته الشريعة لولـى الامر من حق التصرف بالبيع والاقطاع في الاراضي التي لا مالك لها او التي يموت عنها صاحبها دون ان يكون له وريث (٣) . كما ان لصاحب الاقطاع الذي يتخلى عنه لبيت المال بمحض اختياره ان يشتريه علـى انه ملك (٤) . وتحول كثير من الاقطاعات السلطانية الى اوقاف يمنحها السلاطين لاغراض دينية واجتماعية مثل حماية السواحل من غارات الافرنج ودفع الفدية عن اسرى المسلمين ، وتشييد الاضرحة والمساجد والخوانق والمدارس والمارستانات .(٥) يضاف الى ذلك ان كثيرا من الامراء

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور (كاله) ج ٤ ص ١٣٦ ، ١٥٠ .
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥١ ، ج ٦ ص ١٨٥ .
انظـر Poliak : Feudalism p. 30

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٧ .
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٥ .

(٣) المـاوردي : الاحكام السلطانية ص ١٧١ — ١٧٢ .

(٤) Poliak : Feudalism p. 36
Demombynes : La Syrie. Introduction pp. XLVI - XLVII

(٥) انظر Poliak : Feudalism p. 37

خلفوا لمماليكهم كثيرا من الاملاك الموقوفة رعاية لهم من بعدهم (١). وترتب على هذه الاجراءات ان اخذت الاقطاعات الحربية تتناقص ، ولم يعد اقطاع الامير سوى جزء من املاكه التي تشمل الدور المختلفة والحمامات والخانات والحوانيت والافران والاهراء والبساتين والطواحين والاسطبلات والضيعات الاراضى المملوكة ، والربط والأسبلة والخوانق والجهات الموقوفة عليها (٢) .

على انه مهما حاول الامراء اتخاذ التدابير الكفيلة بالمحافظة على املاكهم ، فانها لم تمنع عنهم مصادرة السلاطين لها. ومن الادلة على ذلك انه برغم مما بلغه الامير تنكر نائب الشام من مكانة عند السلطان الناصر محمد بن قلاون ، فأنه قبض عليه وصادر جميع ممتلكاته (٣). وكذلك صادر المؤيد شيخ جميع ما للأمير ارغون شاه النوروزي من اوقاف واملاك بعد ان عزله عن نيابة دمشق وقبض عليه (٤) .

ويحصل صاحب الاقطاع على ما يتحصل من اقطاعه من خراج ، وهو ما يستأدى سنويا من المقرر على الاراضي المرصدة للزراعة والنخل والبساتين والكروم ، وما يقدمه الفلاحون من خدم . ويقدر الخراج عادة على مساحات الأراضي المقطعة وفقا لخصوبتها وسهولة ريها ،

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ا ص ٢٨٥ .
ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٦ .
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٢٨ ب ، ٣٦١ ب ، ج ٣ ص ٣٩٦ ب .
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٤٣٧ أ
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ١٨٧ ب

فيفرض على كل صنف من اصناف المزروعات قطيعة مقررة لا يختلف امرها (١) . واكثر خراج الصعيد يؤخذ من نفس المحصول وربما كان الخراج في بعض البلاد دراهم، وما بار من ارض كل بلد يباع ما ينبت فيه من المراعي (٢) . اما الوجه البحري فغالب خراج بلاده دراهم . واذا لم يتيسر لبلد من البلاد الوفاء بما هو مقرر عليه من الغلال ، يصح ان يؤخذ عوضا عنها صنف آخر من المحصول ، مع مراعاة أهمية هذا الصنف ، فمثلا اردب القمح يساوي اردبين من الشعير ، او ثلاثة ارادب من الفول او ثلاثة من الجلبان (٣) . وكان للازمة الاقتصادية التي حلت بالبلاد سنتي ٧٨٦ ، ٨١١ أثر في انخفاض سعر الدرهم ، وترتب على ذلك زيادة ما يدفع من الخراج النقدي ، مما ادى الى سوء احوال الفلاحين وكثرة ثوراتهم (٤) .

ولم يكن الخراج هو كل ما يأخذه المقطعون من الفلاحين ، بل اضيف اليه هدايا عينية في اوقات معينة من السنة وهى المعروفة بالضيافة مثل الاغنام والدجاج والكشك والبيض ، التي تقرر ابطالها في الروك

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٢ .
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٤ .
النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٢٨ .
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٥ .
(٤) النويري : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٤ ، القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥٣ — ٤٥٤ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٩
منتخبات من حوادث الدهور ص ٦٩ .
انظر Poliak : Feudalism p. 66

الناصري واضافة اثمانها الى عبرة الاقطاع (١) . وقرر الامراء على الفلاحين ضريبة سنوية للانفاق منها على عمارة جسور البلاد وتطهير الترع والقنوات (٢) . وتقاضى الامراء كذلك فائدة تقدر بنحو عشرة في المائة في مقابل امداد الفلاحين بالتقاوى ، واضافوا الى ذلك في بعض البلاد عشر العشر فيأخذ عن كل مائة اردب من التقاوى أحد عشر اردبا . وجرى ذلك عادة حين اجازت الدولة للامراء والاجناد بيع اقطاعاتهم او التنازل عنها (٣) ، او مقايضتها في السنوات التي سبقت الاشارة اليها عند انتقال الحكم من البيت القلاوني الى مماليكهم الجراكسة . ويضاف الى ذلك ما يأخذه من اربا بالمواشي في كل سنة عند هبوط النيل ، وذلك مقابل رعى مواشيهم ، فيتقاضى عن كل رأس من الماشية مبلغا معينا في الشهر او السنة (٤) ، كمايفرض رسوما معينة علىما يصاد من الاسماك عند هبوط النيل، ورجوع الماء من المزارع الى النهر (٢) . اما المقرر على البساتين والكروم والمقاتى فيستخرج على حكم الضريبة عند نضج كل صنف (٥) .

---

(١) النويري : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٤٥ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٣٠ .
ابن اياس : بدائع الزهور (كاله) ج ٤ ص ٢٠٧ .

(٢) النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٥٢ .

(٣) النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٦٢ .
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٨ ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .
المقريزي : الخطط (بولاق) ج ١ ص ١٠٧ .

(٤) النويري : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٦٣ .

(٥) النويري : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٧١ .

ومن ابواب الخراج كذلك ما يؤخذ من محصول القصب بعد عصره ، ونهاية ما يتحصل من الفدان ثلاث وزنات تسمى الواحدة منها ضريبة ، والضريبة ثمانية واربعون قنطارا مصريا (١) . وكذلك يأخذ صاحب الاقطاع مقررات على عسل التمر والمصنوعات المحلية من الثياب والبسط (٢) . ويضاف الى هذه المقررات ما يدفعه ارباب الحرف والصنائع المقيمون بالاقطاع من الاجور عن الحوانيت والحمامات والافران والطواحين الدائرة بالبقر (٣). اما ضريبة الرءوس المفروضة على غير المسلمين ، والتي تعرف بالجوالي ، فانها اضيفت الى عبرة الاقطاع منذ اجراء الروك الناصري سنة ٧١٥ (٤) .

وللحكومة المركزية الحق في فرض ضرائب على الفلاحين الذين يعملون في اقطاعات الامراء ، واثرت هذه الضرائب فيما يحصل عليه الامراء من خراج، وطالما اثار هذا الاجراء سخطهم وحنقهم. ومن هذه الضرائب ما يجمعه من ضرائب ولاة الاقاليم وزعماء القبائل العربية الضاربة بالجهات المجاورة للاقطاع (٥) .

وليس الاقطاع هو كل ما يحصل عليه الامير او الجندي من

---

(١) النويري : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٧١ .
(٢) النويري : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٦٦ .
(٣) النويري : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٢٨ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ٩ ص ٤٣ .
النويري : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٤١ .
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٦٣ .
(٥) ابن اياس : بدائع الزهور (كاله) ج ٤ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٩١
Poliak : Feudalism p. 73

أرزاق ، بل يتقاضى كذلك انواعا مختلفة من النفقات والرواتب في أوقات معينة . فمنها الجامكية وهي الراتب الشهري الذي يصرف للمماليك السلطانية (١) . والنفقة وتمنح في اوقات غير منظمة وعلى الاخص قبيل تسيير الحملات الحربية ، فتعطى للجندي او الامير لينفق منها على تجهيز نفسه ومماليكه وخيله . فالسلطان قلاون حين خرج الى البلاد الشامية سنة ٦٧٩ لمحاربة التتار الذين اغاروا على حلب، انفق قبل خروجه من مصر في كل امير الف دينار ، وفي كل جندي خمسمائة درهم (٢) . وانفق السلطان الناصر محمد بن قلاون في العساكر عند ما جاءته الاخبار بنزول التتار على نهر الفرات سنة ٦٩٩ ، فجعل لكل فارس ما بين ثلاثين واربعين دينارا ، بعد ان تبين له ارتفاع اسعار ما يحتاج اليه الجند من ادوات الحرب (٣) . وكذلك انفق السلطان برقوق في مماليكه وامرائه لمحاربة الامراء الخارجين على سلطته بالشام سنة ٧٩١ (٤). ومن النفقة كذلك مايوزعه السلطان عندتوليته السلطنة على الامراء الاجناد ، ومن الامثلة على ذلك انه لما تولى السلطان الناصر محمد بن قلاون الحكم سنة ٦٩٣ انفق في العساكر (٥) . ولما عاد للسلطنة للمرة الثانية سنة ٦٩٨ انفق فيهم مرة ثانية (٦). وفي سنة ٨٠١ حصل المماليك السلطانية على نفقة سلطنة الناصر فرج ، وفرقت النفقة

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٧ .
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٨٢ — ٦٨٣ .
(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٨٥ .
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ١ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ أ ،ب
(٥) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٣١٣ .
(٦) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٣٥١ .

بحضرة السلطان والامراء، فأخذ كل مملوك من ارباب الخدم الجوانية والمشتروات ستين دينار ، كل دينار ثلاثون درهما (١) .

واعطى السلاطين النفقة في غيرهذا وذاك من الاوقات، استجلابا للقلوب ، ومن ذلك ما انفقه السلطان الناصر محمد بن قلاون في العساكر بعد ان تقرر الصلح بينه وبين كتبغا سنة ٦٩٣ (٢) ، وكذلك ما فعله السلطان الناصر ايضا سنة ٧٤٠ حين جمع الامراء وحلف المجردين والمقيمين منهم لولده الامير أبى بكر بعده ، فجعل لكل امير كبير الف دينار ، ولكل امير طلبخاناه اربعمائة دينار ، ولكل مقدم حلقة الف درهم ، ولكل مملوك خمسمائة درهم وقرقل وخوذة (٣) . ولما اشتد المرض بالسلطان برسباي سنة ٨٤١ عقد مجلسا حضره الخليفة والقضاة والامراء والمماليك ، وعهد الى ولده بالسلطنة ، ثم خاطب مماليكه وأوصاهم بابنه وامر لهم بالنفقات (٤) .

وحصل الامراء والمماليك على الكسوة بالاضافة الى الجوامك والنفقات. وفي الغالب كان توزيع الكسوة عليهم سنويا ، غير انه ربما اخذوها على دفعتين في السنة ، للصيف والشتاء (٥) . وفي العصر

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦ — ٧ .
العيني : عقد الجمان مجلد ٦٧ ص ٧٤ .
(٢) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٣٤٧ .
(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٤٩٩ .
(٤) العيني : عقد الجمان مجلد ٧٠ ص ٦٩ .
(٥) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥١ .
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٥ .

المملوكي الثاني جرى التقليد على ان يصرف السلطان ثمن الكسـوة للمماليك ، وبلغ ما تقاضاه المملوك برسم الكسوة زمن السلطان جقمق الف درهم في السنة ، وزمن اينال ثلاثة آلاف درهم (١) . ومن بين الكلف السلطانية الاضاحي للمماليك في كـل سنة (٢) ، وما تقدمه الحواصل السلطانية للامراء والمماليك في كل يوم من رواتب اللحـم والتوابل والخبز والزيت والعليق ، وللخواص من الامراء بمصر الشمع والسكر والحلوى في رمضان على مقادير رتبهم (٣) .

ويوزع السلطان على امرائه الخيول مرتين في السنة ، المـرة الاولى عند خروجه الى مرابط خيوله على القرط اواخر الربيـع ، فينعم على الاخصاء من امرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم ، والمرة الثانية عند لعب الكرة بالميدان . ولخاصته المقربين من الامراء زيادات كثيرة في ذلك ، بحيث يصل بعضهم الى مائة فرس في كل سنة ، وللسلطان اوقات اخرى يفرق فيها الخيل على مماليكه ، وكل من مـات له فرس من مماليكه ، دفع اليه عوضه . وربما انعم بالخيول على اكابر الامراء عند الخروج الى الصيد .

---

(١) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ١١٣ .
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٥٧ .

(٢) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥١ .
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٦ .
ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .
ابن اياس : بدائع الزهور : ج ٢ ص ٥٧ .

(٣) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٣ .
القلقشندي : صبح الاعشى ص ٥١ و ٥٦ .

وللامراء في كل سنة اطلاقات بالاعمال الجيزية لربيع خيولهم من القرط (البرسيم) وما يدفع اليهم من القرط يكون بدلا من عليق الشعير المرتب لهم في غير زمن الربيع، فيمنح السلطان عن كل عليقة نصف فدان من القرط القائم على اصله في مدة ثلاثة شهور (١) .

واعتبر الفلاحون انفسهم اقنانا لسادتهم في الاراضى الاقطاعية فلا يغادر الواحد منهم قريته من غير اذن صاحب الاقطاع او نائبه (٢). وللسلطان على صاحب الاقطاع حقوق ، منها التقادم التى يؤديها في مناسبات معينة . فمن ذلك ما قدمه الامراء الى خليل بن قلاون من النقوط عند الاحتفال بطهور اخيه الناصر سنة ٦٩٢ ، كل بحسب رتبته ، فان كان امير مائة رمى مائة دينار ، وان كان امير خمسين رمى خمسين دينار (٢) . ولما اعلن الناصر محمد بن قلاون في دمشق نبأ عودته الى السلطنة سنة ٧٠٩ ، قدم الى دمشق الامراء بالتقادم . وامتاز الامير قطلو بك المنصورى عن سائر الامراء بأن قدم عشرة رءوس خيل مسرجة ملجمة ، وفي عنق كل فرس كيس فيه الف دينار ، وعليه مملوك ، وأربعة قطر بغال وعدة بخاتى (١) . وشملت تقدمة الامير ارغون شاه نائب الشام الى السلطان حسن بن الناصر سنة ٧٤٩ مائة واربعين فرسا بعبى تدمرى، فوقها اجلية اطلس، وبمقاود ذات سلاسل فضية ، واربعة قطر هجن بمقاود حرير ، وسلاسل فضة وذهب ، وباكوار مغشاة بالذهب وأربعة كنابيش ذهب مرقومة بالقاب

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٤ .
(٢) النويري : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٩٨ .
(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٦٩ .

السلطان فضلا عن التعابى من القماش مبقجة من كل صنف (١) .

وعلى الامراء باختلاف درجاتهم حضور الخدمة السلطانية بالقلعة في الاوقات التى تقتضى حضورهم (٢). واذا مر السلطان اثناء خروجه للصيد باقطاع امير كبير، قدم له ذلك الامير من الغنم والاوز والدجاج وقصب السكر والشعير ما تسمو همة مثله اليه ، فيقبله السلطان منه وينعم عليه بخلعة كاملة ، وربما امر لبعض الامراء بشيء من المال (٣).

ويضاف الى ذلك تقديم الامراء ما يطلبه السلطان منهم من الإسهام في الخدمات العامة ، ومن الامثلة على ذلك انه حينما اشتدت الازمة الاقتصادية سنة ٦٦٢ زمن السلطان الظاهر بيبرس ، اختص باطعام فريق من الفقراء ، واختص ابنه السعيد بفريق آخر ، وامر السلطان بتوزيع بقية الفقراء على الأمراء على قدر عدتهم (٤). واشترك الامراء والاجناد في حفر خليج الطبريه (ترعة الحاجر بمديرية البحيرة) سنة ٦٨٢ زمن السلطان قلاون (٥) . واسهم الامراء والاجناد في اطفاء الحريق الذي حدث بالقاهرة سنة ٧٢١ زمن الناصر قلاون (٦) . وطلب

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦١ ــ ٦٢ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٤ ،٤٥٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ .
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٤٩ .

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٢٠ .
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٢٤ .

(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٠٧

(٥) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٧١٢

(٦) العيني : عقد الجمان مجلد ٦٢ ص ٢٨٢ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٦٥

السلطان الناصر محمد بن قلاون الى الامراء، ان يعمل فلاحوهم بابقارهم وجراريفهم في اقامة جسر من بولاق الى منية السيرج سنة ٧٢٣، فتم هذا العمل في عشرين (١) يوما . وكذلك اشترك الامراء باجنادهم في اقامة السد بين الجامع الناصري الجديد وبين جزيرة الروضة سنة ٨١٨ زمن السلطان شيخ (٢) .

---

(١) العيني : عقد الجمان مجلد ٦٣ ص ٤٠٤

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤٤ .
المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٠٢ أ .

الفصل السادس

مكانة الفارس الاجتماعية

العلاقات المختلفة بين المماليك — العلاقة بين المملوك واستاذه — العلاقة بين المملوك ورفقائه في الرق والعتق — العلاقة بين المملوك الصغير والمملوك الكبير — الرق واثره في العلاقات بين المماليك — خصائص الطبقة المملوكية — بيوت الامراء واسطبلاتهم وحواصلهم — ملابس الأمراء والاجناد — الطباق والنفقات — علاقة الامراء بالمماليك الذين في خدمتهم — الخدمة السلطانية — علاقات الامراء بالسلطان — ثروة الامير .

من الواضح ان تاجر المماليك هو اول استاذ للمملوك الذي يجلبه من خارج الدولة المملوكية . ولذلك فهو اول من ينتمي اليه المملوك وينتسب اليه (١) ، ثم ينتقل المملوك من استاذ الى آخر وفقا للاحوال

(١) جرى التقليد المملوكي على ان يتخذ المماليك لانفسهم اسماء والقابا يعرفون بها تشمل اسم المملوك وكنيته ولقبه ، فاذا تسلطن يضاف الى القاب السلطان صفة من الصفات كالملك السعيد والملك الناصر ، كما يحمل المملوك اسم التاجر الذى جلبه ، أو الاستاذ الذى اشتراه وأعتقه، مقترنا بياء النسبة. ويجرى ترتيب هذه الاسماء والالقاب في حالة السلطنة بذكر اللقب السلطاني ثم الكنية واللقب ، ويلي ذلك الاسم الاصلي واسم من ينتمي اليه . انظر :
Lane-Poole : The Saracenic Art p. 18 note 1.

الخاصة والعامة التى تقدمت الاشارة اليها (١)، واهم اولئك جميعا هو الاستاذ الذي يستقر المملوك في حوزته بالشراء ويظل حتى عتقه ، وهذا هو الاستاذ بالمعنى المملوكي الاصطلاحي (٢) . ويقصد بلفظ استاذ أحيانا السيد الذي يكون في خدمته مملوك من المماليك ، أى انه ليس من الضروري ان يكون هو الذي اشتراه واعتقه وبذلك يكون مرادفا للفظ مخدوم (٣) .

ويرتبط المملوك باستاذه الذي اعتقه بروابط وثيقة ، ويظل وفيا ومخلصا له حتى آخر يوم في حياته . ويحرص المؤرخون على الاشارة في مؤلفاتهم عند ذكر اسماء المماليك، الى المعتقين الذين اعتقوهم (٤). واذا انتقل المملوك بعد عتقه الى خدمة سيد آخر، يطلق على هذا السيد

---

(١) انظر ما سبق ص ١٣٠

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ١٨١ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٧٧ ، ٥٧٨ .
السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ٦٦ ج ٦ ص ١٨٤ ، ٢٢٦

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٩ ، ١١١ ، ١٥٧ ج ٦ ص ٤٥١ ، ٤٥٩ .
ابن اياس : بدائع الزهور (كاله) ج ٤ ص ١٠٠
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٩٤ .
السخاوى : الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٧٠ ، ج ٣ ص ٤٤
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٦٣ ، ٨٠٣ ج ٢ ص ٧٩ ، ٨١ ، ١١٠ .

(٤) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ١٢٠ .
النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٧٩ ، ٥٩١
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٩٥ ، ج ٢ ص ١٧٤
السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ٨ ، ٦٠ ، ج ٦ ص ١٩٥

الجديد مخدوم ، ويطلق على المملوك مستخدم (١) . على ان الروابط بينهما لم تكن في متانة العلاقات التي تربط بين المعتق وعتيقه . ومن الدليل على ذلك ما يكنه السلطان من كراهية للماليك القرانيص الذين انتقلوا الى خدمته وهم ممن اعتقهم السلاطين السالفون ، فيعتبرهم السلطان اقل مكانة من معاتيقه (٢) . ومن الامثلة على صلة الولاء التي تربط بين الاستاذ والمملوك الذي اعتقه ، ما اشتهر به السلطان بيبرس من تقديره لاستاذه ايدكين البندقداري ، اذ جعله نائبا على الشام ، وصار يعظمه ويقول له في كثير من المناسبات « انت أستاذي » ويعرف له حق التربية (٣) . ولم يقف بيبرس عند هذا ، بل اظهر احترامه للاستاذ الذي اشترى ايدكين واعتقه زمن الأيوبيين وهو جمال الدين بن يغمور الذي تقدمت به السن حتى عاصر الدولة المملوكية ، واصبح موضع ثقة بيبرس وتقديره (٤) .

ومن امثلة قوة الرابطة بين المملوك وأستاذه ان المماليك الخاصكية لم تهدأ ثائرتهم ضد الامير بيدرا قاتل السلطان خليل بن

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٢ ص ٣٤٢
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٤٩ .
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٢ ، ٦٤ ، ١٢٧ ، ٢٣٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ١٧٤ .
ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٤٧ ، ٢٩٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ٣٦٥ .
المنهل الصافي جـ ٢ ص ٣٤ ب

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ٢١٨ — ٢١٩

قلاون سنة ٦٩٢ الا بعد ان قبضوا على هذا الامير وحزوا رأسه (١) . وارتفع شأن كتبغا اوائل حكم السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٦٩٣ ، ومشى مع الناصر مشى المملوك مع ابن أستاذه قلاون . وأظهر لاجين كذلك حرصه على بقاء الحكم في بيت استاذه قلاون (٢) . فنصح الناصر بالتخلي عن الحكم سنة ٦٩٧ ، واعلن عند سلطنته انه اذ يتولى السلطنة بدل الناصر ، انما ينوب عنه حتى يبلغ اشد ، وانه يعتبر نفسه مملوكه ومملوك والده (٣) . ولما اجتمع الامراء بعد مقتل السلطان لاجين سنة ٦٩٨ ، اعلن الامير كرجى بأنه هو الذي قتله ، ليأخذ بثأر استاذه السلطان خليل بن قلاون (٤) . ولم يوافق امراء حلب وحماه وحمص على الحلف بطاعة السلطان بيبرس الجاشنكير الذي اغتصب الحكم من السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧٠٨ ، واعلنوا تمسكهم بطاعة ابن استاذهم قلاون (٥) . ولما تعنت السلطان بيبرس الجاشنكير مع الناصر بعد نفيه الى الكرك ، وطالبه برد ما عنده من المماليك والخيول والاموال ، واغلظ له في المخاطبة ، كتب الناصر الى امراء الشام يذكرهم بما لوالده عليهم من حق التربية والعتق والاحسان . ويستحثهم للنهوض الى اعادته للسلطنة ،وينذرهم بعزمه على المضي الى بلاد التتار اذا تخلوا عن مساعدته ، فاستجاب الامراء لدعوته وارسلوا يعرفونه

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٨ ص١٩ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٨ ص ٤٧ .
(٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٨٣٢ .
(٤) المقريزي :السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٨٦٦ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٨ ص ٢٣٩ .

بأنهم طوع يده ، ورهن اشارته لاسترجاع سلطانه (١) . وفي سنة ٨٢٥ خرج الامير اينال نائب صفد على طاعة السلطان برسباي لانه خلع ابن استاذه ططر من السلطنة (٢) .

ويعتبر التقصير في الولاء والوفاء للاستاذ عملا ذميما ، فحينما علم السلطان جقمق بتآمر جماعة من المماليك على اغتيال استاذهم الامير تغرى بردى الداوادار الكبير ومحاصرتهم داره سنة ٨٤٦ ، ارسل جماعة من رءوس النوب ، فقبضوا عليهم وضربوهم ضربا مبرحا ، ثم ارسلهم الى الحبس (٣) .

ومن الروابط المملوكة التي لم تقل عن الأستاذية ، رابطة الخجداشية .فالخجداش او الخشداش معرب اللفظ الفارسي خواجاتاش أي الزميل في الخدمة او الرق او العتق (٤) . فكلما كثرت خشداشية امير من امراء ازدادت مكانته . ففي سنة ٦٥١ صار الامير اقطاي زعيم المماليك البحرية ،وهم اقوى الفئات المملوكية وقتذاك، فأضحى لا يقدر احد من الامراء ان يفتح كتابا ولا يتكلم بشيء ولا يبرم أمرا الا بحضوره لكثرة خشداشيته . فلما قتل اقطاي بتدبير السلطان ايبك

---

(١) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٤٨٤ — ٤٨٥

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٦٠.

(٣) العيني : عقد الجمان مجلد ٧٠ ص ٧٢٨

(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٨٨ حاشية ٣
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦٣٦
المنهل الصافي ج ١ ص ١٨٣ أ

ومملوكه قطز سنة ٦٥٢ تحرك خشداشيته البحرية (١) . وترتب على ذلك تحرج مركز السلطان ايبك ، فأخذ يرائيهم ويعمل على ابعادهم حتى تشردوا في الشام وآسيا الصغرى ، حيث عملوا على خلق المشاكل له وساعدوا على اغتياله (٢) . وحرص السلطان الظاهر بيبرس على استمالة خشداشيته من البحرية بتأمير عدد منهم والتجاوز عن سيئات بعضهم . فعلى الرغم من عصيان الامير سنجر الحلبي نائب دمشق واعلانه الاستقلال بالشام ، فان بيبرس اخذ في اصلاح امره معه (٣) .

واذ اطمأن السلطان الجديد الى ولاء خشداشيته لانهم زملاؤه في الرق والتربية والعتق والخدمة ، رفعهم الى الرتب العالية وعهد اليهم بالوظائف الرئيسية . والادلة على ذلك كثيرة ، اذ جرى السلطان قلاون على تكريم خجداشيته ، فعين الامير سنجر نائبا على الشام بعد ايام من سلطنته ، وقرب اليه بلبان وصار يرعى له حق الخشداشية ويزوره اذا مرض في منزله (٤) .

واقترنت الخجداشية بالتعصب العنصري اثناء سلطنة بيبرس الجاشنكير ، فصار الأمر والسلطان في يد البرجية وهم خشداشية بيبرس ، رغدا نواب البلاد الشامية منهم (٥) .

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٨٨ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ١٢ .
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٩٣ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ١٠٣ .
(٤) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٧٤ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٢٨٦ .
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣٦٨ أ

ومن مظاهر وفاء الخشداشية وحبهم بعضهم لبعض ، حرصهم على انقاذ من يقع منهم في محنة . ومن الامثلة على ذلك ان خشداشية الامير حسام الدين لاجين قبلوا الارض بين يدي السلطان قلاون وسألوه العفو عنه ، بعد ان قبض عليه لتحريضه بعض الامراء بالخروج على طاعته ، فاطلقه السلطان واعاده الى رتبته (١) . وأقر السلطان لاجين كتبغا في نيابة صرخد بالشام ، بعد ان طرده السلطان لاجين من السلطنة سنة ٦٩٦ وذلك لانه خجداشه (٢) . واستجاب السلطان بيبرس الجاشنكير الى رغبة خشداشيته من الامراء البرجية في عدم ابطال الخمارات بعد ان عزم على ذلك (٣) .

ومن اداب الخشداشية ما يتهادونه من تقادم في المناسبات الاجتماعية . فلما عقد قلاون عقده على ابنة احد امراء التتار الذين قدموا الى مصر ، ارسل اليه الامراء والسلطان الظاهر بيبرس الهدايا سنة ٦٦٤ ومن بينها اربعة من المماليك السلطانية ، فاستعفى من قبول المماليك لانهم خشداشيته (٤) . ويشير المقريزي الى سخط سنقر الرومي في صباه على خشداشه بيبرس ، لانه لم يعطه شيئا من العدة التي طلبها منه عند خروجهما معا الى الشام ، فلما اصبح بيبرس اميرا لم يقدم اليه سنقر شيئا كعادة الخشداشية اظهارا لسخطه القديم ، ولم يقبل سنقر

---

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٣٧ .

(٢) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٦٧ .
انظر : (ص ٤٢ Zettersteen : Beiträge

(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٣

(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٤٢ .
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٥ ص ٥٢٩ .

من بيبرس اثناء سلطنته اقطاعات (١) . ومن اسباب كراهية قصروه بن عبدالله الظاهري للمؤيد شيخ ما اخذه هذا الامير على السلطان من التنكر لخشداشيته برغم مساعدتهم له فيما وصل اليه من مجد (٢) .

وبلغ من تكريم بعض الأمراء لخشداشيتهم ان الامير جمال الدين آقوش السلحدار اوصى سنة ٦٧٨ بأن يدفن وفاته عند خشداشه ايدكين بن عبدالله الشهابى نائب دمشق واستاذ السلطان بيبرس (٣). ومن مظاهر تماسك الخشداشية ، أنه اذا توفى احدهم اثناء القتال استولى خشداشه على موجوده (٤) ، كما اخذ الخشداشية اقطاعات من مات منهم في الوباء الذي حدث بمصر سنة ٨٩٧ زمن السلطان قايتباي (٥) .

واذا تنكر السلطان للخشداشية كان ذلك نذيرا بخراب ملكه ونهاية حكمه . ومثال ذلك ان السلطان ايبك فقد سلطانه وضاعت هيبته عند البحرية،بعد ان ارتفع شأن الامير اقطاي،فان رسم ايبك لاحدهم بشيء أخذ اضعاف ما قرره له ، وصار لا يبرم امرا الا بحضور اقطاي لكثرة خشداشيته (٦) . وتسلطن لاجين بمساعدة خشداشيته غير انه ما لبث ان نسي ما قطعه على نفسه لهم من عهود ومواثيق ، وعين مملوكه

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ١٣٤ .
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٣ ص ١٢٨
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٢٩٠ .
(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥١٢ .
(٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٧٧ .
(٦) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٨٨ .

منكوتمر في نيابة السلطنة ، فاستبد بالامراء خشداشية السلطان فكان ذلك وبالا على كليهما (١) .

ومن الطبيعي ان يتقاسم الخشداشية الخير والشر على السواء ، فحين انكشفت المؤامرة التي دبرها الامير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة مع خشداشيته لخلع السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٠ ، امر الناصر بالقبض على بكتمر وعلى الامير كراي المنصوري نائب الشام لانه خشداشه ورفيقه في التآمر على سلامة السلطان (٢) . ولهذا السبب كذلك امر الناصر بامساك الامير تنكز نائب الشام وخشداشه الامير طغاي بن عبدالله امير أخور (٣) .

ويقابل ما يكنه الخشداشية من الحب والولاء لبعضهم ، كراهيتهم الشديدة لغيرهم ممن لم يكونوا من زملائهم ، فتدعو حالة المملوك الذي يتعرض لسخط اولئك الخشداشية الى الرثاء والعطف ، اذ يعتبر نفسه غريبا . فبكتمر الساقي عندما انتقل الى خدمة الناصر قلاون غدا غريبا في بيت السلطان ، لانه لم يكن له خشداش هناك ، فكان هو وحده ، وسائر الخاصكية حربا عليه ، برغم حظوته عند السلطان (٤) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ١٠٠ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٢٤ — ٢٥ ، ٢٩ — ٣٠ .
(٣) ابن تغرى بردى المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٣٢ أ ، ٢٣٣ ب
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٣٠٠ . المنهل الصافى ج ١ ص ٣٤٦ أ .

وكذلك كان شأن الامير طقزدمر الحموي زمن السلطان الناصر قلاون ، اذ اعتبر نفسه غريبا في بيت السلطان لانه لم يكن له خجداش برغم تربيته في بيت قلاون اثناء امارته (١) .

وثمت حقيقة غريبة وهي أن شجر الدر اعتبرت نفسها خشداشا للصالحية ، رغم كونها امرأة ، وبمساعدتهم تولت السلطنة ، وحاول خشداشيتها من الصالحية بكل قوتهم ان يحولوا دون اغتيالها، غير انهم فشلوا في ذلك ازاء حرص مماليك السلطان ايبك على الاخذ بثأر استاذهم الذي دبرت شجر الدر امر اغتياله (٢) .

ويحدث احيانا ان ينقسم الخشداشية على انفسهم اثناء قيام سلطان جديد ، فينحاز فريق منهم الى جانب امير ، وينضم فريق الى جانب امير آخر منهم ، ويترتب على هذا الانقسام نشوب الحروب الداخلية من اجل الوصول الى دست السلطنة • واشهر الفتن التي حدثت بتأثير هذا الانقسام ، ما وقع من تنافس بين ايبك واقطاي وبين لاجين وكتبغا ، وبين برقوق وبركة الجوباني (٣) .

ولم يكن الخشداشية في سن واحدة ، اذ اختلفت اعمارهم حين دخول الطباق كما اختلفت ازمنة التحاقهم بها . وجرى العرف على

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٣٦ أ

(٢) ابن تغرى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ١٢ ، ١٣، ج٨ ص ٦٧ .
المنهل الصافي ج ١ ص ٣٣٦ أ .

تسمية الواحد من الكبار منهم باسم اغا ، وعلى تسمية الواحد من الصغار باسم انى ، ويصبح لؤلئك الصغار في كنف الكبار (١) . فالاغا اشبه بمؤدب الانى يخصه بعطفه ورعايته . واذا وقع صدام بين المماليك في الطباق اعان الاغا انياته .

وتظل العلاقة وثيقة بين الاغا وانياته بعد عتقهم ومغادرتهم الطباق اذ يحرص على مساعدة انيه ويوصي بترقيته في الوظائف والرتب (٢) . ومهما بلغ الانى من الرقى والنفوذ فانه يظل معترفا بجميل اغاته حتى ولو غدا أعظم منه وظيفة ورتبة . ويشير ابن تغرى بردى الى حادث من هذا القبيل ويعتبره من تقلبات الزمان ، اذ ترقى البجاسى في الوظائف حتى اصبح نائب حلب ، على حين ان اغاته جار قطلو ظل نائبا في حماه ولم ينتقل الى نيابة حلب ، الابعدان غدا تنبك نائبا على الشام . ومع ذلك اعترف تنبك بقدم احسان جارقطلو عليه ، واقر بفضله وبحق تربيته عليه (٣) . وحين اجتمع تنبك بجرقطلو في حفل شهده السلطان ططر جلس تنبك في الجانب الذي يجلس فيه اغاته حتى لا يطل عليه من مجلسه

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٢١٦ أ .
السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ٣٢٢ ، ج ١٠ ص ٢٧٢ .
ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٦٨ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٦٨٨ .
السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٨١ .
المنهل الصافي ج ٣ ص ٤٥٤ أ
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٤٥٤ أ
النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٦٩ .

لانه يضطرب في حضرته (١) . وانكر اسندمر النوري على السلطان جقمق عدم ترقيته في وظائف الدولة على الرغم من انه من انيات اخيه الامير جاركس (٢) .

وللرق اثر كبير في شخصية المملوك وفي الطريق الذي يسلكه في حياته ، اذ يتحول اثناء استرقاقه الى الاسلام ، وينتقل من مرحلة الصبا الى سن البلوغ ، ومن دور الكتابية الى الجندية . وارتكزت حياة المملوك بعد العتق الى انطباعات السنوات التي قضاها في الرق . اذ اسهمت هذه السنوات في تكوين شخصية المملوك وصفاته في المجتمع المملوكي . فالعلاقات بين المماليك الذين جمعتهم اواصر الرق والعتق والتربية والخدمة ، وكذلك العلاقات بين المملوك الكبير والمملوك الصغير تشبه احيانا روابط البنوة واحيانا روابط الاخوة . ولم يكن في حياة المملوك من الروابط العائلية غير واحدة فقط منها . ومما يوضح ذلك معاني الفاظ المصطلح المملوكي فالاستاذ هو الاب ، والاغا هو الاخ الكبير،والاني هو الاخ الصغير.وورد في المصادر المملوكية ما يشير الى ان لفظ اخ يرادف لفظ خشداش ، ولفظ اخوة يرادف لفظ خشداشية . ومن الامثلة على ذلك قول كتبغا عند سلطنة لاجين « انه خشداشى وانا وهو شيء واحد . اما لاجين فأنه قرر من جهته عند فرار كتبغا الى الشام بعد سلطنة لاجين بأنه لو اراد القبض على كتبغا لما كان

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٦٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٢٦ أ

ذلك امرا شاقا عليه،غير ان كتبغا كفانا ذلك ، لانه من اخوتنا (١) .وعهد السلطان جقمق بنيابة غزة الى الامير طوخ بن عبد الله الابو بكرى بتوصية من اخوته المؤيدية اي مماليك المؤيد شيخ (٢) .

كل هذه العوامل تجعل من المماليك على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم وحدة اجتماعية متماسكة ، يؤدي كل فرد من ابنائها عمله في محيطها في حدود طبقته ودرجته.وسار أبناء الامراء ولا سيما في العصر المملوكي الاول على سنة آبائهم . اذ جرت العادة انه اذا نشأ لاحد الامراء ولد اطلق له السلطان الدنانير واللحم والخبز والعليق حتى يتأهل للاقطاع في جملة الحلقة ، ثم ينتقل الى امرة عشرة وما يليها من الرتب حسب حظه . (٣) ومن اجل بقاء الطبقة المملوكة بصفاتها وخصائصها ، تدخل السلاطين في اختيار زوجات المماليك ، ولذا زوج قلاون مماليكه من جواريه (٤) . على انه منذ سلطنة برقوق الثانية اجاز السلطان للمماليك سكنى القاهرة والتزوج من اهلها ، فنزلوا من الطباق بالقلعة وامتزجوا بأهل المدينة (٥) .

غير ان ذلك لم يكن قاعدة عامة ، فان الوافدية الذين قدموا الى مصر في اعمار كبيرة جاءوا بنسائهم واولادهم ومواشيهم ، كما ان

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٦٣
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ٢٤٠ ب
(٣) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥١
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٣٢٨
(٥) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٤٧

العصر المملوكي الثاني اتصف بكثرة جلب الكبار السن من المماليك الى مصر ، وجاء في أثرهم نساؤهم واقاربهم (١) • وعلى الرغم من ذلك حرص السلاطين على ان يتدخلوا في اخص شئون مماليكهم الذين نزلوا بالطباق • ومثال ذلك ان السلطان قايتباي اصدر سنة ٨٨٧ امرا بمنع القضاة والشهود من عقد زواج المملوك بدون موافقة اغاه (٢) •

وحرص سلاطين المماليك كذلك منذ قيام دولتهم على ان يعيشوا مع مماليكهم في القلعة . ولذا اشتملت القلعة على الدور السلطانية ودار العدل وقصور السلطان والبساتين والبيوت السلطانية مثل الحوائج خاناه والشرانجاناه والطبلخاناه ، وغيرها فضلا عن الطباق والاصطبلات . واشتملت القلعة كذلك على الدور لخواص الامراء بنسائهم واولادهم ومماليكهم ودواوينهم وطشتخاناتهم وفرشخاناتهم وشربخاناتهم ومطابخهم وسائر وظائفهم • يضاف الى ذلك دار الوزارة وبيت المال ودار النيابة والسجون المختلفة والمساجد والحوانيت والاسواق • ومن مرافق القلعة ايضا الميدان وهو فاصل بين الاصطبلات وسوق الخيل ، ويصلي فيه السلطان صلاة العيدين ويلعب فيه بالاكرة مع خواصه ، ويمد به احيانا الاسمطة • وظل اكابر امراء الالوف واعيان امراء الطبلخاناة والعشرات يسكنون القلعة الى اخر ايام الناصر قلاون (٣) •

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٤٧٤
ابن واصل : تاريخ الواصليين ٤٠٦ أ ، ب
العيني : عقد الجمان مجلد ٦١ ص ١١٢

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢١٥ .

(٣) المقريزي : الخطط جـ ٣ ص ٣٣٣
السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ٢ ص ٤٥٥
الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ٢٢٦ .

على ان القلعة لم تكن مقرا لكل الامراء والمماليك ، اذ اقام كثير منهم في دور خارج القلعة لسبب من الاسباب . فاذا تأمر احد اولئك المماليك لا يتغير عن داره التى سكنها اثناء جنديته (١) . وامعن كثير من الامراء في تجديد هذه البيوت ولا سيما زمن السلطان الناصر محمد بن قلاون تقليدا لشغف السلطان بالعمارة . فاشتهرت دار الامير بالسعة وكثرة المباني لسكن الامير وحريمه وجواريه وحواصله فضلا عن مماليكه ، وقد تكون اصطبلاته داخلة في نطاق الدار او منفصلة عنها . فمثلا اشتملت دار الامير أصلهم على اصطبلاته ، وبلغ من سعة اصطبل الامير بكتمر الساقي زمن الناصر قلاون انه كان يتسع لستمائة رأس من الخيل يشرف على كل ست منها سائس ، لكل منهم سطل نحاس ، فصارت عدة من عنده من السياس مائة سائس . وجرت العادة ان يغلق باب اصطبله منذ اذان المغرب ، فيسود الهدوء والسكينة بارجاء الدار ، وانفق على اقامة تلك العمارة الضخمة التي تقع على بركة الفيل اموالا طائلة (٢) .

ويدق على باب امير المائة مقدم الف ثمانية احمال طلبخاناة وطبلان ودهل وزمران واربعة أنفرة . اما اتابك العساكر فله نظير ذلك مرتين . ويدق بباب امير الطبلخاناه ثلاثة احمال طبلخاناه ونفيران (٣) . واذا تأمر لاحد الامراء ولد او ولدان ، يضرب على بابه بقدر عدد من تأمر منهم .

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ١١١
(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٣١٦ ب
(٣) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١١٣ .

ومثال ذلك ان الامير بهادر آص احد امراء الالوف زمن الناصر قلاون ضرب على بابه ثلاث طبلخاناه ، لان اثنين من ابنائه الاربعة صارا أميرين (١) .

وكل امير من امراء المئين او الطبلخاناه سلطان مختصر في غالب الاحوال ، فلكل منهم ما للسلطان من بيوت الخدمة كالطشتخاناه ، والفراشخاناه والركابخاناه والزردخاناه والمطبخ والطبلخاناه . وتحوى الطشتخاناه ما يلبسه الامير من الكلوتات والاقبية وسائر الثياب،والسيف والخف والسرموزا ، كما يوجد بها المقاعد والمخاد والسجادات التي يستعملها الامير (٢) . وتشتمل الفراشخاناه على البسط والخيام ، وتحوي السلاح خاناه السيوف والقسى والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد ، والقراقلات المصنوعة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الاحمر والاصفر فضلا عن الاطبار وسائر انواع السلاح (٣) .

اما الركابخاناه التابعة للامير فتشتمل على عدد الخيول من السروج واللجم والكنابيش والعبي الخاصة بالمواكب والاجلال والمخالي ،ويضاف الى ذلك السروج المغشاة بالذهب والفضة والساذجة ، والكنابيش المتخذة من الذهب المزركش،والعبي المصنوعة من الحرير والصوف (٤). وتشتمل الطبلخاناه على الطبول والابواق وتوابعها من الزمور

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٥٧ ـ ٤٥٨ .
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٦٠ .
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١١ .
(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٢ .

والشبابات والكوسات (١) .

ولكل من الامراء اصطبلات الخيول ومناخات الجمال وشون الغلال . وله من اجناده استادار ورأس نوبة وداوادار وأمير مجلس وجمدارية وأمير أخور واستادار صحبة ومشرف (٢) .

وتطورت ملابس الأمراء والجند منذ قيام الدولة المملوكية شأنها في ذلك شأن سائر ما اصاب النظم المملوكة من التطور . اذ ظل السلطان المملوكي والامراء والجند يلبسون كلوتة صفراء ذات كلاليب بغير عمامة من فوقها ، وجعلوا شعورهم المضفورة تنتهي الى كيس مصنوع من الحرير ، وشدوا اوساطهم ببنود (أحزمة) من قطن بعلبكى مصبوغ، وارتدوا اقبية بيضا او مشجرة باللونين الاحمر والازرق ضيقة الاكمام، وجعلوا فوق القباء كمرين بحلق وابزيم وصوالق كبيرة ، يستخدمها الفارس في حفظ مؤنته وادواته . واتخذوا خفافهم من جلد بلغاري اسود ، وجعلوا من فوق الخف سقمانا وهو خف آخر .

ثم عدل السلطان قلاون هذا الزي ، فأبطل لبس الاقبية ذات الاكمام الضيقة ، وامر بلبس الشاشات . وزادت الملابس حسنا وجمالا زمن السلطان خليل والسلطان الناصر ، فاتخذ الجند الكلوتة الحمراء الصغيرة اللطيفة ، واستجد الناصر العمائم الناصرية الصغيرة مع قص

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٣ ، ج ١١ ص ٨ — ٩

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٦٠ .

ذوانب الشعر (١) . وامتاز الامراء عن الجند منذ عصر السلطان خليل بركوبهم في المواكب بالكلوتات والطرزات والكنابيش الزركش والاقبية الاطلس ، واتخاذ الملبوس الابيض الرفيع والسروج المرصعة(٢). واستقر زي الاجناد والامراء منذ ذلك الحين ، فصاروا يلبسون الاقبية التترية ، ومن فوقها التكلاوات ، وفوق ذلك يرتدون القباء الاسلامى ، ويشدون السيف من جهة اليسار ويجعلون الصوالق والكزلك من جهة اليمين (٣) .

واختلفت ملابس الأمراء والجند زمن الصيف عن ملابسهم زمن الشتاء.ففي زمن الصيف يغلب على جميع قماشهم اللون الابيض، رتكون مناطقهم وهي الحياصات من الفضة المطلية بالذهب ، ولا ترصع بالجواهر الا في خلع السلطان لاكابر امراء المئين ، وفي الشتاء تكون الفوقانيات من الصوف والحرير المفري بالسنجاب . ويلبس اكابر الامراء السمور والوشق والقاقم والفنك . ومعظمهم يلبس المطرز من الزركش او الحرير على الكمين ، ولا يلبس المطرز الا من كان له اقطاع بالحلقة (٤) . وغالب لبس المماليك في ارجلهم الخفاف البيضاء صيفا ، والصفراء شتاء ،

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ١٦٠.
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٦ ، ١٠
ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٠
(٢) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ١٦٠.
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٧ ص ٨٢
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٠
(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٠ ــ ٤١
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٢

ويشدون عليها المهاميز المسقطة ، ولا يكفت مهمازه بالذهب الا من له اقطاع بالحلقة (١) .

وركب السلطان والامراء والجند الخيل المسومة بالقماش النفيس والقوالب المحلاة بالفضة ، ولا يركب البغال الا الغلمان . وامتازت خيول السلطان واعيان الامراء بالغاشية الذهبية ، والكنابيش واللجم الفضية ، وتسبل عليها العبي الملونة من الصوف او الحرير . ويجعل السلطان او الامير الدبوس في حلقة متصلة بالسرج تحت ركبته اليمنى (٢) .

ومن رسم السلطان ان يركب بالجنائب وهي خيول مسرجة معدة للركوب اذا اقتضت الضرورة ، وكذلك يركب الامير وخلفه جنيب واحد مسرج ، وربما ركب بجنيبين . ويكون لكل أمير طلب يشمل اكثر مماليكه (٣) ، وقدامه خزانة ، يحملها لأمير الطبلخاناه جمل واحد ، يجره راكب على جمل آخر ، ويحملها لامير الالف جملان ، ويجر الجنيب مملوك يركب فرسا او هجينا ، ويسير امام الخزانة ركابة من العرب يسوقون هجن الامير باكوارها . ولامير الطبلخاناه من هذه

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤١
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٢

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤١

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٦١
والمقصود بالطلب الفرسان الذين بخدمة الامير ، ويتراوح عددهم من مائتي فارس الى مائة الى سبعين فارسا بحسب رتبة الامير ومكانته . (الخطط (بولاق) ج ١ ص ١٣٩)

الهجن قطار واحد وهو اربعة ، وخامس يركبه هجان ولامير الالـف قطاران (١) .

ومن تقاليد الامراء كذلك انه يركب معهم ارباب الوظائف في بيوتهم مثل رأس نوبة الامير والداوادار وامير مجلس بحسب مكانتهم، فاعلاهم رتبة اقربهم اليه ، وتكون الجمدارية من مماليكه الصغـار خلفه ، وامير أخوره خلف الجميع ، ومعه الجنيب او الجنيبان ، والاوشاقية على قاعدة السلطان في ذلك (٢) .

ومن عادة الامراء في مجالس بيوتهم ان ينصب للامير بشتميخ وهو المسند خلف ظهره ، من الجوخ الاحمر المزهر بالجوخ الملون ،برنك الامير ، وطرازفيه القابه . ويجلس الامير على مقعد مسندا ظهره الى البشتميخ . وربما جلس اكابر الامراء على مدورة من الجلد ، ويجلس الناس امامه حسب مراتبهم (٣) . اما الرنك فهو الشارة التى تدل على وظيفة الامير التي يعتز بها او يشغلها فعلا ، وعلى هذه القاعدة يكـون الكاس او الهناب شارة الساقى ، والدواة شارة الداوادار ، والسيف شارة السلحدار ، والبقجة شارة الجمدار (٤) ، والخوانجا شـارة الجاشكنير . والرنوك خاصة بالامراء ، فاذا تأمر المملوك اصبح لهالحق

(١) المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٣٩ .
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٦١
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٦١
(٤) انظر Mayer : Saracenic Heraldery p. 5, 10.

في ان يكون له رنك (١) ٠

ومنذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ساد استعمال الرنوك في الشرق والغرب معا (٢) ،فنقشت الرنوك على العصائب والتروس واشتهرت ببساطتها وخلوها من الزخارف ، فلم يكن يمتاز الامير عن غيره من الامراء الا باللون الذى يختاره لرنكه . فالملك الناصر داود الايوبي صاحب دمشق جعل رنكه كله اسود اللون مسايرا في ذلك الخليفة العباسي الذي توجه اليه سنة ٦٣٣ يشكو اعمامه ، فلما عاد من بغداد اتخذ الاعلام السود رنكا له تقليدا لأعلام الخليفة (٣) . واشتهر الامير الافرم مملوك السلطان قلاون وسلحداره ، بأن رنكه دائرة بيضاء يشقها شطب أخضر عليه سيف أحمر يمر من البياض الفوقانى الى البياض التحتاني على الشطب الاخضر ٠ وبلغ من حسن هذا الرنك وجماله ان

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٥٠٤ .
ويشير العينى الى ان لكل طائفة من حاشية السلطان خوارزمشاه علامات سوداء تعرف بها ، فعلامة الداوادارية الدواة ، وعلامة السلاحدارية القوس ، وعلامة الطشتدارية الطشت والابريق ، وعلامة الجمدارية البقجة ، وعلامة الاميراخورية البغل ، وعلامة البهلوانية الدبوس، وعلامة الجاندارية الحربة ، وعلامة الجاويشية قبة من الذهب تشد بخيط الى قلانسهم يعرفون بها من بعيد . وفي هذا دليل على انتقال هذه الرموز والشارات الى الدولة المملوكية عن طريق الخوارزمية الذين اكثر الصالح أيوب منهم في جيشه ، وربما أخذ الخوارزمية ذلك عن بعض جيرانهم من الفرس (العيني : عقد الجمان مجلد ٥٢ ص ٤١٤)

(٢) انظر Rey : Les Colonies Franques p. 51.

(٣) ابن واصل : تاريخ الواصليين ص ٢٩٩ ب .

النساء الخواطى وغيرهن اخذن ينقشنه على معاصمهن (١) . وجمع رنك الامير سلار بين اللونين الابيض والاسود (٢) .

اما اتخاذ الحيوانات والطيور والازهار شارات ورموزا للرنوك فكان امرا معروفا في الشرق من قديم الزمن • ففي مصر اتخذ احمد بن طولون الاسد شارة له (٣) . ونقش السلطان بيبرس وابنه السلطان السعيد الاسد كذلك على رنكهما (٤) . ولما ارسل السلطان بيبرس رده على رسالة أبغا التترى سنة ٦٦٧ جعل على الكتاب طمغات فيها رنكة (٥) . وتغنى الشعراء والنساء بعد انتصار بيبرس على التتار عند نهر الفرات سنة ٦٧١ بأبيات شعرية تشير الى فروسية بيبرس ورنكه (٦) .

على ان معظم الامراء المماليك لم يتخذوا من الشارات الا ما يدل على وظائفهم في البيوت السلطانية او صفوف الجيش ، وتتغير بتغير

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٤٥ أ ، ب

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٨ — ٩
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٧٣ — ٧٤ .
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٤٦

(٣) انظر Rey : op. cit. p. 51
Artin : Contribution à l'Etude du Blason en Orient p. 60.

(٤) انظر Artin : op. cit. p. 67

(٥) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٥ ص ٥٤٩ .

(٦) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٥ ص ٦٧٨ — ٦٧٩
ومن هذه الابيات :

فأتاهم جيش النبي يؤمهم ملك الزمان الظاهر الالـي
بعصائب سود عليها رنكه اسد يصيب فوارس الهيجا

الوظائف . وفي حالة وفاة احد الامراء دون ان يترك وراءه وريثا كما هو الشائع عند غالبيتهم ، لا يرثهم سوى اساتذتهم او ذرية اساتذتهم او الدولة (١) . وليس من السهل اثبات انتقال هذه الشارات بالوراثة لانه لم يكن لمعظم الامراء المماليك اسرات تحافظ على هذا التراث . اما السلاطين الذين تولوا السلطنة بالوراثة او بموافقة اكابر الامراء أو بالقوة، فانهم نقشوا اسماءهم والقابهم ورنوكهم على ما كان لهم من عمائر ونقود، ومثال ذلك نقش السلطان بيبرس البندقداري رنكه على القناطر المعروفة حتى الان بقناطر السباع اشارة الى ما نصب عليها من تماثيل من السباع(٢). وحمل انوك بن الناصر قلاون وهو امير مائة ومقدم الف رنك جده قلاون (٣) . ونقش السلاطين شعبان وعلى وحاجى من اسرة قلاون زهرة الزنبق على نقودهم (٤) . وهى الزهرة التى اتخذها ملوك فرنسا رنكا لهم . وجعل الامراء رنوكهم دهانا على ابواب بيوتهم والاماكن المنسوبة اليهم ، كمطابخ السكر وشون الغلال والاملاك والمراكب ، وجعلوها لخيولهم وجمالهم قماشا من خيوط صوف ملون تنقش على العبي ، وربما نقشت على السيوف والاقواس والبركستوانات للخيل وغيرها (٥) .

---

(١) انظر Artin : op. cit. p. 227

(٢) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٢٣٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٧٠ ب

(٤) انظر : Artin : op. cit. p. 228

(٥) انظر Perron : Le Naceri II. p. 227

القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٦٢ .

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٥٢ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٦٢ .

واختلف الامراء في الانفاق على مماليكهم بحسب مواردهم الاقطاعية ومكانة الامير ورتبته وما اشتهر به الامير من الصفات . فاشتهر الامير بيبرس الصالحي بكثرة الصدقات ، وجرى على ان يطلق لمماليكه رواتب وفيرة ، وتراوحت في اليوم الواحد بين سبعين رطلا من اللحم وما يحتاج اليه من التوابل فضلا عن سبعين عليقة ، وبين خمسة ارطال وخمس علائق . وبلغ ما احتاج اليه هذا الامير في كل يوم لسماطة ولدوره والمرتب عليه ثلاثة آلاف رطل لحم ثلاث آلاف عليقة (١) . وسار الامير سودون طاز الظاهرى زمن السلطان فرج على قاعدة من تقدمه من مشهورى الامراء ، فاغدق على مماليكه فضلا عن المماليك السلطانية ، وجعل راتب سماطه في اليوم الف رطل من اللحم الضان خارجا عن الدجاج والاوز (٢) .

غير ان بعض امراء اتبع في معاملة مماليكهم سبيل الاقتصاد والتقدير ، فالامير سودون الاعرج احد امراء الطبلخانات زمن السلطان برسباي ظل يقيم بالطبقة لا ينزل منها ، ولا يركب فرسا ، بل ما كان يرى غالبا الا في الخدمة السلطانية . وبلغ السلطان برسباى حين جعل هذا الامير رأس نوبه لابنه محمد انه لم ينزل الى ربيع الخيل بالجيزة ، فالزمه بذلك ، ولم يقبل منه استعفاء ، وانعم عليه بما يأكله في أثناء الربيع

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٨ ص ١٨٦
المنهل الصافي جـ ١ ص ٣٧٨ ب
(٢) السخاوي : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٢٨٠ .
ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ ٢ ص ١٤٩ أ

من غنم ودجاج وسكر ، فلم يجد بدا من العبور الى الجيـزة علـى كره منـه . فلما اصبح سودون هذا امير مائـة ومقدم الف ، الزمه برسباى بالنزول الى داره التى تقع تجاه مدرسة تغرى بردى المؤيدى . فسكن مع مماليكه وحواشيه الذين اربى عددهم جميعا على مـائـة وخمسين ، سوى الكتابية ، فصار يأمرهم بالركوب في خدمته ايـام المواكب فقط ، فاذا انتهى الى باب داره منعهم من النزول عن خيولهـم بل يقفون ركبانا يمينا وشمالا ، ويدخل بمفرده الى المنزل ، دون أن يمد سماطا ، على جارى العادة بل يأكل ويعطى لكل واحد من مماليكه ثلاثة ارطال لحم ويقول بأن هذا أنفع لهم (١) .

والتزم الامراء أدابا لا يخلون بها ، فاذا دخلوا الـى الخدمـة السلطانية بالايوان او القصر ، وقف كل امير في مكانه المعين له ، ولا يجسر احد منهم ان يتحدث مع رفيقه في الخدمة ولو همسا ، ولا يلتفت نحوه (٢) . اما اوقات الخدمة السلطانية فتختلف باختلاف الهيئات التى يجلس معها السلطان . فاذا جلس للنظر في المظالم بدار العدل بالقلعة وهو صباح الاثنين من كل اسبوع في جميع الشهور ما عدا شهـر رمضان ، اتخذ مكانه على كرسي موضوع تحت سرير الملك ، وجلس عن يمينه قضاة القضاة ووكيل بيت المال والمحتسب ، وجلس عن يساره كاتب السر ، ويكمل الحلقة امامه ناظر الجيش وجماعة الموقعين ، ويقف من وراء السلطان مماليك صغار من السلحدارية والجمدارية والخاصكية،

(١) السخاوي : الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٧٨
ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٦١ أ
(٢) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٢ .

وجلس على مسافة خمس عشرة ذراعا من يمينه ويساره ، ذوو السن من اكابر امراء المئين وهم امراء المشورة ، ويليهم وقوفا اكابر الامراء وارباب الوظائف . وخلف امراء المشورة يقف سائر الامراء ويليهم الحجاب والداوادارية . (١) .

وفي بقية ايام الاسبوع فيما عدا الاثنين والخميس يخرج السلطان عادة من قصوره الجوانية الى قصره الكبير المشرف على اصطبلاته ، فيجلس على تخت الملك ، ويقف الامراء حوله ، ولا يشترك من امراء المشورة في هذا المجلس الا من دعت الحاجة الى حضوره . ويشترك الامراء خاصتهم وعامتهم في صلاة الجمعة والعيدين مع السلطان ، فيؤدي صلاة الجمعة بالجامع المجاور للقصر ، وصلاة العيدين بالميدان الملاصق للاصطبل السلطاني (٢) .

وجرت عادة السلطان ان يركب للعب الكرة بالميدان بعد وفاء النيل في موسم مدته شهران من السنة . ففى كل سبت من ذلك الموسم ينزل السلطان من قصره اول النهار حتى باب الاصطبل ، يحف به الامراء ، ويسير الى الميدان فينزل في قصوره وينزل الامراء منازلهم (على قدر طبقاتهم) ثم يركب للعب الكرة بعد صلاة الظهر والامراء معه ، ثم ينزل فيستريح ويستمر الامراء في لعب الكرة الى اذان العصر .

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٤ .
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٥ — ٤٦ .

فيصلى العصر ويركب على الهيئة التى سبق ذكرها، ويطلع الى قصره(١). ويصحب السلطان معه في اسفاره جماعة كبيرة من اكابر الامراء فضلا عن خواص مماليكه، كما يبيت عنده خواص مماليكه من الامراء وارباب الوظائف الجمدارية (٢) .

وينعم السلطان على الامراء بالخلع في مناسبات معينة ، فاذا ولى اميرا او صاحب منصب وظيفة ، فانه يلبس تشريفا يناسب ولايته بحسب ما تقتضيه الرتبة . وفي عيد الفطر يخلع السلطان على جميع ارباب الوظائف من الامراء وارباب الاقلام كالاستادار والداوادار وأمير سلاح والوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش كل منهم بما يناسبه. وعند الخروج للعب الكرة يخلع السلطان كذلك على اكابر الامراء ، ففي كل ميدان يختص بامير او اكثر بكيس فيه خلعة من المفرج المذهب(٣) .

وجرت عادة السلطان ان ينعم على الامراء بالخيول مرتين في كل سنة ، المرة الاولى عند خروجه الى مرابط خيوله على القرط او اخر الربيع ، فينعم على الاخصاء من امرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم ، وفي المرة الثانية عند لعبة الكرة بالميدان . وكذلك يرسل الى نواب الممالك الشامية ، كل على قدر مكانته . وليس لامراء العشرات في ذلك حظ الا ما يخصهم به على سبيل الانعام . ولخاصة المقربين من

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٧ .
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٢٦ .
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤٨ — ٤٩ .
(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٣ .

الامراء المقدمين والطبلخانات زيادات كثيرة بحيث يصل بعضهم الى مائة فرس في كل سنة . وفي اوقات اخرى يفرق السلطان الخيل على مماليكه ، وربما انعم بها على بعض ذوي السن من اكابر الامراء عند الخروج الى الصيد (١) . ولم تقتصر انعامات السلطان على الخيول بل تعدتها الى الحوائص والملابس والكساوى . واذا خرج السلطان مع الامراء للصيد ، امر بأن تصرف لهم المأكولات والمشروبات والعلوفات لخيولهم (٢) .

ومن التقاليد المرعية ان يمد السلطان بالايوان الكبير بدار العدل كل يوم أسمطة جليلة لعامة الامراء يبلغ عددها خمسا ، يأكل السلطان في الثانى منها ؛ وبلغ راتب سماط السلطان برقوق في كل يوم خمسة آلاف رطل من اللحم سوى الاوز والدجاج (٣) . ويتولى المطبخ السلطاني اعداد هذه الاسمطة ، ويحصل من الحوائج خاناه على ما يحتاج اليه في اعداد الطعام (٤) .

وعرف السلاطين الاوائل اقدار الامراء ومكانتهم فحرصوا على ان يشركوهم في ادارة شئون البلاد ، واتخذوا من الوسائل ما يكفل لهم ولاءهم واخلاصهم ، ومن هذه الوسائل التلطف في معاملتهم ، فلم يسيء

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٤ .
(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٥٥ ــ ٥٦ .
المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٢٣٦
(٣) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٤٢
(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٣
النويرى : نهاية الارب ج ٨ ص ٢٢١

الصالح ايوب الى احد من مماليكه الذين انشأهم ، ولم يقع منه في حال غضبه كلمة قبيحة قط ولم يتعد في شتيمته احد المماليك قوله له يا متخلف ، وترتب على ذلك اشتداد ولائهم له (١) . غير ان ابنه توران شاه لم ينجح في اكتساب ثقة هؤلاء المماليك . اذ حلفوا له بعد ان ذاع بينهم خبر وفاة الصالح ايوب وبعثوا برئيسهم اقطاي لاحضاره من حصن كيفا (٢) ، ثم ساعدوه اكبر المساعدة على الصليبين في وقعة فارسكور سنة ٦٤٨ (٣) • ولم يكد يحرز توران شاه هذا النصر على الصليبيين حتى اعرض عن مماليك ابيه الذين هم عدته ، واخذ يسميهم باسمائهم من باب الاستخفاف . وخص جماعته الذين قدموا معه وولاهم الوظائف السلطانية ، وأساء الظن بالمماليك البحرية وتوعدهم فاجمعوا على اعدامه (٤) • اما السلطان الناصر محمد بن قلاون فاشتهر بحسن سياسته مع الامراء والجند ، فلم يأخذ عليه احد انه اطلق لسانه بكلام فاحش في شدة غضبه ولا في حالة انبساطه ، بل حرص على مخاطبة الأمراء وارباب الولايات وأصحاب الاشغال بأحسن اسمائهم واجمل ألقابهم • فاذا غضب على أحد لا يذكر له ذلك ، بل ينتظر السنين حتى تأتي الفرصة لعقوبته (٥) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ٣٣١ .
(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٤٥ .
(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٢٦ .
(٤) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٥٨ — ٣٥٩
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٤ ص ٣١٣ — ٣١٤
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٦ ص ٣٧٦
(٥) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٣٣ — ٥٣٤ .

ومن مظاهر تقدير السلطان للامراء ، مراعاة مكانتهم اثناء الخدمة والمواكب . وجرت العادة منذ قيام الدولة المملوكية على تسمية قديم الهجرة من الامراء باسم الامير الكبير ، ويجوز ان يكون منهم جماعة في عصر واحد . فيجلسهم السلطان في رأس الميمنة بصرف النظر عن وظائفهم. ومثال ذلك ان الأمير بيبرس الداوادار أحد امراء المئين زمن الناصر قلاون ، اتخذ مكانه رأس الميمنة فوق جميع الأمراء ، لانه اقدمهم هجرة ولم يكن وقتذاك اتابك العساكر (١) . وعنى السلاطين كذلك بترتيب الامراء حسب اقدميتهم في الامرة عند الدخول الى حضرتهم ، فيستقبلهم السلطان واقفا . ومن الدليل على ذلك تقديم اقوش نائب الكرك على الامير بكتمر البوبكري السلحدار في الدخول على السلطان الناصر . فلما استوضح البوبكرى السلطان في ذلك ، اجابه بأن اقوش اكبر منه في المنزلة . فلما استغرب الامراء ذلك اخذوا يبحثون المسألة على وجوهها حتى وجدوا ان نائب الكرك امر في أيام المنصور قلاون امرة عشرة سنة ٦٨٥ ، بينا لم يتأمر البوبكري الا سنة ٦٩٠ ، فسكت الامراء عند ذلك ، وأدركوا ان السلطان يسير على القواعد القديمة ، وانه اعرف منهم بمنازل الامراء (٢) .

واختص بعض السلاطين بامير من أكابر الامراء دون النظر الى وظيفته ورتبته ، فالسلطان بيبرس مثلا فوض امر المملكة للامير سيف الدين

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٢٦٤ .
المنهل الصافي ج ١ ص ٣٥٦ أ
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٩ ص ٥٧

الرشيدى لمكانته عنده ، وجعل له حرية التصرف في كل شيء وأطلق له في كل جمعة خوانين من عنده ، ورتب له كل شهر كلوتتين زركش ، ورتب له برسم مشروبه اثنىعشر الفدينار كلسنة، فضلا عما اختصه به من الاقطاعات الجليلة والمرتبات والانعامات الكثيرة ودفع جوامك حواشيه وصرف العليق لخيله • وظل السلطان بيبرس مبقيا على هذا الامير ، حتى بلغه انه يدبر مؤامرة يعيد بها حكم الايوبيين الىمصر باتصاله بالمغيث عمر صاحب الكرك ، فاصدر بيبرس امره باعتقال الرشيدي ، ولكنه ظل على احسانه للمماليك (١) • وكذلك فعل السلطان قلاون مع الامير سنقر الاشقر الذى جعله نائبا على الشام لانه خشداشه ، غير انه طمع في الملك ، وجعل من عزل اولاد الظاهر بيبرس سببا للخروج علىالطاعة، فجمع الامراء الذين حوله واوهمهم ان السلطان قلاوون قتل وهو يشرب القهوة واستحلفهم لنفسه . وحاول السلطانقلاوناسترضاءه(٢) بكلالوسائل فلم يستجب . فسير اليه عدة حملات حتى هزمه ، فهرب الى الرحبة . ومع هذا ظل السلطان قلاون حريصا على الافادة من سنقر الاشقر حتى لا ينضم الى التتار ، فجرت بينهما مراسلات ، ورضي السلطان ان يبقى سنقر الاشقر على حكم بعض البلاد الشامية وهي صهيون وما يجاورها ، وان يكون بخدمته ستمائة فارس (٣) . غير ان هذه السياسة لم تجد نفعا في اعادة الامير

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤٩٣ — ٤٩٤

(٢) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٤٧ •

(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ١ ص ٦٨٧ •
بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٦٩ •

سنقر الاشقر الى سابق ولائه واخلاصه ، فلم ينهض مع السلطان لمنازلة الصليبيين عند حصن المرقب سنة ٦٨٤ ، كما انه لم يتحرك للقاء السلطان عند قدومه الى الشام . فسير قلاون جيشا لمنازلة سنقر الاشقر في صهيون ، واخيرا اذعن سنقر وعاد الى القاهرة ، وركب السلطان قلاون وولداه وولدا الظاهر بيبرس في موكب حفت به العساكر، واجتمعت فيه الامراء الاكابر وسائر الخشداشية ، وتلقى الامير سنقر بالبشر والترحاب ثم أطلعه الى القلعة معه واسكنه فيها ،وحمل اليه الخلع الفاخرة واعطاه امرة مائة فارس ، وبقى على ذلك بقية ايام السلطان قلاون (١)

واذا دل ذلك كله على مكانة الأمراء عند السلاطين ، فهناك من الحوادث ما يدل على استناد الامراء احيانا الى هذه المكانة، عند مخالفة السلطان للقواعد المرعية او العهود المقطوعة ، مثال ذلك ما حدث للسلطان كتبغا بسبب محاباته لبني جنسه من التتار ، اذ حنق المماليك السلطانية عليه لانه اذلهم وانزلهم من الطباق وقطع رواتبهم فضلا عن اغتصابه السلطنة من الناصر قلاون (٢) ، ولذا اتفق الامراء فيما بينهم على اقامة الامير حسام الدين لاجين السلحدار سلطانا بعد طرد كتبغا شر طرده ، وشرطوا على لاجين ان يكون كاحدهم ولا ينفرد برأي عنهم ولا يفرض احد مماليكه عليهم واخذوا عليه المواثيق ، فحلف على

---

(١) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٢٦٢ — ٢٦٤

(٢) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٣٢٠ ، ٣٢٧ ،٣٢٨

ذلك (١) . غير ان لاجين لم يف لهم بما وعد . اذ فوض امور الدولة الى مملوكه منكوتمر ، فاستبد بوظائف الملك ومهماته، وتنكر للمماليك السلطانية ، وعمل على ابعاد الامراء بتجريدهم في الحملات الى اطراف الدولة ، فوحد كل ذلك بين الامراء والمماليك فتآمروا على لاجين وصنيعته منكوتمر ، فتخلصوا منهما سنة ٦٩٨ (٢) .

ومن التقاليد المرعية أيضا أن يحلف العساكر والامراء جميعا للسلطان عند توليته السلطنة . فلما قتل قطز بالقرب من الصالحية على يد بيبرس سنة ٦٥٨ ، اقبل المتآمرون حتى وصلوا الى الدهليز السلطاني، واعلنوا بيبرس سلطانا ، وجاءت العساكر للحلف ، وتصادف قدوم القاضي برهان الدين لمقابلة قطز ، فقام بتحليف العسكر للسلطان الجديد ، ولم يجد السلطان بيبرس معارضة في حكمه (٣) . ولعهد السلطان بيبرس ترجع قاعدة تحليف السلطان المملوكي للامراء على ولاية العهد لابنه ، مع ان السلطان نفسه واحد منهم . فحين عهد السلطان بولاية العهد لولده السعيد بركة خان، احضر القضاة والشهود والاعيان، وامر بتحليف الامراء ، وكتب له تقليدا قرىء على الناس بحضور هذه الهيئة (٤) . غير ان نظام ولاية العهد لابناء السلاطين لم يكن امرا معقولا او مقبولا في الدولة المملوكية العسكرية التي نشأ السلطان من السلاطين فيها

(١) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣

(٢) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٨٢٣ — ٨٢٤

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ١٢٢

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ١٤٤

خشداشا لغيره من المماليك ، ومع هذا رضى الامراء بولاية العهد لأبناء السلاطين في حياتهم ، بل اغلظوا الايمان على احترام هذا المبدأ . ولكن احترامهم هذا لم يتعد بضعة اشهر بعد السلطان المتوفى، واتخذوا في عدم صلاحية ابناء السلاطين للسلطنة، ومن قلة تجاربهم، اسبابا لتحقيق مطامع احد الامراء في السلطنة . ومثال ذلك عزل السعيد بن بيبرس على يد قلاون بسبب سوء سياسته وتفضيله الظاهرية والخاصكية على غيرهم . ومع ان قلاون امتنع عن قبول السلطنة ، فلم يكن لذلك سبب سوى انه شعر بأن الفرصة لم تسنح له بعد . ولذا اعلن قلاون خلع السعيد ، وعمل بخلعه محضرا شرعيا وصدق عليه الامراء والمفتون والقضاة ، واقام سلامش بن بيبرس سلطانا على ان يكون قلاون اتابكا له وحلف الامراء على ذلك (١) . ثم اخذ قلاون في التخلص من الامراء الموالين لاسرة بيبرس بالنفي والقتل والتشريد ، ولم يلبث ان خلع سلامش وتسلطن هو ، فحلف له الامراء بمصر والشام ما عدا سنقر الاشقر للاسباب التى سبقت الاشارة اليها (٢) .

ولما اشتد المرض بالسلطان الناصر محمد بن قلاون في شوال سنة ٧٤١ ، جمع الامراء واحضر ابنه ابابكر ورشحه ليكون سلطانا بعده ، وأوصاه بالامراء واوصى الامراء به ، وجعل قوصون وبشتاك وصيين عليه وحلفهما ، ثم حلف الامراء والخاصكية (٣) . وكاد مبدأ الوراثة

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧، ص ٢٧٠
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٥٤ — ٦٥٥
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٢٩٤
(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٣

ينجح في الدولة المملوكية لما للسلطان الناصر قلاون من افضال،غير أن هذا المبدأ لم يلبث ان تهدم رغم دأب السلاطين حتى اخر العهد المملوكي على اخذ العهد لابنائهم في حياتهم .

ولم يكن في الامكان ان تسير السلطنة المملوكية على غير ذلك من خلع ابناء السلاطين، واقامة اقوى المماليك واوفرهم ثروة او اكثرهم رجالا في السلطنة ، ذلك ان الامير المملوكي فضلا عن مساواته للسلطان في الرق والعتق والتربية والخدمة بلغ من الثرة كذلك ما جعله نـدا وخصما للسلطان . وتدل المصادرات المختلفة على مبلغ ثروة الامير مـن الامراء . فاذا اوقع السلطان بامير من الامراء بادر بالحوطة على ذخائره وأمواله وحواصله وغلاله ، فتولى الامير سنجر الشجاعي جرد ثـروة الامير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة زمن خليل بن قلاون (١) . فاخرج من بيته ستمائة الف دينار ، ومائة وسبعين قنطار فضة . امـا الاواني الفضية والمكفتة والخيل والبغال والهجن والجمال والابقـار والحواصل فهي اكثر من ان تدرك . ومن القماش شيء كثير من جملته اربعمائة وعشرون ثوبا اطلس ، منها اطلس احمر معدني ، ومنها اطلس اصفر ، تتراوح قيمة كل ثوب بين الف وخمسمائة والف وسبعمائة ، ومنها الفا حياصة ذهب ، والف وسبعمائة كلوتة زركش ، ومن اصناف السلاح ثلاثمائة وتسعون قرقلا، ومائة وثمانون جوشنا مسقطا، وستون بركستونا ومائة وستون طارقة مسقطة ، وثلثمائة سيف ، والف وستمائة

(١) بيبرس الداوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ٣٧٩

صندوق من النشاب ، ووجد له اربعمائة وثمانون مملوكا ،فادخل الجميع في بيت السلطان وتأمر منهم جماعة عرفوا بالحسامية (١)

على ان تركة سلار نائب السلطنة الذي مات في سجنه سنة ٧١٦ زمن السلطان الناصر قلاون ، حوت من الاموال والتحف ما لم يسمع بمثله في خزائن المملوك . اذ تضمنت القوائم التي كتبها احد القضاة الذين ندبوا لجرد هذه التركة جميع ما اشتملت ، واستغرق جردها اربعة ايام . وجدوا في اليوم الاول صناديق افرنجية مصفحة وعثروا بداخلها على مقادير كبيرة من الفصوص والجواهر ، منها رطلان من الياقوت الاحمر ، ورطلان ونصف من البلخش ، وعشرون رطلا من الزمرد ، وثلاثمائة قطعة من الماس وعين الهر ، ومائة وخمسون حبة من اللؤلؤ الكبير المدور ، وزن كل حبة مثقال ، يضاف الى ذلك ما وجدوه بهذه الصناديق من اموال بلغت مائتي الف دينار من الذهب ، واربعمائة الف وواحد وسبعين الف درهم (٢) . وفي اليوم الثانى وجدوا من الذهب خمسة وخمسين الف دينار ، ومن الفضة الف الف درهم ، ورطلين من الفصوص المختلفة ، وما يزن اربعة قناطير من المصاغ من الذهب ما بين خلاخيل تحترق واساور ، وما يزن ستة قناطير من طاسات الفضة والاطباق والاهوان الذهبية والطشوت الفضية . وفي اليوم الثالث عثروا على خمسة واربعين الف دينار ،وثلثمائة الف وثلاثين الف

---

(١) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٧ ص ٧ — ٨
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٣٨٥
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٦

درهم ، وما يزن ثلاثة قناطير من أدوات فضية للمناجق . وبلغ مـــا وجدوه في اليوم الرابع من الذهب الف الف دينار ،ومن الفضة ثلاثمائة الف درهم فضلا عن الاقبية الحريرية الملونة والمفراة بسنجاب التى بلغ مجموعها اربعمائة قباء ، كما وجدوا عنده من السروج الذهب مائة سرج بميازر زركش على مخمل احمر ، والف شقة من الحرير الطردوحش . ووصل صحبة الامير سلار من الكرك حيث كان منفيا ، من الذهب مائة الف دينار ، ومن الفضة اربعمائة الف درهم ، ومن الخلع الملونة ثلاثمائة خلعة . يضاف الى ذلك نحو ست عشرة من الخيام والخركاوات الخشب المغشاة باطلس احمر مرقوم مزركش . اما الخيل وغيرها من الـــدواب فبلغ عدد ما عنده من الخيول الخاصة به ثلاثمائة رأس دون الدشـــار ومن البغال مائة وعشرين قطارا ، ومن الجمال مائة وعشرين قطارا ، هذا كله خارج عما وجد عنده من الاغنام والابقار فهي اكثـــر من ان تحصى ، كما وجدوا في شونه ثلاثمائة الف اردب من الغلال فضلا عن الاملاك والضياع والمعاصر والشون والمراكب والعبيد والخدم والمماليك والجوارى (١) .

واحتاط السلطان الناصر قلاون على موجود الامير تنكز نائـــب الشام سنة ٧٤٠ ، فضبط عنده من الذهب ثلثمائة الف وستين الـــف دينار ، ومن الفضة الف الف وخمسمائة الف درهم ، ووجد عنـــده ثلاثة صناديق من الفصوص الياقوت والبلخش واللؤلؤ . اما الطـــراز

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٦

الزركش والحوانص الذهب والخلع الاطلس فبلغت عدتها مائة وخمسين بقجة ، وبلغت عدة القماش الصوف خمسمائة بقجة ، ووجد عنده من الفراش والبرك والاواني ما حمله والي القاهرة على مائة وخمسين جملا، وقدرت ودائعه عند الناس بمائتي الف دينار من الذهب والف ألف درهم ومائة الف درهم من الفضة (١) .

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٢

الفصل السابع

الخـــاتمة

اهمية الفروسية المملوكية

في التاريخ المصري

اصول الفروسية المملوكية ـ صفات سكان البراري من الترك والاقوام الاخرى ـ قابلية الترك للاخذ بحضارة البلاد المجاورة ـ استخدام الترك في الجيش الاسلامي ـ محافظتهم على بعض تقاليدهم وعاداتهم ـ السلاجقة وتأثرهم بالنظم الاسلامية ـ جنكيزخان وسيطرته على شعوب وسط اسيا ـ الياسه او اليسق واهميتها السياسية والحربية ـ الجيش المملوكي وخصائص الفروسية المملوكية ـ عوامـــل انحلالها

لم يقتصر شراء الرقيق لاستخدامهم في الحروب على الدولـة الاسلامية ، بل شاركها في ذلك ما سبقها من الدول القديمة . غيـر ان الدولة الاسلامية انفردت بما استحدثته من نظام حربي دقيق لاستخدام الرق في الجيش ، وظل هذا النظام يعمل في قوة ونشاط زمنا طويـلا منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) حين ادخل الخليفة المعتصم العباسي المماليك من الترك في الجيش الاسلامي ، حتى زال هـــذا

النظام الحربي في بداية القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) على يد نابليون بونابرت ومحمد على بالقضاء على قوة المماليك .

ولهذا النظام الحربى فضل كبير في توسيع العالم الاسلامى فضلا عن حمايته من تحديات الصليبيين والمغول . على ان هذا النظام الحربى لم تظهر اهميته الا بعد تطوره وانتقاله من أواسط اسيا الى سواحل البحر المتوسط اي مصر والشام واسيا الصغرى حيث بلغ الغاية في الكمال عند المماليك والعثمانيين . وخضع هذا النظام فى نموه وتطوره لعدة مؤثرات . اولها ما اشتهر به سكان اقليم البرارى من الترك والتتار والقبجاق والجركس من صفات تدل على تأصل الفروسية فيهم نتيجة للبيئة التي يعيشون فيها . ومن هذه الصفات الشدة والجرأة في القتال ، فلا يقدم الواحد منهم على شيء الا بعد احكام الامر، والنظر في العواقب، فيهتم بدابته وادواتها وبسلاحه وانواعه، فالتركى على قول الجاحظ « اجود الناس تقويما لبرذونه ، فهو الذى استنتجه ورباه ، فاذا دعاه تبعه ، وان ركض جرى خلفه ، واذا ركبه صار طوع اشارته » . واذا بلغ الناس واديا من الوديان او نهرا من الانهار لم ينتظر التركى دوره في العبور ، بل يقحم برذونه في الوادى او النهر فلا يلبث ان يطلع من الجانب الاخر . ولا ينفك التركي اثناء سيره يركض خلف الظباء والارانب لصيدها ، فان اعياه الصيد فصد

(١) الجاحظ : ثلاث رسائل ص ٣١

دابة من دوابه ، او حلب رمكة من رماكه . واذا اراح التركي واحدة من دوابه ركب اخرى من غير ان ينزل الى الارض . وتفوق التركي على غيره في الرمي على ظهر الخيل ، فالتركي هو الراعي وهو السائس والرائض والنخاس والبيطار وهو الفارس كذلك . واذا صاف الترك جيشا من الجيوش ، ادركوا لاول وهلة ما في جيش العدو من عيوب ، فخواطرهم واحدة ودواعيهم متساوية ، ولذلك لا يتطرق الاختلاف الى صفوفهم .

وحرص التركي على ان يتولى بنفسه اعداد سلاحه فهو الذي يذيب حديد سيفه تزرف ويرهفه ويصنع غمده ويجلد هذا الغمد ويحليه ويخرز حمائله ، وهو الذي يصنع سائر آلته الحربية من سرج فرسه ورمحه وسهامه وجعبته (١) . وممن الصفات التي اشتهر بها الترك طاعتهم لكبرائهم ، فاذا تفرقوا في حادث من الحوادث رجعوا كلهم الى مكان واحد (٢) .

وعلى الرغم مما اشتهر به الترك من الشجاعة والاقدام والكبرياء واليقظة وحب المخاطرة ودقة الملاحظة وطاعة الزعماء وتعظيم الدين

---

(١) الجاحظ : ثلاث رسائل ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٧
كتاب الحيوان ج ٣ ص ١٦١
ابن منكلى : الاحكام الملوكية ص ١٣١

(٢) الاصطخرى : كتاب احسن التقاسيم ص ٢٩٢
ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك ص ٣٤١

والخضوع للنظام ،فانهم اخذوا بحضارة البلاد التى امتدوا اليها فـــى سرعة (١) .

وامتاز الفرس كذلك بقدرتهم على اخضاع الاقوام الذين تغلبوا على بلادهم أو أغاروا عليها ، لما عندهم مـــن النظم والتقاليد . وادرك الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك هذه الميزة عند الفرس ، اذ روى عنه انه قال « عجبت لهؤلاء الاعاجم ملكوا الف سنة فلم يحتاجوا الينا ساعة ، وملكنا مائة سنة لم نستغن عنهم ساعة (٢) » .

ومن الامثلة على اخذ الاتراك باسباب النظام والمدنية ما اعـــده الخليفة المعتصم العباسى لجنده الاتراك الذين ادخلهم في جيشه.اذ انشأ لهم مدينة سامرا ، وذلك خوفا من وثوب اهل بغداد عليهم لانهم تراءوا في اول عهدهم بالخدمة ،عجفا جفاة ، يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الناس ويتعرضون بذلك لاعتداء اهل المدينة عليهم (٣) . واتخذ يعقوب بن الليث الصفار مؤسس الدولـــة الصفارية في سجستان في عهد الخليفة المعتمد العباسى غلمانا صغـــارا من الترك للخدمة في الجيش والقصر السلطانى ، وعنى بتعليمهم اصول الخدمة الحربية والطاعة العمياء ، واساليب العمل في القصر (٤) . واشار نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى الى المراحل التى يتنقل فيها المملوك

---

(١) انظر Semple : Influences of Geographicol Environment p. 510

(٢) البنداري : تواريخ آل سلجوق ص ٥٧ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ١٨١ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٤١ .

عند السامانيين ، الذين اقاموا دولتهم في خراسان في منتصف القرن الرابع الهجري ، ويتضح من اشارته ان ما جرت به القواعد من تربية المماليك ، ان يكون جلبهم في سن مبكرة وان يسجلوا في جريدة تحفظ بديوان الجيش ، وان يراعى في تربيتهم موالاتهم بالعطف والحدب عليهم وعدم تكليفهم ما لا طاقة لهم به ، وتنشئتهم على السرعة عند دعوتهم للتجمع والانصراف ، وتدرجهم في اطوار الخدمة بالقصر باستخدامهم سقاة وجمدارية وسلحدارية (١) . فيخدم المملوك المجلوب حديثا عند سيده راجلا ، يلبس في السنة الاولى من تعليمه ثوبا من القطن البعلبكي ويسير ازاء ركاب سيده ، ولا يجوز له ان يمتطي حصانا اطلاقا . واذا شاع عنه بانه ركب فرسا لقي جزاءه من العقوبة على ما ارتكب من ذنب . فاذا اتم المملوك خدمته في السنة الاولى وبلغ الغاية فيها ، انهى مقدم طبقته الى الحاجب بما انتهى اليه امره ، فيخرج له فرسا تركيا (برذونا) بمقوده فقط . ويقضي المملوك سنة اخرى في تعلم ركوب الخيل ورياضتها ، فاذا استوى له الركوب على الخيل المجردة ركبها على السرج. وكلما انتهى من مرحلة بنجاح ، زاد قدره وارتفع شأنه ، وحصل على امتيازات جديدة فيركب بسرج نفيس ولجام مسقط ، ويلبس ثوبا من الحرير والقطن ، ويعطى دبوسا يثبته بحلقة في سرج فرسه تحت ركبته اليمنى . وفي السنة السادسة يرتدي المملوك قباء بالوان زاهية ، وفى السنة السابعة يمنحه استاذه خيمة ترتكز على عمود واحد ، ويحفظها ستة عشر وتدا ، ويمشي في خدمته ثلاثة مماليك ، وينعم عليه استاذه بلقب مقدم

---

(١) انظر Schefer : Siasset Nameh p. 139.

طبقة ، فيلبس كلوتة من اللبد الاسود المزركش بالفضة ويرتدى قباء من الحرير . ويظل المملوك يرتقى في الوظائف حتى يصير حاجبا . وبرغم ما اشتهر به من المهارة والجدارة في اعماله، واكتساب ثقة سيده وتقديره ومحبته ، فانه لا يتأمر الا عند بلوغه الخامسة والثلاثين من عمره (١) .

وخطا نظام تربية المماليك خطوة ثانية زمن الدولة السلجوقيـــة بتطبيق ما درج عليه السلاجقة من القواعد والتقاليد التي سادت بينهم في مواطنهم الاولى ، فضلا عن اخذهم بما صادفوه من النظم الحربية والاقتصادية في أقاليم الدولة العباسية ، فاعتمدوا في تجديد جيشـــهم على جلب المماليك وتدريبهم . واقتضت الاحوال الإقتصادية والحروب الداخلية ،اقطاع الجند الاقطاعات.ولذا بقى لفظ الياسةالمغولى دالا على مجموع القوانين والتقاليد التى سار عليها السلاجقة،ومنهاشتقوا لفظ السياسة الذي استخدمه المؤرخون المسلمون فيما بعد ، انما اقتصـر تطبيق هذه المجموعة من القوانين والتقاليد على ما يقع بين الجنــد والعساكر من نزاع وخلاف ، وعلى تأديبهم واخذهم بالنظام . ومـــن الادلة على ذلك ان نور الدين محمود ، حين صارت الموصل اليه بعد زنكى امر كمشتكين قائد القلعة الا يعمل شيئا الا بالشرع ولا يعمل بالسياسة التىسارعليها سلفهفيمعاملةالامراء (٢). ولما اكشفصلاحالدين سنة ٥٦٩ امر الفتنة التي دبرها انصار الفاطميين مـــن الجند لاعـــادة

---

(١) انظر Schefer : Siasset Nameh p. 139

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٣

ملكهم ، امر باحضار مقدميهم واعتقالهم لاقامة السياسة فيهم ، ولم يستخدم حدود الشرع في ذلك (١) .

ثم كان ظهور جنكيزخان وزعامته للتتار وسيادته على جميع الاقوام والقبائل التى تسكن الاقاليم الممتدة من صحراء جوبى حتى نهر الفلجا ،وهىاقوام وقبائل تتشابه في تقاليدها وعاداتها ومظاهر حياتها ووسائلها ، فجمع جنكيزخان سنة ١٢٠٦ (٦٠٤ هـ) هذه القواعد التى خضع لها هؤلاء الاقوام فيما يعرف بالياسه ، وعلى هذا يكون جنكيزخان هو الذي نظم حياة المجتمع التتري من النواحي السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية . اذ نص هذا القانون على عقوبة القتل لجرائم الزنا ، واللواطة والقتل والسرقة ، والكذب والتجسس والسحر او تعمد اخفاء مملوك او محاولة اطعام اسير بغير اذن وليه . والتزم هذا القانون الجنكيزخانى الا يأكل أحد من يد اخر حتى يأكل منه صاحبه اولا ، والا يختص احد بطعام بل يشرك معه غيره في تناوله. هذا القانون كذلك حرّم غسل الثياب واوجب لبسها حتى تبلى، كما منع الالقاب الفخمة ، وحتم على الجيش والعساكر ان يستوفوا اسلحتهم ، فيحاسبون عند عرضهم على كل شيء حتى الابرة والخيط ، فاذا قصر أحدهم في واجبه لقي جزاءه . والزم هذا القانون نساء العساكر بالقيام باعمال الرجال في السخرة والكلف في مدة غيبتهم في الحرب ، وجعل على العساكر عند عودتهم في القتال كلفة يقومون بها للسلطان . والزمهم

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ص ٢١٩

عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الابكار ليختار منهن السلطـان لنفسه ولاولاده • ورتب لعساكره امراء الالوف وامراء مئين وامــراء عشرات ، وقرّر أنه اذا اذنب امير مهما علت مكانته ، وجبت عليه الطاعة والاذعان للعقوبة ولو بلغت حد القتل . واعتاد جنكيزخان ان يجعل للصيد ثلاثة شهور في السنة بين سقوط الجليد وظهور العشب ، ويقضي الشهور الباقية في الحرب • ويضرب حلقة الصيد فيكون ما بـــين طرفيها ثلاثة اشهر ، ثم تأخذ في الضيق حتى يجتمع فيها انواع شتى من الحيوانات (١) •

وقامت خطة الحرب عند التتار على استخدام الكشافة، وهي طائفة من الجند تسير على مسافة من مقدمة الجيوش ، ومهمتها مراقبــة العدو بعد أن تتخذ من التدابير والوسائل ما يكفل عدم احساس العــدو بحركاتها ، ويليهم فرقة من الفرسان يركبون البراذين، ويتخذون اماكنهم في مقدمة الجيش وعلى المجنبتين ، ومهمتهم مباغتة العدو بارسال وابل من سهامهم عليه حتى يقع الاضطراب بين صفوفه • فاذا انتهى هؤلاء من عملهم ، وجد العدو نفسه مشتبكا في صراع عنيف مع الفرسان المدرعين، الذين يتخذون مواضعهم في قلب الجيش ، ويعتمدون في قتالهم علـى استخدام السيوف • وفي كل هذه العمليات يحرص التتار عادة عـلى

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٧ ــ ٣٥٨ .
العيني : عقد الجمان مجلد ٥٢ ص ٦٥ ــ ٦٦ ، ٢٧٩
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٣١٢
انظـر **Lamb** : Genghis Khan pp. 214 - 215
Grousset : L'Empire des Steppes p. 282.

استدراج عدوهم الى المكان الذى يختارونه للايقاع بـه ، فيتظاهرون بالانسحاب من موضعهم حتى يطمع العدو فيهم ويسير في اعقابهم، حتى اذا اطمأن التتار الى ان عدوهم ابتعد عن قواعده الاصلية اوقعه في الكمين الذي نصبه له (١) .

ولغارات جنكيزخان اثر في تكوين الجيش المملوكي ، اذ تبين للصالح ايوب انه لا يمكن الاعتماد على الاكراد الذين اعتقد بعضهم انهم اسوياء له في السلطنة بحكم الجنس. فحرص على استخدام طائفة من الخوارزمية الذين هربوا من وجه جيوش جنكيزخان بعد استيلائهم على مملكة خوارزم شاه ، وتشتتوا في انحاء الشرق الاوسط فدخل عدد كبير منهم في خدمة علاء الدين كيقباذ سلطان السلاجقة بالروم ، غير انهم لم يلبثوا ان خرجوا على طاعته واخذوا يعيثون في البلاد فسادا(٢). ونجح الصالح ايوب اثناء قيامه بحكم البلاد الجزرية والشرق في استمالتهم ، وافاد منهم في استرداد بيت المقدس من الصليبيين . غير انهم لم يتخلوا عن سابق عهدهم بما لجأوا اليه من النهب والسلب والتآمر واثارة الفتن والحروب الداخلية(٣) .فعمد الصالح أيوب الى شراء عدد من المماليك انزلهم بقلعة الروضة ، وعمل على تنشئتهم وتدريبهم حربيا فنشأوا على الولاء والاخلاص له ، وظهرت كفاءتهم الحربية في وقعة فارسكور سنة ٦٤٨ ، حيث انتصروا على الصليبين وأسروا لويس التاسع ، ملك فرنسا .

(١) انظر Grousset : L'Empire des Steppes pp. 284-285

(٢) العيني : عقد الجمان مجلد ٥٣ ص ١٧٩ .

(٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٦ .

وادرك المماليك قوتهم فتمكنوا من القضاء على الدولة الايوبية بسبب سوء معاملة توران شاه بن الصالح ايوب لهم ، وانقسام البيت الايوبى في مصر والشام على نفسه ، وتعرض مصر والشام لاخطار الصليبيين والمغول ، وتفوق العنصر المملوكى فيالجيش الايوبى .وما لبث الخليفة المستعصم العباسي ان اقر التغيير في الحكم على أساس ان حكم المماليك لم يخرج عن تقاليد الخلفاء العباسيين بما جرى من تفويض الامراء في ادارة البلاد التىيحكمونها ، والدليل علىذلكانه أمر ارسال الخلعة الخليفية وسائر شارات الملك الى سلطان مصر والشام .

ولما سقطت بغداد في يد التتار سنة ١٢٥٨ لجأ الخليفة العباسي الى مصر ،فغدا خليفة رسول الله وامير المؤمنينفيحماية المماليك ،يذكر اسمه في خطبة الجمعة ويحتفظ بشارات الخلافة التي يفتقر اليها السلطان المملوكي • فالخليفة يقلد السلطان حكم البلاد الاسلامية ، ويتجدد هذا التقليد كلما تولى الحكم سلطان جديد • على ان القاعدة المتبعة اقتضت بأن يختار الامراء السلطان من بينهم فاذا حاول السلطان ترشيح ابنه لولاية العهد فلا يتم ذلك الا بموافقة الامراء ، وهذا الاختيار يتفق مع تقاليد التتار في اختيار زعمائهم ، انما اقتضى كذلك موافقة الجماعة الاسلامية التى يمثلها الخليفة (١) .

ومن اهم قواعد الحكم في الدولة المملوكية اعداد طبقة للاعتماد عليها في الحرب والادارة • وتألفت هذه الطبقة من المماليك المجلوبين

---

(١) انظر Demombynes : La Syrie pp. XX-XXI.

صغار السن من بلاد القبجاق، واستقروا في الطباق حيث تلقوا التدريب الحربى والتعليم الدينى ، وخضعوا لما فرض عليهم من اساليب التدريب والتأديب ، وهى لا تخرج كثيرا عن التقاليد المعروفة عند التتار . فعلى الرغم من انهؤلاء المماليك نشأوا بدار الاسلام، الا انهم احتاجوا في ذات انفسهم الى الرجوع الى حكم الياسه (١) . فسار السلطان الظاهر بيبرس على هذه القاعدة فيما يتعلق بالنظم الحربية وانزال العقوبات الصارمة لمن يرتكب جرائم ، اذ لا تكفى الحدود الشرعية في ردعهم(٢)، فمن بين الوصايا الموجهة لوالي الحرب وصية بمكافحة الخمر والحشيش وتفقد ارباب النحل واقامة حكم السياسة ، اذ لم تكف الحدود الشرعية (٣) .

والسلطان الظاهر بيبرس هو الذي نظم وظائف الدولة ورتب الامراء والاجناد في وظائف لم يتولوها من قبل مثل الداوادارية والحجوبية، كما عين طائفة منهم خازندارية واميرا أخورية والسرأخورية وسقاة وجمدارية ورؤوس نوب وسلحدارية وامراء مجلس وامراء شكار (٤). واصبح من واجبات الحاجب الفصل في قضايا المماليك فيما اختلفوا فيه من عوائد (٥) .

ومن الالة على الاخذ باليسق او الياسه عند المماليك تنظيم الجيش

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٩ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ١٨٢ — ١٨٣
(٣) العمري : التعريف ص ١٠٢ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ١٨٤
(٥) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٥٩ .

المملوكي وفقا للنظام العشري المعروف عند التتار ،وتعبئته وحركته ،طبقا للخطة المتبعة في الجيش التترى من حيث تطويق سائر قوات العدو ، والاحاطة بها من جميع الجهات متخذين في ذلك نظام الحلقة التي اعتاد التتار نصبها للايقاع بالوحوش ،وساروا عليها في الايقاع باعدائهم (١) • وجرت عادة سلاطين المماليك على اقامة حلقات الصيد في الصحراء الشرقية والصحراء الغربية • فعند خروج السلطان بيبرس الى الشام سنة ٦٦١ اخذ يمارس الصيد في اثناء الطريق ، فضرب حلقة بالعريش قوامها ثلاثة آلاف فارس كلهم من خواصه (٢) ، وعند خروجه للصيد في الصحراء الغربية سنة ٦٦٨ ركب في الحراريق الى الطرانه ثم دخل البرية وضرب حلقة امتدت حتى الاسكندرية (٣) • وسار السلاطين الذين خلفوه على هذه القاعدة •

ولمدة اقامة المملوك في الطباق اهمية في حياة المملوك ومستقبله ، اذ جمعت الطباق بين طوائف من المماليك جاءت من عناصر وبلاد مختلفة، على الرغم من ان العنصر التركى القبجاقى هو السائد في العصر المملوكى الاول ، وان العنصر الجركسى هو الغالب في العصر المملوكى الثانى . فخضعت جميع العناصر لما فرض عليها من نظام صارم •

اما الاثر الثاني فيتمثل في اعتناق المماليك الدين الاسلامي وتلقيهم

(١) انظر Poliak : The Influence of Ghingiskhan's Yasa p. 872.

(٢) ابن واصل : تاريخ الواصليين ص ٤١٢ ب .
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤٨٠ — ٤٨١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ١٤٧ .
العيني : عقد الجمان مجلد ٢٥ ص ٥٥٢ .

اصوله في الطباق ، وانقطاع الصلة التي تربطهم بمواطنهم ودياناتهم الاولى فنشأوا على خدمة الدولة الاسلامية ، وتجلى اثر ذلك في حربهم مع الصليبيين والتتار • يضاف الى ذلك ما تولد بين المماليك في الطباق من روابط الزمالة في الرق والتعليم والعتق مما كان له اثر، في اختيار السلطان والولاء له وتوليهم الوظائف الرئيسية في الدولة ، فضلا عن خطورتهم على مركز السلطنة ذاتها واثارة البغضاء والكراهية ضد الفئات الاخرى من الجيش المملوكي التي لم تنشأ بالطباق •

ومن المعروف ان هذا النظام كفل مكافأة المملوك على ما اشتهر به من الجدارة في عمل من الاعمال او فن من فنون الفروسية • وتجري المكافأة بوسيلتين ، الاولى بالتنقل في مدارج الوظائف والرتب المختلفة والثانية بما يرتبط بترقية المملوك من زيادة الرواتب والارزاق ،وتدرج المملوك من الراتب والجامكية الى الاقطاع • واقتضى ذلك تعميم الاقطاعية التي لم يخل عصر من العصور الاسلامية ولا سيما زمن العباسيين الذين اتسع الاقطاع في ايامهم بسبب تفكك الدولة وتغلب الاتراك • والواقع ان الاقطاعية تطورت زمن العباسيين في بغداد حتى اصبحت وراثية ، وجاء السلاجقة فصارت الاقطاعية نظاما عاما ، وانتقل الاقطاع الحربي عن طريق الزنكيين والايوبيين الى مصر والشام •

غير ان توزيع الاقطاعات بين الاجناد والامراء تأثر بما كان سائدا في مصر من قديم الزمن من النظم المالية وارتباط جمع الخراج بما تغله الاراضي من المحصولات ، فضلا عن تفاوت تقدير الخراج في الجهات

المختلفة بحسب خصوبتها وسهولة ريها (١) ، كما هـو السائـد في التوزيع الاقطاعى في اى من البلاد في الشرق او الغرب ، يضاف الى ذلك ما يبدو من الاثر المغولي في حقوق السلطان في توزيع الاقاطيع بين الفئات المختلفة من الجيش .

ومن آثار التقاليد الخليفية تقسيم ارباب الوظائف الى صنفين أرباب السيف وهم من الاجانب الذين جلبوا حديثا ودخلوا فـي دار الاسلام ، وارباب القلم والمعرفة وهم اقل خطرا من الطبقة الاولى ، انما تقتضى الظروف بأن يظل التعاون الوثيق قائما بين هاتين الطبقتين . وليست اعمـال ارباب القلم والمعرفة بمجهولة عند الامراء والسلطـان وعند سائر الموظفين ، فهم الذين يتولون الوظائف الدينية وديـوان الانشاء والقضاء ويقومون على التعليم والطب والصناعة والتجارة ، وحظى بعضهم بعطف السلاطين فغدوا موضع ثقتهم ، بل عهدوا اليهـم بالقيام بالاعمال الهامة (٢) . فالطائفة الاولى (أرباب السيف) مؤلفة اصلا من المماليك الذين جاءوا من خارج البلاد وقضوا في الرق مدة طويلة، على حين ان الطائفة الاخرى جاءت من بين سكان الدولة المملوكية، وولد افرادها احرارا مسلمين. وولاء الطائفة الاولى مصدره الرق والعتق ، على حين تعتمد الطائفة الثانية في ولائها واخلاصها على الكياسة والادب ، مما يجعل طاعـة الطائفة الاولى للسلطان واجبة على حين ان السلطان قد يجد من يعارضه من الطائفة الثانية .يضاف الى ذلك ان الثـروة

(١) انظر Bell : op. cit. p. 99.
(٢) انظر Demombynes : op. cit. p. XLVIII.

والسلطـة والامتيازات تجمعت في ايدي الطائفة الاولى على حـين حرم منها افراد الطائفة الثانية • كل هذه العوامل ولدت شيئا كثيرا من المنافسة والبغضاء بين الطائفتين ، ومن الامثلة على ذلك ان سيف الدين لاجين الجركسى الذى رشحه الجراكسة للسلطنة بعد برقوق وعد قومه بأنه اذا تولى السلطنة سوف ينزع الاراضي الموقوفة على المساجد ويحرق كتب الفقه ويعزل القضاة من وظائفهم ، ولا يجعل منهم الا قاضيا واحدا يختاره من الاتراك الذين يسيرون على مذهب أبى حنيفة (١) .

واذا طرأ تغيير في موقف الطبقتين ، بأن انتقل احد اربـاب القلم الى وظيفة من وظائف ارباب السيف ، اعتبر المؤرخون ذلك امرا غريبا ومثال ذلك ما حدث سنة ٨٠٨ (١٤٠٦) حين ادخل السلطان فرج ابن برقوق في مجلس المشورة القاضى سعد الدين وجعله رأس المشورة وانعم عليه بأمرة مائـة وتقدمة الف بالديار المصرية ، اشار المؤرخون الى ان مباشرا اصبح اميرا يلبس الكلفتاه ويتمنطق بالسيف ويحضر الخدمة السلطانية مع الامراء (٢) .

على ان نظام الفروسية المملوكية حمل في طياته بذور الانحـلال والفناء حتى اذا تجمعت هذه البذور اواخر الحكم المملوكي لاسبـاب سياسية واقتصادية وحربية ، فقد هذا النظام روحه وجوهره وظـل محتفظا بمظهره الخارجي حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادي •

---

(١) انظر Demombynes : op. cit. p. LXIX

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٥٥
انظر Demombynes :op. cit. p. LXIX.

فالواقع ان للقواعد التى قامت عليها الفروسية المملوكية ترتكز الى ما حصل عليه المماليك من تدريب حربى ودينى أثرا في خلقهم وتحديد سلوكهم ومستقبلهم . يضاف الى ذلك ما التزمه هذا النظام من ولاء المملوك واخلاصه لسيده ورفاقه في الرق والعتق ،فضلا عن تقدير كفاءة المملوك وجدارته عند ترقيته في الرتب والوظائف ، وطول المدة في الطباق حتى تتأصل في نفس المملوك الصفات التي تخلق منه فارسا ملما باصول الفروسية .

غير ان هذه القواعد اصابها كثير من الخلل والاضطراب ، فلم يعد السلاطين الجراكسة يحفلون بأن تطول مدة بقاء المملوك في الطباق فيخرج مفتقرا الى الصفات التى يشتهر بها الفارس الماهر من التدريب الجيد والخلق القويم والولاء الصحيح . يضاف الى ذلك كثرة جلب البالغين من المماليك الذين جاءوا بعد ان تكونت اخلاقهم وامتهنوا الحرف في بلادهم ، وكثير من هؤلاء المجلوبين يمتون بصلة القرابة والنسب للسلاطين والامراء في مصر ، فضلا عن هجرة عدد كبير منهم من بلادهم بسبب ما حاق ببلادهم من خراب نتيجة اغارات تيمورلنك ، فنقلوا معهم مساوءهم ورذائلهم وغدوا مصدرا للشر والفتنة في البلاد ، ونسب اليهم المقريزي ما اصاب البلاد من خراب (١) .

ومن العوامل التي اضعفت هذا النظام ارتباطه بنظام الحكم اذ تأثر ولاء المملوك بما اصاب نظام الحكم من هزات وضربات ، اذ ان

(١) المقريزى : الخطط (بولاق) ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

محاولات السلاطين في العصر المملوكي الاول في جعل الحكم وراثيا لم تحظ بالموافقة الاجماعية من الأمراء • ومن الامثلة على ذلك ما بدا من مقاومة الامراء لحكم ابن ايبك ولحكم السعيد بن بيبرس ، واضطرار الناصر قلاون الى التخلى عن السلطنة لبعض الأمراء الأقوياء . وفي عصر الجراكسة اهمل مبدأ الوراثة نهائيا مع المحافظة على مهزلة تولية ابن السلطان المتوفي مدة قصيرة جدا ، فاصبح من العسير على المماليك ان ينقلوا ولاءهم من سلطان الى آخر . ففى عصر الجراكسة بالذات ،اصبح المماليك المشتروات وهم المعروفون بالاجلاب والجلبان الدعامة الوحيدة التي يرتكن عليها السلطان في مقاومة الفئات الاخرى من المماليك السلطانية ، وعلى الاخص مماليك السلاطين السابقين وهم المعرفون بالقرانيص • فالسلطان ومشترواته هم الذين يتمتعون بالسلطان والنفوذ والثروة • اذ جرى السلطان على ان يفسح لهؤلاء المشتروات الطريق ليظفروا بالقوة والسلطة فضلا عن الاكثار من عددهم • ولعل هذا هو السر في انه كلما ارتقى سلطان جديد دست السلطنة أجرى عقب توليه حركات تطهيرية عنيفة ترمي الى التخلص من مماليك السلطان السالف له في الحكم ، فاقصاهم عن وظائفهم والقى بهم في السجن ، او نقلهم الى جهات نائية او الى خدمة الامراء . ونجم عن ذلك ان تألف من مماليك السلاطين السالفين طائفة لم تكن متجانسة ولا متماسكة لانها من عناصر مختلفة ومتعادية ، تدين بالولاء الى سلاطين مختلفين ، ولم تجتمع هذه الطائفة الا على كراهية المشتروات • وتوافرت اسباب هذه الكراهية زمن الجراكسة ، لقصر عهد سلاطينهم، فتكونت منهم عدة

تشكيلات انتمى افرادها الى السلاطين الذين اشتروهم وجلبوهم ،مثل الاينالية والجكمية والخشقدمية .

وظلت الدولة المملوكية غنية قوية طالما ظل جيشها مدربا ومنظما تسيره عقول متزنة بصيرة بما للزمالة بين المماليك ، ولعلاقتهم بسادتهم من اهمية في كيان الدولة . ثم اخذت الدولة في الانحلال تحت حكم الجراكسة بسبب انطلاق الاهواء الذاتية ، فغدت رابطة الزمالة مصدر خطر على الجيش ، واصبحت عاملا في تفككه ، فانصرف الاجلاب الى اهمال الواجبات الحربية بعد ان ضمنوا لانفسهم مصادر الثروة والسلطة والنفوذ ، مما جعل السلاطين يعتمدون في حملاتهم الحربيةعلى القرانصة برغم عدائهم للمشتروات الجلبان وحنقهم عليهم لما استأثروا به من الاقطاعات والرتب والوظائف . وتجلى ذلك منذ منتصف القرن التاسع الهجرى زمن السلطان اينال ، اذ طفحت المصادر المملوكية باخبار ثورات الجلبان ونزاعهم مع العناصر المملوكية الاخرى في الجيش ،فضلا عن استبدادهم بامور الدولة وانقياد السلطان لهم (١) .

ويشير ابن تغرى بردى الى ما وصلت اليه حال المماليك من الانهيار في القرن التاسع الهجري بأنهم مع قلتهم وضعف بنيتهم وعدم شجاعتهم ، غدا شرهم في الرعية معروفا ، ونفعهم عن الناس مكفوفا . على الرغم

---

(١) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٢ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٣٦ .
النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٤١ ، ج ٧ ص ٤٥٢ ، ٤٦٢
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٩٤ .

من انه لم يقع في هذا القرن لقاء مع خارجى غير وقفة تيمور وغـزو جزيرة قبرص • ويذكر ابن تغرى بردى عن ضعفهم وعجرفتهم وعـدم خبرتهم الحربية ،بأن الواحد منهم انفه في السماء ،ولا يهتدى لمسك لجام الفرس ، ليس لهم صناعة الا نهب البضاعة ، يتعـدون على الضعيف ويشرهون حتى في الرغيف ، جهادهم الاخراق بالرئيس ولا مـروءة لهم (١) . ولعل قلة تجريد الجند للحروب الخارجية ساعدت علـى اضعاف روح الولاء عند المماليك وكثرة ثوراتهم وانصرافهم الى الفتن الداخلية كما حدث للاقطاعية الاوروبية بعد حرب المائة عام •

ووضحت أحوال الانحلال المملوكي تماما حين اخذ السلطـان الغورى يعد العدة من جانبه لمواجهة الجيش العثمانى سنة ١٥١٦ ، فحاول تسوية مشاكله الداخلية التي نشأت عن ثورة مماليكه السلطانية من الجلبان الاحداث والقرانيص القدماء بسبب تأخر جوامكهم ، وهال الغورى ان ينغمس مماليكه في الفتنة بداخل الدولة برغم الحاجة الى الانصراف لشئون الحرب المنتظرة، فضلا عما حاق بالدولة من فقر وارتباك مالى بسبب استحواذ البرتغاليين على معظم تجارة الهند وارباحها منذ اواخر ايـام قايتباي • ولم يبق لدى الغورى الا ان يترضى مماليكه ففرق فيهـم الاموال لشراء ما يلزم من آلة الحرب (٢) • غير انه ما لبث ان وقـع الشقاق والنفار بين الفئات المختلفة من المماليك في وقعة مرج دابـق اذ اشاع خايربك بـين المماليك القراصنة ان السلطان امر مماليكـه

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) جـ ٧ ص ٣٢٨ ــ ٣٢٩ .
(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ٢١٣ .

الاجلاب الا يتقدموا للقتال حتى يصدر امره اليهم ، وفسر القرانيص ذلك بانه خطة دنيئة من السلطان الغورى ليجزيهم ويعاقبهم على مـا ارتكبوا في حقه في سابق السنين فكان ذلك كافيا لتثبيط الهمم فولى جنود الميمنة والقلب الادبار (١) .

---

(١) زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ٢١٩ .

اسماء سلاطين

المماليك

١ ـ سلاطين المماليك البحرية

شجر الدر	١٢٥٠ م
المعز ، عز الدين ايبك	١٢٥٠
المنصور نور الدين على بن ايبك	١٢٥٧
المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩
الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى	١٢٦٠
السعيد ناصر الدين محمد بركه خان بن بيبرس	١٢٧٩
العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس	١٢٧٩
المنصور سيف الدين قلاون	١٢٨٩
الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون	١٢٩٠
الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون	١٢٩٣
العادل زين الدين كتبغا	١٢٩٤
المنصور حسام الدين لاجين	١٢٩٦
الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (للمرة الثانية)	١٢٩٨
المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	١٣٠٨
الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (للمرة الثالثة)	١٣٠٩
المنصور سيف الدين ابو بكر الناصر محمد بن قلاون	١٣٤١
الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد بن قلاون	١٣٤١
الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاون	١٣٤٢
الصالح عماد الدين اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاون	١٣٤٢
الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد بن قلاون	١٣٤٥
المظفر زين الدين حاجى بن الناصر محمد بن قلاون	١٣٤٦
الناصر ناصر الدين حسن بن الناصر محمد بن قلاون	١٣٤٧
الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن قلاون	١٣٥١
الناصر ناصر الدين حسن بن الناصر محمد بن قلاون (مرة ثانية)	١٣٥٤
المنصور صلاح الدين محمد بن سيف الدين حاجى ابن الناصر محمد بن قلاون	١٣٦١
الأشرف ناصر الديـن شعبان بن حسين بن الناصر	

محمد بن قلاون	١٣٦٣
المنصــور علاء الديــن على بن شعبان بن حســين	
ابن الناصر محمد بن قلاون	١٣٧٦
الصالح صلاح الديــن حاجى بن شعبان بن حسين	
ابن الناصر محمد بن قلاون	١٣٨١

٢ ــ سلاطين المماليك الجراكسة

الظاهر سيف الدين ابو سعيد برقوق	١٣٨٢ م
حاجى بن شعبان	١٣٨٨
برقوق (للمرة الثانية)	١٣٨٩
فرج بن برقوق	١٣٩٨
عبد العزيز بن برقوق	١٤٠٥
فرج بن برقوق (للمرة الثانية)	١٤٠٥
الخليفة المستعين العباسى	١٤١٢
المؤيد أبو النصر شيخ	١٤١٢
أحمد بن شيخ	١٤٢١
ططر	١٤٢١
محمد بن ططر	١٤٢١
الأشرف برسباى	١٤٢٢
يوسف بن برسباى	١٤٣٧
جقمق	١٤٣٨
عثمان بن جقمق	١٤٥٣
اينال	١٤٥٣
أحمد بن اينال	١٤٦٠
خشقدم	١٤٦٠
بلباى المؤيدى	١٤٦٧
تمربغا	١٤٦٨
الأشرف قايتباى	١٤٦٨
محمد بن قايتباى	١٤٩٦

قانصوه خمسمائه	١٤٩٧
محمد بن قايتباى (للمرة الثانية)	١٤٩٧
قانصوه الأشرفى	١٤٩٨
جانبلاط	١٥٠٠
طومان باى الأول	١٥٠١
قانصوه الفورى	١٥٠١
طومان باى الثانى	١٥١٦ – ١٥١٧

الكشاف

١ ـ اسماء الرجال والنساء والدول والقبائل والفرق الدينية والسياسية

٢ ـ اسماء الأماكن والمدن والشوارع والأسواق والحارات والخطط والمساجد ، والخوانق والخانات ، والأنهار . والنزع والجسور

٣ ــ الالفاظ الاصطلاحية واسماء الدواوين والوظائف والالقاب ، وانــواع الضرائب ، وادوات الحرب ، والملبوسات ، والمحاصيل ، والمقاييس ، والاعيــاد ، والملاهي

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com